وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران 2
كلية العلوم الإجتماعية
أطروحة
لـــــنيـــــل شهادة دكتوراه علوم
تخصص فلســـفة الموسومة بـــ :

نظرية الحضارة في الفكر الغربي المعاصر
أرنولد توينبي أنموذجا

من إعداد الطالب: **إشراف الأستاذ الدكتور:**

يعقوب مختار **بـوشيبة محـمد**

تشكيلة أعضاء لجنة المناقشة :

إسم ولقب الأستاذ	الرتبـــــة	الصفـــــة	مؤسسة الإنتماء
دراس شهرزاد	أستاذة التعليم العالي	رئيـــــــــسا	جامعة وهـــران2
بـوشيبة محـمد	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة وهـــران2
مـــــــلاح أحمد	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقـــشا	جامعة وهـــران2
إبـــراهيم أحـمد	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقـــشا	جامعة مســـتغانم
مغربي زين العابدين	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقـــشا	جامعة سيدي بلعباس
بن دحمان حاج	أستاذ محاضر-أ-	عضوا مناقـــشا	جامعة غليزان

الموسم الجامعي: 2021 - 2022

إهــداء

أهدي عملي المتواضع:

إلـى الرّحماء في الدّنيا؛ إلى أمّي و أبي. وإلى العائلة الكريمة.

إلـى كلّ من أعطى لحياتي معان و عواطف لم أختبرها قبلُ؛ إلى أسرتي.

إلى كلّ من هداني و ربّاني، ومن زرع فيّ محبة العلم والمعرفة؛ إلى أساتذتي.

إلـى كلّ سالك سبيلا إلى الجنة؛ إلى كل طالب للعلم.

مختار

شكر

أشكر الله تعالى الذي منحني العون في إنجاز بحثي هذا و أتقدم بشكري الخاص إلى أستاذي الكريم المشرف الدكتور بـوشيـبـة مـحمـد الذي أشرف على بحثي ووجّهني بملاحظاته القيّمة فله مني خالص التقدير والامتنان.

كما أشكر صديقي و أخي الأستاذ بن صابر محمد على دماثة الخلق و طول الأناة خاصّة فيما كان يعرض لنا من صعوبات أثناء التّحرير والتّصحيح، فله علينا واجب الوفاء، وله من ربّنا وافر الجزاء إن شاء الله.

أشكر أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة و إثراء هذا الجهد والعمل الفكري وتقديم التوجيهات القيمة التي ستنير مساري العملي و الأكاديمي.

بسم الله الرحمن الرحيم:

"وَتلك الأيام نداولـها بين النـاس"

الآيـة 140 آل عمران

مقدمة

مقدمـة:

إنّ مفهوم الحضارة في العصر الحديث اصطلاح عن الانتقال من حالة البربرية وسكنى الكهوف والمغارات إلى وعي الإنسان بضرورة الاستقرار والإقامة الدائمة وحاجات الاجتماع والتلاقي بين الجماعات الإنسانية بدافع الحاجة، والمفهوم بهذا المعنى لم يعد حديثا، بل غدا قديما قدم وجود الإنسان، وأصبحنا مجمعين على أنّ الحديث عن الحضارة لا يمكن تصوّره دون الحديث عن صانعها وهو الإنسان باعتباره كائنا تاريخيا ذو وعي بالتاريخ، كما وعى قديما حاجته للاجتماع فتطوّرت حالته من العيش ضمن الأسرة والعائلة إلى العيش ضمن قبيلة ومن ثمّ بناء القرى والمدن، وفجر الحضارات تعبير متضمّن لضرورة العمل و التّشبّث بأسباب الحياة وتبادل المنافع والاهتمام المشترك بتدبير شؤون الجماعة أوّلا في الصّيد وجمع الثّمار، ولاحقا في مرحلة الزراعة خدمة الأرض وحفظ الحدود، وهذا ما رسم أو شكّل بداية الحضارة الإنسانية أو لبنتها الأولى .

الحضارة في التوقيت الكوني ومضة رائعة للتفاعل بين الإنسان ومحيطه الذي يبصمه بإنجازاته في مختلف مجالات الحياة؛ الدينية منها والاجتماعية، العمرانية أو السياسية التي تخلّد تأثير الإنسان في تلك البقعة من البسيطة في محاولته درء خطر يتهدّده، أو سعيا منه في تحسين ظروف حياته، ولمّا كانت الحضارة هي ثمرة هذه الجهود فقد اهتم كثير من الدارسين والباحثين بدراستها.

لكن من منظور التاريخ المألوف يبدو التاريخ سردا للوقائع يبعث في النفس الملل والنّفور، وإذا كان فهمنا لتاريخنا المعاصر لا يتأتّى إلا بدراسة تاريخ الحضارات المختلفة فإنه من الضروري أن نضفي على تاريخ الحضارات الوجه الإنساني، ومن هنا كان الفرق بين الكتابات التاريخية الصّرفة التي تقتصر على سرد الوقائع وأخبار الملوك والقادة والسلاطين وبين الكتابات التي تفتّش عن العلل وراء الأحداث ، ولو كان منهج ابن خلدون في التأريخ كمناهج مؤرّخي عصره ومن سبقوهم لما اختلفت أعماله عن أعمالهم

في شيء، لكنّه أضفى على ذلك التاريخ لمسته وأعمل فيه ريشته وفنّه فرسم لوحة فريدة من نوعها؛ لوحة إنسانية للحضارات، وقوانين لا تزال إلى اليوم محكمة النتائج والأسباب ، فغاية العمران الحضارة والتّرف الذي إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وكأن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي أصل الفساد، ونفس الأمر يتعلق بأنموذج بحثنا **توينبي**، فقد أجمعت العبارات بشأنه على أنه مؤرّخ يتفلسف، فكانت فلسفته للتاريخ كفيلة باستخلاص القوانين الكلية التي حكمت الحضارات ونشأتها وفترات ازدهارها ثم تفكّكها وانهيارها وتحلّلها أو فنائها، و بلمسة منه أصبح كل حدث إنساني في تاريخ الحضارات مشوّقا بعبارة جزلة وجميلة، وقاده التّحليل السابق للتّساؤل حول مصير الحضارة الغربية بل اعتبر إنجاز الغرب التاريخي متمثّلا في الخطوات الهائلة التي خطاها في مسار التّقدم العلمي والتكنولوجي خطرا يتهدّده، إذ لم يرافق ذاك التّطور العلمي ارتقاء روحيا و أخلاقيا فلقد أعلى الغرب من شأن القيم المادّية و فصلها عن القيم الأخلاقية.

أمّا ما ينطق به الواقع فقد أيّد استنتاجات توينبي التي لم تكن كما يتبادر للأذهان أنها انتقاد للعلم في ذاته، بل ينبّه إلى أن القوة الروحية هي التي تتيح الفهم الخيّر و التّوجيه الصحيح للوصول إلى الغاية من العلوم وتقدّمها وهي السعادة الإنسانية، و إنها المفارقة التي تعيشها الحضارة اليوم من امتلاكها لجميع الوسائل التي يمكن أن تزيد من رفاه الإنسانية وتخلّصها من مشاكلها، والواقع المزري الذي تعيشه البشرية من صراع وحروب ومجاعات وتهديد بيئي فخابت معه جميع أمانيها.

إن دراسة الحضارات الإنسانية هي دراسة المجتمع البشري عبر مراحل تاريخية مختلفة بدءا بمجتمع الصيد مرورا بمجتمع زراعي وآخر صناعي، إلى غاية مجتمع المعلوماتية، وفي كل مرحلة يهتم المفكرون بتقديم نموذج للفرد ينسجم مع واقعه ومع متطلبات عصره، لهذا نجد اهتمام الفلاسفة بمشكلة الحضارة قد شغل حيّزا كبيرا، وزادت أهميتها أكثر في زمن أصبح من الضروري أن يكون لكل حضارة عوامل تراعي

خصوصيات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وتأخذ بها إلى التّقدم لتجعلها قادرة على مجابهة تحديات العصر.

كما أن تاريخ الحضارة كما سنرى مع فلاسفة الأنوار هو تاريخ التطور الفكري الذي صاحب الإنسان منذ بداية المجتمع البدائي إلى غاية الفترة الراهنة، وشهدت عليه أحداث إنجازاته التاريخية المتعاقبة، فحقيق علينا التسليم بأن الإنسان قد حقّق الحضارة وأن التفكير يعتبر عملية حضارية تطورت خلال الزمن، وهي مستمرة في توجيه البشرية نحو البناء الحضاري.

اختلفت وجهات نظر المفكرين حول عوامل نشأة الحضارة، فمنهم من ينسبها إلى العناية الإلهية وآخرون إلى القدرات العقلية للإنسان، والبعض الآخر إلى عوامل جغرافية مختلفة أو خصائص عرقية لبعض الأجناس البشرية، أما أرنولد توينبي فقد أقرّ أنّ كيفية استجابة الأمم للتّحديات التي تواجهها هي التي ستحدّد دخولها عالم الحضارة من عدمه.

يؤكّد توينبي على أن البيئة لا تكفي وحدها لقيام الحضارة ولا تصنع الجماعة المتحضرة، كما يشير إلى رفض نظرية الجنس التي تختصّ عرقا بقدرته على صنع الحضارة دون غيره من الأعراق، فهناك أكثر من مهد لحضارة الإنسان، بل اعتبر الحضارة ظاهرة إنسانية مشتركة تخضع لعامل نفسي يتمثل في التحدي و الاستجابة.

استلهم توينبي نظرية التحدي والاستجابة من علم النفس السلوكي لكارل يونغ Carl Yung الذي يوضّح أنّ الفرد عندما يتعرّض لصدمة يفقد توازنه لفترة ما، ثم يستجيب لها بطريقتين: إما أن يهرب إلى الماضي وينطوي على نفسه وهذه استجابة سلبية، وإما أن يقبل الصدمة و يعترف بها ويحاول التغلب عليها وهذه استجابة إيجابية.

أما تطبيقات النظرية في نشأة الحضارات؛ فيراها توينبي في كيفية مواجهة التحديات البيئية أو البشرية التي استجابت لها المجتمعات الأولى بطرق مختلفة، وإن

منشأ أي حضارة من الحضارات ونموّها وارتقاءها مرهون بمدى استجابة المجتمعات للتحديات التي تواجههم.

تبقى الحضارة عنوانا للمسيرة الإنسانية و إبداعاتها عبر العصور ثقافيا واجتماعيا وعلميا ودينيا..الخ، وإنّ تميّز **توينبي** عن الفلاسفة والمؤرخين بآرائه في ميدان فلسفة التاريخ وفلسفة الحضارة هو ما حفّزنا ودفعنا إلى تبنّيه كموضوع دراسة تعبّر عن إشكالية البحث في صياغتها التالية:

الإشكالية:

الى اي مدى استطاعت نظرية الحضارة عند توينبي ان ترسي قواعد جديدة مفسرة للتاريخ بعيدا عن تلك المرتبطة بمركزية الحضارة الغربية في الفكر الغربي المعاصر؟ اضافة للأسئلة تنبثق من هذه الاشكالية حول معرفة اهمية الدور الذي لعبته هذه النظرية في اعادة الاعتبار لحضارات عظيمة سبقت الحضارة الغربية و عمرت لألاف السنين اكثر مما عمرت هذه الحضارة الفتية نفصد بذلك الحضارة الغربية المعاصرة ؟ و كيف تقدم نظرية نظرة جديدة للواقع تمكن الباحث على هديها من استشراق المستقبل بالنسبة للمجتمعات عامة و الحضارة المعاصرة بوجه خاص ؟ و التي يتساءل كل باحث عن مصيرها امام التحديات الخطيرة التي باتت تواجهها في ظل عالم التكنولوجيا و التقنية

و ما تمليه عليها من مخاطر جديدة غير مسبوقة

هذه الأسئلة تأسّست لنبحث في الإجابة عنها فكان عنوان رسالتنا: **نظرية الحضارة في الفكر الغربي المعاصر أرنولد توينبي أنموذجا.**

الفرضيات:

تنطلق هذه الدراسة من فرضية جوهرية مفادها أن الحضارة جسّدت دورا كبيرا ومؤثّرا في الفكر الغربي المعاصر بأبعاده الدينية والإيديولوجية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، لتصبح إحدى الركائز الأساسية في النسق الفلسفي الغربي كما أن هناك فرضيات تنبثق عن هذا الافتراض العلمي هي:

ترتبط نشأة الحضارة عند كثير من المؤرخين والفلاسفة بعوامل كالبيئة والجنس فهل هي كافية من وجهة نظر **توينبي** في البناء الحضاري؟ أم أن هناك عوامل أخرى تدخل في النشأة الحضارية؟ كيف يساهم الدّين في قيام الحضارة بعد انهيارها وتحلّلها حين تخفق العوامل التي تساهم في بناء الحضارة هدفها أو تستنفذ جميع إمكاناتها؟ وما دور المبدعين والنخب في الارتقاء بالفرد والمجتمع إلى تحقيق مشروع البناء الحضاري؟

تصميم البحث:

لتحقيق متطلبات بحثنا قسمنا الأطروحة إلى مقدمة و ثلاثة فصول كل فصل يحتوي على ثلاثة مباحث، وبما أن موضوعنا يتناول نظرية الحضارة في الفكر الغربي المعاصر توينبي أنموذجا بدا لنا ضروريا أن نعنون الفصل الأول كالآتي: **من الماهية إلى الكرونولوجيا والمرجعية** ونضع المبحث الأول ك: مدخل مفاهيمي ، أما المبحث الثاني فخصصناه ل: كرنولوجيا الحضارة في الفكر الفلسفي، والمبحث الثالث معنونا ب: المرجعية الفكرية لأرنولد توينبي.

أما الفصل الثاني عنوانه نظرية **الحضارة عند أرنولد توينبي** ويحتوي على ثلاثة مباحث، جعلنا عنوان المبحث الأول: **انتقادات توينبي لنظريات نشأة الحضارة** وفي المبحث الثاني بحثنا **ميلاد الحضارة** أما المبحث الثالث تطرقنا فيه إلى **نمو الحضارة وارتقاؤها**

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن دراسة نقدية بعنوان **من الانهيار إلى التجديد الحضاري** ، وقسّمناه إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول **انهيار الحضارة وتحلّلها** ، ورأينا أنه من الأنسب في المبحث الثاني بحث **مصير الحضارة الغربية** أما المبحث الثالث فخصصناه ل **الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة** وختمنا بحثنا بمجموعة من النتائج التي توصلنا لها لفهم إشكالية الحضارة.

المناهج المتعبة:

لإثبات الفرضيات التي وضعناها ولتحقيق الأهداف التي رسمناها رأينا أن نلتزم منهجا دقيقا في إصدار الأحكام أو الأفكار، وهذا اعتمادا على النصوص الثابتة والأصلية لأرنولد توينبي وذلك ليتسنّى لنا التّحليل والبناء بشكل ممنهج، ومصداقية لبحثنا في هذه الأطروحة، وظّفنا المنهج التحليلي لضبط المصطلحات الهامّة وقراءة النّصوص وتحليل الأفكار، دون إهمال المحطّات التّاريخية المهمّة التي من خلالها طبقنا ومارسنا المنهج التّاريخي عندما تتّبعنا مصادر وتسلسل فكرة الحضارة عبر الحقب التّاريخية. كما قمنا بالمقارنة والمماثلة بين النّظريات المفسّرة للتّاريخ التي بحثها توينبي ومشكلة الحضارة.

الدراسات السابقة:

عندما كنا بصدد البحث عن دراسات سابقة حول موضوع أطروحتنا: نظرية الحضارة في الفكر الغربي المعاصر توينبي أنموذجا لم نجد دراسات محدّدة بهذا الموضوع، ولكن وجدنا دراسات حول الحضارة و مواضيعها المتعلقة بها بصفة عامة.

ولمّا كان موضوعنا استمرارا لمشاريع تبحث في طبيعة ومسار وآفاق البناء الحضاري، فقد استفدنا من مختلف الباحثين في مجال الحضارة، أمّا الأطروحات المناقشة على مستوى جامعات الوطن التي تضمّنت مصطلح حضارة فعلى سبيل المثال لا الحصر وجدنا دكتوراه بعنوان: **فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي و روجيه غارودي**، إعداد

الطالب: مسعود بعيش، إشراف الأستاذ يوسف حسين، جامعة **الجزائر**، سنة2007م، وبالوطن العربي رسالة دكتوراه بعنوان: **أزمة الحضارة العربية الإسلامية**، للطالب: محمود داغسني، إشراف الأستاذ رضا عزوز، جامعة الزيتونة، سنة 2013م، إضافة لرسالة دكتوراه تحت عنوان: **حوار الحضارات**، من إعداد الطالب فهد السنيدي، إشراف الأستاذ مازن مطبقاني، جامعة الملك سعود، سنة 1429هـ.

وباللغة الأجنبية رسالة دكتوراه لايفلين ارجود Evelyne Argaud حول تعليم الحضارة معنونة ب: **l.enseignement de la civilisation** تحت إشراف Geneviere zarate. باريس3-2001،وأخرى لهشام شراد Hichem Cherradبعنوان**Histoire et civilisation** تحت إشراف: Samaha Khoury جامعة بوردو3، سنة 2009، كما نجد عنوانا آخر: الحضارة والحقوق الدولية العامة **civilisation et droit international public** من إعداد: فريال هارلوت Feriel Herlaut تحت إشراف Eric Canal Forgues جامعة باريس، سنة 2016.

صعوبات البحث:

الصعوبات التي واجهتنا في بحثنا هي مشتركة لدى الكثير من الباحثين، إلا أنها تختلف باختلاف الموضوعات، نذكر منها على سبيل الحصر، مشكلة الترجمة للنصوص والمصادر الأصلية باللغة الإنجليزية لاسيما **دراسة للتاريخ** الذي لم يترجم إلى اليوم للغة العربية، إضافة إلى عدم توفّر المصادر الرئيسة للبحث بجميع مكتبات الجامعات الجزائرية دون استثناء، فاخترنا أكثر المصادر التي تحقق غرض الموضوع، بالإضافة إلى ندرة الدّراسات السابقة فيما يخصّ نظرية الحضارة عند توينبي، رغم كل هذا حاولنا بذل الكثير من المجهودات من أجل تحقيق هدف البحث وغرضه.

أفاق ومستجدات البحث:

الاهتمام الشخصي بالحضارة دفعنا إلى البحث عن آراء فلاسفة الحضارة ومن أهمّ روّادها **أرنولد توينبي** ونظريته في التحدي والاستجابة، التي انتقلت إلى كامل الفكر

الفلسفي العالمي، وكوني باحث جزائري أطمح أن يكون وطني في مصافّ الدول المتحضّرة، كما أطمح أن يساهم هذا البحث في وضع إستراتيجية لمشروع نهضوي حضاري بالوقوف على الأفكار التي تضمّنها هذا البحث والمساعدة على تحقيق ذلك والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

الفصل الأول

من الماهية إلى الجينيالوجيا والمرجعية

الفصل الأول: من الماهية إلى الكرونولوجيا والمرجعية

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي

المبحث الثاني: كرنولوجيا الحضارة في الفكر الفلسفي

المبحث الثالث: المرجعية الفكرية لأرنولد توينبي

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي

سنحاول في هذا المبحث أن نلقي الضوء على مفهوم الحضارة CIVILISATION ودلالته الاصطلاحية إذ أن المفهوم بعد ترجمته إلى العربية مسّه حظ من التشويه فقد التبس المفهوم على كثير من الدّارسين الذين يجعلونه مرادفا للفظي الثقافة والمدنية اللذين يختلفان عنه في الدّلالة فضلا عن الاشتقاق والجذر اللغوي، كما سنستوضح مفاهيم الثّقافة، المدنية، البروليتاريا وغيرها من عناصر الحضارة، مرجعين الاشتقاق إلى الأصل اللّاتيني ما أمكننا.

ما الحضارة في الفكر الغربي ؟ ومتى نقول عن مرحلة من مراحل الإنسانية أنها تعبّر بحقّ عن الحضارة ؟ وهل التّقدم بكافة أشكاله وأنواعه يعتبر كافيا لاكتمال عناصر قيام حضارة، أم لابد من قيم تهذب تلك العناصر لاكتمال بنيان الحضارة ؟ هل يشهد العالم اليوم حضارة في ظلّ هذا التقدم التكنولوجي والمعرفي ؟ وهل ساهم هذا التقدم في رخاء البشرية ورصّها في صفّ واحد، أم أوغل في زيادة شقائها وتعاستها واتساع الهوة بين طبقاتها ؟ حضارات أم مدنيات ؟ ما الحضارة عند **توينبي** وما العوامل التي تسهم في قيامها ؟ ما معنى القول بوحدة الحضارات التي تجعل مؤرخي الغرب يعتبرون الحضارة الغربية المرجع والأنموذج الوحيد والأعظم قيمة بين الحضارات جميعها ؟ وكيف ينتقد تلك الادعاءات التي استقرت في فكر هؤلاء المؤرخين بعد أن تخلّص من أوهامهم؟

الحضارة: CIVILISATION

"مشتقة من الأصل اللاتيني CIVIS أو المدني ساكن المدينة ،المنسوب إلى المدينة"[1]

لغة : نجد في المعجم الوسيط " – الحضارة الإقامة في الحضر قال القطامي: و "من تكن الحضارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا" – ضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني". [2]

لا نجد في الاستعمالات الكثيرة في الوضع اللغوي معنى غير الذي يجعل من الحضارة والبداوة متقابلين ، وفي المعجم الفلسفي " الحضارة الإقامة في الحضر ...البداوة الإقامة في البوادي "[3] وفي الحديث " لا يبع حاضر لباد ، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض"[4] لأن فيه إضرار بأهل المدن، والشيء إذا تكرر تقرر فشاع بين الناس اشتقاق لمعان عدة من اللفظين، الحواضر، البوادي، الحاضرة، البادية، المتحضر، البدوي الحضر، البدو،...الخ ، كما يحيل إلى بعد المعاني عما يراد من اللفظ في سياقات استعماله المختلفة في وقتنا الراهن، ويشير إلى ارتباط الحضارة بالمدينة سواء في الاشتقاقين اللاتيني أو العربي فالمواطن الساكن المدينة في الحقبة اليونانية يحظى بمزايا المساواة في الحقوق مع أقرانه ، وربما امتاز الحضري بما يفاضل به البدوي من لين المعاش و الاستقرار في مقابل الترحال والتنقل ، مما سمح للأول تحصيله للمغانم،(مادية كانت أم فكرية) تجلت مظاهرها في الإنجازات والاختراعات لاحتضان المدينة في الغالب الأعم لرجال العلم والفكر في مختلف الميادين.

[1] - Michel Legrain ,dictionnaire encyclopedique,larousse,vuef, paris,2002,p319.

[2] – أنيس إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط4، 2004، ص181.

[3] – صليبا جميل ، المعجم الفلسفي ،ج1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، دط ،1982، ص475.

[4] – أخرجه مسلم رقم 1522.

إن من خصائص المدينة كما يرى **ول ديورانت** صياغة حكمة المدنية الذي ينتج عن ذلك الضرب من السلوك المهذب ولأنها المآب لما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول، إنها ناد للتجار وملتقى لطرق التجارة وللأفكار التي تتلاقح بعد أن يتم تبادلها زيادة عن السلع" في المدينة يستغنى عن فئة من الناس فلا يطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ، نعم إن المدينة تبدأ في كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا في المدن ".[5]

اصطلاحا:

لا شكّ أن المعنى المراد من الحضارة في الفكر الغربي المعاصر وفي التداول اللفظي والفلسفي لا يمت بصلة إلى المعنى العربي والوضع اللغوي للمصطلح لأن اللفظ نشأ خارج البيئة اللغوية العربية، فمن الاختصار للوقت والجهد عدم لي اللسان والقلم بمحاولات مد جسور المعاني بمباني تشي بالاختلاف عن المعنى المقصود ، ومن الاختصارات المفيدة إقرار مجمع اللغة في المعجم الوسيط باللفظ الذي تعنيه كلمة الحضارة اليوم بأنها " جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر"[6].

أما **أندري لالاند** فيعرفها كالآتي" مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة ذات طبيعة قابلة للتناقل تتسم بسمة دينية أخلاقية ، جمالية فنية ، تقنية أو علمية ، ومشتركة بين كل الأجزاء في مجتمع عريض أو في عدة مجتمعات مترابطة "[7] وقريب من المعنى الذي أقره **لالاند** بأنها خصائص متميزة لجيل أو عدة أجيال تتوارث قيما تجعل المجتمع يحيا

---

[5]– ديورانت ول ، قصة الحضارة ، تر زكي نجيب محمود ، ج1 ، دار الجيل للطبع النشر والتوزيع ، بيروت –لبنان ، دط دت ، ص5.

[6]– أنيس إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، مرجع سابق ، ص 181.

[7]– لالاند أندري، الموسوعة الفلسفية، تر خليل أحمد خليل، ج1، منشورات عويدات ،بيروت– باريس، ط2،2001، ص172.

حياة الخصب والنماء ما جاء في المعجم الفلسفي " جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والتي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع أو مجتمعات متشابهة، وهناك حضارات قديمة وأخرى حديثة، شرقية وأخرى غربية، والحضارات متفاوتة فيما بينها ولكل حضارة نطاقها(aire) وطبقاتها(couches)ولغاتها(langues "[8]، ما الغاية التي يطلبها الإنسان فردا ومجتمعا من وراء السعي لامتلاك التقنية، العلوم، الإنسانية ؟ ما هي الثمار التي يأمل جنيها وراء كل مسعى أو تحديات ينجح في التغلب عليها ؟

لاشك أن الإجابة عن سؤال كهذا لا يتطلب مفردات كثيرة وإن تطلب في أحيان كثيرة سنين ودهورا ليصل إلى الغاية المنشودة وراء كل سعي ممثلة في توفير الوسائل التي تحسن ظروف الحياة الإنسانية وتجعلها ملائمة أكثر ، تلكم هي الحالة التي يصح أن يطلق عليها الحضارة " الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية " .[9]

و يفصل صليبا في معجمه بين معنيين للحضارة عند المحدثين موضوعي مشخص بينما الآخر ذاتي مجرد، أما الأول فالذي اشرنا إليه قبل قليل متجليا في مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي...الخ " أما الحضارة بالمعنى الذاتي المجرد فتطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش، أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة ". [10] تلكم الصورة الغائية هي التي تفصل بين المعنيين بإضافة عنصر جديد إلى عناصر التقدم

[8]– مدكور إبراهيم ، المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، دط ،1983،ص73.

[9]– مؤنس حسين ، الحضارة ، عالم المعرفة–المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط2، 1998،ص13.

[10]– صليبا جميل ، المعجم الفلسفي ،ج1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت –لبنان ، 1982 ، ص 475.

ممثلا في الميل إلى القيم الروحية والفضائل الأخلاقية، بل يغدو معيارا للحكم على الحضارات.

يشير **ألبرت اشفيتسر** بعد أن أمضى ردحا من الزمن غير يسير في البحث عن ماهية الحضارة وطبيعتها إلى أن جوهر الحضارة أخلاقي " وأنا أعلم أن تقرير الأمر على هذا النحو، أعني القول بأن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية سيثير الدهشة بل والاشمئزاز في نفوس أبناء هذا العصر الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات التاريخية والمادية والجمالية " [11] ولا مجال للاختلاف في أن تلك الاعتبارات لا يستطيع أحد نكرانها وتقديرها لكنها بنظره تعتبر ظروفا مصاحبة للحضارة ولا شأن لها بجوهرها أي الأساس الأخلاقي الذي تدور معه الحضارة وجودا وعدما، والذي إن وجد نمت وتطورت بطريقة مثالية و إن افتقرت إليه انحلت وتداعت.

وبناء على ما سبق ف" الحضارة بكل بساطة معناها بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي، وهذا الموقف العقلي يتضمن استعدادا مزدوجا : فيجب أولا ان نكون متأهبين للعمل إيجابيا في العالم والحياة؛ ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين ."[12]إذ يتعارض مفهوم الحضارة بصورة نهائية مع مفهوم البربرية التي تنكر الآخر والتعددية ، بينما تعمل الحضارة على تكميل النوع الإنساني وهو اعتراف ضمني بالآخر.

يذهب **تودوروف** إلى قدرة الحضارة على الاستيعاب والاعتراف بكافة الأشكال الثقافية كما تشير إلى ذهنية قابلة للانصهار معه، ويشيد بالفرنسي **كلود ليفي ستراوس** والأنثروبولوجيين الذين يتسمون بنزعة إنسانية ويرون في الحضارة تراثا إنسانيا مشتركا أما من يؤسس لصدام الحضارات كمرسوم غير قابل للنقاش فهو يزحف تحت قناع قيم

[11] – اشفيتسر ألبرت ، فلسفة الحضارة، تر عبد الرحمن بدوي ، مطبعة مصر ، القاهرة ، 1963 ، ص 4.

[12]– المرجع نفسه ، ص 5

التسامح والحرية لتحقيق أهدافه الإمبريالية ، مدعوما بإشاعة الخوف من الآخر الذي أضحى رهابا يقض مضجعهم فأغرقوا في إذلاله وتعذيبه راسمين أنذل صور البربرية والوحشية وما أحداث أبو غريب و غوانتانامو ببعيد.

كما يرفض **تودوروف** كسابقيه ذلك الربط الممنهج بين الحضارة والتقدم التكنولوجي والازدهار الفني، و" إجمالا فإن الحضارة تعبير عن إنسانية مشتركة واعية بوحدتها العميقة و قادرة على الترابط والتلاحم في خضم تنوع أشكال التعبير الثقافي " [13] .

ومن ثم نلمس تلك الدعوات لإعادة النظر في المناهج والعلوم التي تجعل من حضارة ما تعلو على باقي الحضارات وتنظر إليها في صلف واستعلاء، ذلك أن مفهوم الحضارة في معناها الكوني هو مطلق الحضور الذي نلتمسه في تجربة أي مجتمع، فكثير من المجتمعات بنظر هؤلاء المفكرين اقتصرت على مجرد الوجود دون حضور، " الحضارة بمعناها العام هو مطلق الحضور، أي طبيعة ونسق حضور أي تجربة بشرية استطاعت أن تصوغ نموذجا بشريا للحياة بكل أبعادها ونواحيها تسعى لتقديمه للآخرين ليقتدوا به ويسيروا وفق منظومته على أساس أنه النموذج الإنساني الأجدر بالإتباع ". [14]

يرى **شبنغلر** أن الحياة هي الشكل الذي يتجسد فيه الممكن، ويستحيل إلى واقع كما أن التاريخ والطبيعة تتضمنان الحياة والوقائع التي حدثت، فالحضارة هي فن تحقيق الممكن ، وهذه الصيرورة لانهائية داخل الوعي اليقظ الذي يشبّهه بالرّجل في حال يقظته وهو يعيش أحداث حاضره ويحقّق إمكاناته، أما الرجل الحالم فهو شبيه بالطفل الذي لا يملك رؤية واضحة مميزة للعالم، يحثّ السّير دون أن يخطّ أثرا.

---

[13]– تودوروف تزيفتان ، تأملات في الحضارة والديمقراطية و الغيرية، تر محمد الجرطي ، وزارة الثقافة والفنون والتراث ، الدوحة –قطر، 2014، ص 22.

[14]– محمد عارف نصر ، الحضارة – الثقافة – المدنية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، عمان ،ط2 ، 1994، ص 60.

بهذه المقدمات يصل **شبنغلر** إلى القدرة على التفريق بين الحضارة الممكنة والحضارة الواقعية لأن" الحضارة هي فكرة في الوجود (in existence)، وهي بمثابة الجسد لهذه الفكرة، جسد كل ما هو منظور ومحسوس ومدرك من تعابيرها، كالأعمال والآراء...والفنون والعلوم ، والمدن والاقتصاد ...والقوانين والعادات .. " [15] فالتّاريخ يكتبه بنظره العالمون العاملون لا الحالمون، لأن التّاريخ يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة الممكنة في مجرى التّحقّق، إنه التّمييز الذي قلّما فهم أو أدرك، بين الخبرة التي مورست وبين الخبرة كما درست، إنه الإدراك للأثر الذي يحدثه السّعي للحاضر وفي الوعي للماضي والإعداد للمستقبل.

ما أسهل ما يتمنى المرء كذا الأمم وتتطلع إلى نيل الغايات وإلى لعب دور في التاريخ، يحدوها في ذلك الحماس المندفع والغريزة الثّائرة وتحرّكها جهود وهمم تلهب العزائم، ولكنّها إذا لم تتّخذ الوسائل وتكرّس الاختيار الواعي للأسباب والعوامل التي تحرّك المجتمع نحو غايته ألفيت تلك الطاقات والجهود قد ضاعت سدى، مصحوبة بالأسى والزفرات وهي ترى أطوار التغير المنشود سياسيا واقتصاديا ومعرفيا ...الخ تتوالى في الأمم التي استغلت جهود أبنائها استغلالا جيدا بسلوك واع حقّق تلك الإمكانات وجسّد ما جادت به قرائحهم، متعلّمة كل مرّة من سقوطها مقدّرة تضحيات مبدعيها ومفكّريها.

يمكن أن يستعمل لفظ الحضارة لأداء المعنيين السالفين، فنقول عن المجتمع الآنف الذّكر أنه يحيا حضارة، وأن السّابق لم يدرج بعد نحو عتبة الحضارة، فضلا عن الدّور الذي تمرّ به من ازدهار أو ذبول، وسيّان فهمنا للحضارة بهذا المعنى التّقييمي الذي يركّز على القيم التي تتضمّنها الحضارات وتتميّز بها كما يقرّر الأستاذ **رزيق** أو بالمعنى الوصفي الذي يجعل لكلّ شعب حضارة، طريقة حياته وأنشطته، ومبلغه من العلوم

[15]– اشبنغلر اسوالد، تدهور الحضارة الغربية ، تر أحمد الشيباني ، ج1 ، منشورات دار مكنبة الحياة ، بيروت– لبنان ، دط ، دت ، ص 126.

والسّياسة و منتجاته مادّية أو معنويّة ممثّلة في عاداته وأعرافه والأخلاق المتّبعة بين أفراده، فإن مثل هذا الفهم والإدراك هو الذي تستبين على ضوئه الأوضاع القائمة في مجتمع مقابل أخرى في مجتمع مغاير، وربما كان باعثا على الانتقال من وضع يستدعي جهودا عظيمة إلى وضع يساير تطلعات الشعوب الراغبة في عيش أفضل الأوضاع " الحضارة هي حياة هذا المجتمع المتمثلة في نظمه و مؤسساته، وفي مكاسبه وإنجازاته وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها،...إن المجتمع هو كالجسد أو كالوعاء وإن الحضارة هي كالروح أو كالمحتوى والمضمون ". [16]

وعليه فلا يمكن الحديث عن الحضارة حين لا يشعر الفرد بالأمان و حيث يحجر على أفكاره ، فكيف إذا وصل الأمر إلى أن يفرض هو نفسه الرّقابة عليها خشية تأويلها بما لا يتناسب والتّيار الذي قد يسير عكس تفكيره واستنتاجاته عن الوضع العامّ .

إنّ الحضارة مشروطة بعوامل تستحثّ خطاها ولا تعوق مسارها ، وما حاجة الإنسان لدراسة الماضي إذا انحصرت في تمجيد السّاسة والزعماء وأخبار الملوك والمعارك وأهملت تلك الدّراسات عن قصد أو بدونه الإنسان الذي فسّر الكون وسخّر الطّبيعة ؟ ثم إنّ المتأمّل في التعاريف السّابقة للحضارة متأمّل في سجلّ إنجازات الإنسان وإسهاماته في مختلف مناحي الحياة، ومن حقّ الرجل العادي كما يقول فلاسفة التّنوير أن يصدح بكل قوته لا يهمّني أن أصل إلى القمر ولكن يهمّني أن أعيش سعيدا على الأرض، لا أريد أن أعيش في يوتوبيا تلك المروج التي تقع تحت الأرض، ولا على جنّة يعلم الله وحده أين تكون، بل مناي في هذا العالم نفسه الذي نحيا فيه، إمّا أن أجد فيه سعادتي في نهاية المطاف، أو لا أجد شيئا على الإطلاق " الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي ، ...وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق ، لأنه إذا ما أمن

[16]– رزيق قسطنطين ، في معركة الحضارة ، دار العلم للملايين ، بيروت– لبنان ، ط4 ، 1981 ، ص 40.

الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها ".[17]

الحضارة عند توينبي:

يستهل **توينبي** كتابه دراسة للتاريخ بملاحظة حول الميدان المألوف للدراسة التاريخية عند المؤرخين متمثلا في الأمم والجماعات والذي تبلور حسب **توينبي** نتيجة التطور الذي عرفته بعض الدول والقوميات، لكن هذا التأريخ للدول القومية لا يمكن أن يكون مفسّرا لنفسه بنفسه، ولو كان هذا ممكنا لكانت بريطانيا العظمى الدّولة التي في ميسورها أن تزوّدنا بمثل ذلك.

يتساءل توينبي " فهل التاريخ الإنجليزي قابل للفهم في حد ذاته ؟ وهل يتأتّى عزل تاريخ إنجلترا الدّاخلي عن علاقاتها الخارجية؟ وإن استطعنا هل سيكون لما يتبقى من علاقاتها الخارجية أهمية ثانوية؟ و إذا تولّينا تحليل هذه العلاقات، هل سنجد مرة أخرى التأثيرات الأجنبية على إنجلترا طفيفة بالمقارنة بتأثيرات إنجلترا على بعض أجزاء العالم الأخرى؟"[18]

إن أفضل الطرق للإجابة على هذه الأسئلة هي عكس الرتيب الزمني لتاريخ بريطانيا الذي مرّ بسبع مراحل تمثل الفصول الأساسية في سيره:- قيام الاقتصاد الصناعي في نهاية (ق 18م) -إقامة النظام البرلماني (ق17)-إقامة مستوطنات عبر التوسع بحرا والتجارة الخارجية والإصلاح الديني(ق16)- النهضة (ق15)-النظام الإقطاعي (ق11)-التحول الديني مما يسمى عصر البطولة إلى الدين المسيحي (نهاية ق06) ليتبين لنا أن التاريخ البريطاني هو كل هذه الجوانب المتصلة بعضها ببعض خلال حركة التاريخ

[17]- ديورانت ول ، قصة الحضارة ، تر زكي نجيب محمود ، ج1 ، دار الجيل للطبع النشر والتوزيع ، بيروت – لبنان دط دت ، ص3.

[18]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، ص03 .

لا يمكن فهم جزء من الفصول التاريخية السابقة عند **توينبي** إلا من خلال دراسة الكل؛ فمثلا بالنسبة للنظام الإقطاعي وإن كانت بذوره نبتت في التربة البريطانية فلم يكن ليتطوّر لولا توفّر عامل خارجي متمثّلا في الغزو الدّنماركي وما كان ليكتمل لولا الغزو النّورمندي " وأما بالنسبة للنهضة فإنه من المسلّم به عند الجميع أنها من جانبيها الثّقافي و السياسي نسمة هبّت من شمال إيطاليا، فلو لم تبذر بذور المذهب الإنساني والسّلطان المطلق وإقامة العلاقات الدولية على توازن القوى، على صورة مصغّرة في شمال إيطاليا مثلما تزرع الفسائل في مشتل محميّ من تقلّبات الجوّ طوال قرنين .. لما قدّر لهذه المذاهب بحال أن تغرس شمال جبل الألب ابتداء من عام 1475 وما تلاه" [19]

إذن لا تستند وحدة الدّراسة التّاريخية إذا كانت الحالة كما أسلفنا إلى القومية أو فكرة سياسية ، لأن التّاريخ القومي بحسب **توينبي** وكما رأينا في فصول التاريخ البريطاني ليست سوى تجارب شاركت فيها أمم أخرى وبالتالي يتّضح لنا بالفعل أن ميدان الدّراسة القابل للفهم بذاته هو المجتمع الذي يضم عددا من المجتمعات .

لابدّ أن نشير إلى أن مفهوم **المجتمع** يعتبر المفهوم الأساس الذي يرتكز عليه توينبي في دراسته للتاريخ، و هو مرادف عنده لمفهوم **الحضارة**، فإذا رأينا توينبي يقول مثلا المجتمع الغربي أو الحضارة الغربيّة فهما بمعنى واحد لا يختلف أحدهما عن الآخر وعلى هذا تنتمي بريطانيا حضاريا للمسيحية الغربية وهي الحضارة أو المجتمعات التي تدين بالمسيحية، لأنّ الدّين كما رأينا في اللّمحة العكسية لتاريخ بريطانيا هو ما تنتهي إليه فصول السّيرورة التاريخية، وهو بهذا كان في الحقيقة مبدأ كلّ شيء، إذ أدّى حسب **توينبي** إلى إدماج تلك القوميات والجماعات الهمجية المنعزلة في حظيرة المجتمع الغربي أو الحضارة الغربية وعليه " فإن تحوّل الإنجليز إلى المسيحية الغربية، قد جعلهم أعضاء في مجتمع، مقابل إقصائهم عن عضويّة مجتمعات أخرى ..وبينما وحّد التّحول الدّيني

[19]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر فؤاد شبل محمد، ج1، المركز القومي للترجمة، القاهرة،دط، 2011، ، ص 05.

عام 597 بين الإنجليز والمسيحية الغربية، إلا أنّه لم يوحّدهم مع الجنس البشري كافّة، بل أقام في نفس الآن حدّا فاصلا يفصل بين الإنجليز باعتبارهم مسيحيين غربيين، وأتباع الجماعات الدّينية الأخرى"[20] .

وعلى هذا الأساس ميّز **توينبي** إضافة للمسيحية الغربية وجود أربعة مجتمعات أخرى لا تزال قائمة إلى اليوم؛ مجتمع مسيحي أرثوذكسي–المجتمع الإسلامي–المجتمع الهندوكي–مجتمع الشرق الأقصى.

هذه **المجتمعات** " تدعى عادة **حضارات** تمييزا لها عن المجتمعات البدائية..و بالتالي فإن طابعا مميّزا يجمع بينها، وهو أنّها المجتمعات الوحيدة التي تمرّ في أطوار التّحضر"[21] إذن فا**لحضارة** بما سبق معنا من عناصر هي ذلك الكلّ أو ميدان الدّراسة التّاريخية القابل للفهم بذاته، المجتمع الذي يعيش دورة حضارية.

وبناء على هذا التّحليل تصبح تلك الوحدة أو الكلّ المسمى بالحضارة المسيحية الغربية " في الحقيقة المجتمع الذي يضم عددا من الجماعات من النوع الذي تمثله مجموعة من الأمم، لا بريطانيا وحدها، ولكنه يضم فرنسا وإسبانيا وهولندا والبلاد الاسكندنافية..الخ"[22]

الثقافة : culture

مشتقة من الأصل اللاتيني " Colo, cultum, colere أي بمعنى فعل حرث الأرض يزرع باهتمام ، بعناية" [23] و هي لا تعني زراعة الأرض فقط، بل تعدّى معناها ليشمل التّربية العقلية ، زراعة العقل وتنميته بالعلوم والمعارف والصّنائع أيضا وكلّ ما ينمّي الملكة النّقدية التي تسهم في المجتمع " والثّقافة هي العلم مستأنسا .. ويقول عنها شيشرون إنها الطّبيعة الثّانية وهي لا تعني فقط الزّراعة وإنما تعني أيضا تربية الإنسان لذاته ... واللّفظ العربي مأخوذ من تثقيف الرّمح أي تسويته .. ثم اتّسع معناه شيئا فشيئا

---

[20]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، مصدر سابق، ص 12 .

[21]– المصدر نفسه، ص 56 .

[22] - Arnorld Toynbee, A study of History, vol 1, Oxford University Press, 1956, p22 .

[23] -Breal Michel , Dictionnaire Etymologique latin ,libraire Hachette – c paris , 6ed, p46.

فأصبح المهارة في صناعة بعينها ، ثم تجاوز هذا المعنى وانتقل إلى معنى يتّصل بحياة العقل والذّوق" .[24]

تجدر الإشارة إلى أنّ العلم ليس شرطا كافيا في الثّقافة إذا لم ينمّ في الإنسان ذوقا سليما و حكما صحيحا، وعواطف مهذّبة، إنها ببساطة لا تعني العلوم ذاتها، إنّما نتيجة تنميتها واكتسابها وماذا قد أفادت صاحبها من الخلال التي تميّزه في المجتمع الذي يحيا فيه.

أمّا عن دلالاتها تاريخيا فقد أفاض الدكتور **نصر محمد عارف** في إيضاحها حيث أشار إلى أن اللفظ أفاد منذ عصر **شيشرون** التنشئة على تكريم الآلهة واستمر بهذا المعنى حتى القرون الوسطى فأطلقت في فرنسا على الطقوس الدينية cultesالتي من معانيها في الموسوعة" التسبيح والتعبد لله ، للمعبود ، لكل ما هو مقدس ، ... ".[25]

أما في عصر النهضة فاقتصر المفهوم على دلالته الفنية والأدبية التي تتناول التربية والإبداع ثم أفرد فلاسفة القرن 17م للمفهوم نسقا خاصا بالرجوع قدر استطاعتهم إلى الجذر اللغوي للكلمة والدلالات المشتقة منه، نذكر على سبيل المثال **فرنسيس بيكون** الذي جعل من مرامي الفلسفة اعتمادها على صورة التثمير الزراعي ، كذا **فولتير** ومفكري فرنسا الذين جعلوا غرس العقل بالذوق والفهم زينة وتنمية له ، واستمرت الكلمة بهذا المعنى إلى أن جاء **إدوارد تايلور** في القرن 19 م فألبس الكلمة لبوسا يعدّ من أوفى التعريفات التي تعتمد إلى اليوم ونصّه كالآتي :" culture بمعناها الأثنوغرافي الواسع هي : ذلك الكل المركب الذي يشتمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع " [26]،هذا

[24]– وهبة مراد ، المعجم الفلسفي ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، دط ، 2007، ص 229.

[25] - Michel Legrain ,dictionnaire encyclopedique, op. cit , p 410 .

[26]– محمد عارف نصر ، الحضارة – الثقافة – المدنية ، مرجع سابق ، ص20.

التعريف زمنه النصف الثاني للقرن 19م، و لا ريب فقد أعطيت للمفهوم دلالات قريبة من المعنى المشار إليه أو مختلفة عنه في الفترات اللاحقة حسب التصور العام لنسق التّفكير لكلّ أمّة.

إننا نرى في تعريف **تايلور** طابع الفردية في الاكتساب لتلك العناصر المتضمنة في التعريف، بينما نرى أن التصور الألماني لتاريخ البشرية أكسب الكلمة مضمونا جماعيا ولم تقتصر على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الفرد فقط، بل تعدّاه إلى المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة، كما أن الكلمة اتسمت عند المفكرين الإنجليز بطابع النفعية " فقد عرفها **ميتيو أرنولد** بأنها عملية ترقي نحو الكمال الإنساني تتم بتمثل أفضل الأفكار التي عرفها العالم وبتطوير الخصائص الإنسانية المميزة . ويرى أن الculture الدينية – لكونها تعلم الاستقامة والانضباط – تساهم إلى جانب ال culture العلمانية –التي تبلور الحقائق الموضوعية – في ترقية الحياة الإنسانية، ويعرّفها الفيلسوف الأمريكي جون ديوي بأنها حصيلة التفاعل بين الإنسان وبيئته " [27].

يبقى أن السّرد يطول لو تتبّعنا التعريفات التي أشار الدكتور **نصر محمد عارف** إلى تجاوزها 162 تعريفا إلى النصف الثاني من القرن العشرين، ولأن المفهوم قد التبس على كثير من الباحثين مع المفهوم الأصيل للبحث ونعني به الحضارة حيث يرونهما بمعنى واحد، فقد أدركنا بالرجوع إلى الاشتقاق والجذر اللاتيني الاختلاف بينهما.

إن الثّقافة تدلّ كما رأينا على المعارف العقلية لدى الفرد والتي يسهم بها في ترقية مجتمعه من خلال سلوكه العملي الذي يعمل على تنقيته وترقيته، إنّها طريقة في الحياة لدى شعب بعينه لا تختصّ بغيره، إرث تليد يتوارثه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها ليخالط شعوره وطريقته في التفكير مكونة لديه عقيدة ومعتقدا يصعب عليه التخلص منه

[27]– محمد عارف نصر ، الحضارة – الثقافة – المدنية ، مرجع سابق، ص 21.

وإن تظاهر بالحدة والنفور من بعض أشكاله التي يقع فيها عندما لا يفكر بما يمليه عليه وعيه بالحاضر ويغيب عنه الالتزام بالتحصيل العلمي.

ومن الأمثلة على ذلك الاستبشار بالمولود الذّكر دون الأنثى في بعض المجتمعات عكس أخرى ، ليصعب الحديث عن المساواة بين الجنسين، وهذا الشعور بالامتعاض– المعبّر عنه في القرآن مثلا إخبارا عن مجتمع الجاهلية بالغيظ وعن الحالة الشعورية التي تصاحب الأب الذي زفّ إليه خبر المولودة " ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب"[28] – لا يزال حيا بين جوانح الناس وجوارحهم، هذه ثقافة قد نجدها كما هو مشاهد وملحوظ عند غالبية أفراد شعب من الشعوب لا تختص بفئة دون أخرى وإن تفاوتت مراتب تحصيلهم العلمي التي لا تغني شيئا في دفع مثل هذا الشعور الجاهلي.

وهكذا قس في جميع الأمور التي يباشرها هؤلاء الأفراد ويتعاملون معها يوميا فهي ترتدّ إلى المخزون في الذاكرة من التصرفات إزاء هذه القضايا وليس إلى الطريقة الأقوم في التعامل معها، إذن الثقافة تنصب بصفة خاصة على الجوانب الروحية المركوزة في اللاشعور الفردي والمجتمعي، بينما المعارف العلمية الطبيعية؛ المادية، ليست من مدلولاتها التي تختص بها، لأن العلوم ملك للبشريّة كلّها وهي من متعلقات الحضارة التي هي مطبوعة بطابع اجتماعي ومادّي، وإن كانت الثّقافة جانبا من جوانب الحضارة باعتبار الأخيرة مرحلة راقية من مراحل التطور الإنساني فهي ثقافة راقية خرجت من التنظير إلى واقع الناس وأصبحت عرفا جعل من المجتمع شخصية فذة ونموذجا قيميا وكونيا أحق بالاتباع، ومن هذا المنظور فقط أي دلالة التضمن المنطقية تتماثل الثقافة والحضارة ، فلكل حضارة ثقافة والعكس غير صحيح.

[28]– سورة النحل ، الأية 58 .

أشار علم الأنثروبولوجيا الذي جعل من المفهومين جوهرا لمقولاته ونظرياته إلى أن "لفظ الثقافة يدل على مظاهر الحياة في كل مجتمع متقدما كان أم متخلفا، على حين أن لفظ الحضارة يدل على مظاهر هذه الحياة في المجتمعات المتقدمة وحدها. وخير وسيلة لتحديد معنى كل من هذين اللفظين إطلاق لفظ الثقافة غلى مظاهر التقدم العقلي وحده وهي ذات طابع فردي ، وإطلاق لفظ الحضارة على مظاهر التّقدم العقلي والمادّي معا وهي ذات طابع اجتماعي " .[29]

لعل من أوضح العبارات التي يسهل بها التمييز بين الفكرتين ما أورده **بيجوفيتش** حين يقول :" الثقافة معناها الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فتعني فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة، الثقافة هي الخلق المستمر للذات ، أما الحضارة فهي التغيير المستمر للعالم ...حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع...الحضارة تعلّم أما الثقافة فتتوّر، تحتاج الأولى إلى تعلّم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمّل "[30].

وقد يسهل انتقال الثقافات بين المجتمعات وانتشارها وإن بعدت المسافات باعتبار الفردية لونا من ألوان الثقافة، فيحيا الفرد بأيديولوجيا تختلف عن عادات المجتمع الذي يحيا فيه، إلا أنه لا يحيا دائما في إطار الحضارة التي تنتمي إليها نفس تلك الثقافة التي يتدثّر بلبوسها، لأنّ الحضارة تتعدّى إلى ألوان وأشكال أخرى ؛ باعتبارها ذات طابع اجتماعي بالدرجة الأولى وكلّ ما يميّز هذا المجتمع سياسيا واقتصاديا ومعرفيا ..الخ

[29]– صليبا جميل ، المعجم الفلسفي ،ج1 ، مرجع سابق ، ص 477.

[30]– بيجوفيتش علي عزت ،الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة محمد يوسف عدس ، مؤسسة العلم الحديث ، بيروت، ط1، 1994، ص 94 وما بعدها .

المدنية:

لغة: مشتقة من الجذر اللاتيني CIVILIS ومعناه المدني المنسوب إلى المدينة كما نجد في المعجم الوسيط تحت مادة مدن " تمدن عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة ...المدنية الحضارة واتساع العمران "[31]، ومن خلال هذا التعريف البسيط نجد أنها منسوبة إلى المدينة حيث يزدهر العمران .

اصطلاحا :

إن الاشتراك في الجذر اللغوي لكلمتي الحضارة والمدنية CIVILIS دفع كثيرا من الباحثين إلى توحيد دلالة المفهومين اللذين يضم كل منهما بين شقّيه الجانب المعنوي والمادي، بينما ارتأى فريق آخر ضرورة تحديد العلاقة بينهما لارتباطهما بعضهما ببعض و رأوا أن المدنية تمثل الجزء المادي من أي حضارة كالعمران وترتبط أيما ارتباط بالاقتصاد والتصنيع، إنها صورة للتراكم المعرفي في شقه المادي؛ المنجزات والابتكارات التي يسعى الإنسان بتوفيرها إلى جعل حياته أكثر سهولة ويسرا، غير أن هذا المسعى المحمود قد ينقلب إلى جحيم نفسي حين يستغرق تفكير المرء فيفقد شعوره بالزمان ويقتصر على تلبية الاحتياجات المادّية التي تبدو في ظاهرها ملحّة ولا يرافقها بالمقابل اهتمام بالجانب الرّوحي والوجداني، فيغدو منهوك القوى قد أتعبته هموم الحياة ويصل الأمر بكثير من الأفراد إلى فقد الرّغبة في الوجود.

وقد ألمح الدّكتور **عبد الرحمن بدوي** إلى ذلك في معرض حديثه عن **شبنغلر** " فإذا ما وصلت الحضارة إلى قمّة تطوّرها، وحقّقت كلّ ما فيها من إمكانيات واستنفذت قواها الخالقة بدأت شيخوختها وانتقلت من حالة الحضارة بمعناها الدّقيق إلى حالة المدنيّة فينطفئ النور الذي كان متوهّجا بها من قبل شيئا فشيئا ...وتشعر الروح حينئذ بالحنين

[31]– أنيس إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، مرجع سابق ، ص 859.

في شيء من الحزن إلى طفولتها الأولى "[32]، ونستخلص مما سبق أنه مع افتراض الاختلاف السابق بين المفهومين فإن ذلك لا يجعل من المدنية مصطلحا مستقلا بذاته فاشتمالها على الجانب المادي يجعلها جزءا لا يتجزأ من الحضارة.

الدين(religion):

مشتقة من الأصل اللاتيني " religio وتعني الإحساس المصحوب بخوف وتأنيب ضمير بواجب ما اتجاه الآلهة ".[33]

أمّا وهبة مراد فيرجع الاشتقاق إلى" الفعل religare بمعنى يربط، وبالتّالي فالدّين هو ما يربط جماعة ما"[34]. وهي رابطة من أقوى الروابط الاجتماعية، بل نجد فطرية التدين في الإنسان منذ بدء الخليقة.

أورد صاحب المعجم النقدي لعلم الاجتماع تلك المساهمات النظرية ل**دوركايم** و**فيبر** وغيرهما عن الواقع الديني، فهم وإن اختلفت تصوراتهم عن الواقع الديني " ولكنهم يتفقون حول نقطة واحدة على الأقلّ إنّهم يعتبرون أن الدّين هو ظاهرة مميّزة لكلّ المجتمعات الإنسانية السّابقة والحاضرة واللّاحقة "[35]

وفي الأصل العربي مشتقّة من دان بمعنى" خضع وذلّ وأطاع...الدّين اسم لجميع ما يعبد به الله "[36]. فالصّلاة دين, والنهي عن المنكر دين، وكل عمل فيه نفع للمجتمع من الدّين.

---

[32]– بدوي عبد الرحمن ،موسوعة الفلسفة ،ج1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1، 1984، ص11.

[33]–لالاند أندري، **الموسوعة الفلسفية**، تعريب أحمد خليل، ج3، مرجع سابق، ص 1204 .

[34]– مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص315 .

[35]- بوريلو بودون، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص 316 .

[36]– أنيس إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، مرجع سابق، ص307 .

أمّا الدّين عند اليونانيين فوثاق يربط الحياة الاجتماعية وهو من صور التّعبير عن علاقة الإنسان بالآلهة، ذلك الاعتقاد في وجود مستقبل بعد الحياة الدّنيا التي شغفت قلب اليوناني حبّا بالعيش على ثرى أرضها، لا يبغي بديلا عنها بالفردوس الأخروي الذي كان في حقيقة الأمر حلم في خلد القلائل " لكن الفكرة المسيطرة عليهم عن الحياة بعد الموت تغشاها الكآبة. ومع أنه كانت لديهم بعض فكرات حول تنعّم أرواح الاتصال بآفاق سعيدة، فإنّ الملاحم تمثّل شبح أخيل نفسه يقول:إنّي لأوثر العيش على ثرى الأرض أجيرا لآخر معدم لا يكاد يملك قوت يومه، من أن تكون لي السّيادة بين الموتى الذين لم يعد لهم وجود" [37]

اصطلاحا: " مجموعة معتقدات وعبادات مقدمة تؤمن بها جماعة معينة، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان وللعقل مجال فيه، يقول الجرجاني: الدّين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرّسول صلّى الله عليه وسلم الدّين والملّة متّحدان بالذّات ومختلفان بالاعتبار، فالشّريعة من حيث تطاع تسمّى دينا ، ومن حيث تجمع النّاس تسمّى ملة."[38]

وتعريف الجرجاني متعلق بالشريعة المحمدية، المنزهة عن النقصان بنص القرآن *اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا[39]*، وهو دعوة إلى إعمال العقول فيما ورد عن الرسول ، وفتح لباب الاجتهاد إلى يوم المعاد، ويطلق الدّين على الأصول خاصة، وهنا نفرّق بين الدّين الذي ينسب إلى الله قال تعالى *إن الدّين عند الله الإسلام(آل عمران 19)، أما الملّة فتنسب إلى الرّسول قال تعالى *ملّة أبيكم

[37]- ويدجري آلبان.ج، التاريخ وكيف يفسرونه، تر عبد العزيز توفيق جاويد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ، ط2،1996، ص99 .

[38]– مدكور إبراهيم ، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص86 .

[39]– المائدة، الآية 03.

إبراهيم(الحج 78) والمذهب ينسب إلى المجتهد يقال مذهب أبي حنيفة ، وعلى مذهب مالك وهكذا..

هذا في الإطار الاجتماعي والفكري للمسلمين، أمّا في إطار التّفكير الفلسفي الغربي ، فقد كان عصر النّهضة شديد التّأثير على الفكر اللّاهوتي الذي لم يعد مستساغا لذوي العقول، فقامت على إثر ذلك حركات متعدّدة؛ هذه علمانيّة تنادي بفصل الدين عن الدولة، وتلك حركة إصلاحية دينية ممثلة في البروتستانية، كما ظهرت ما تسمى بالأديان الطّبيعية.

" والفرق بين الدّين الطبيعي والدّين الوضعي(Religion Positive) :أن الأوّل قائم على وحي الضمير والعقل، على حين أن الثّاني قائم على وحي إلهي يقبله الإنسان من الأنبياء والرّسل" [40]

وفي عصر الأنوار وضع الدّين تحت التّمحيص والاختبار العلمي والفلسفي فكانت " فلسفة الدّين مختلفة عن اللّاهوت من حيث إقرار أسبقيّة العقل على الإيمان، وإخضاع الإيمان للتّحليل المنطقي، ومن هذه الزّاوية فإن فلسفة الدّين ليست إلا الفحص الحرّ للحقائق الدّينية ...و **كانط** هو منشئ فلسفة الدّين كفرع من فروع الفلسفة في كتابه الدّين في حدود العقل وحده ".[41]

وأكثر الأديان وثنيّة، أما السّماوية فثلاثة أديان؛ الإسلام والنّصرانية واليهوديّة .

أما في مجال علم النّفس فالدّين هو خبرات انفعالية ومشاعر تنتج عنها ممارسات شعائريّة وعقدية، كما يبحث علم النّفس الدّيني وسائل الإيحاء والإيحاء الذّاتي والانجذاب الدّيني " ويولي اللّاهوتيون المعاصرون اهتماما كبيرا للجوانب السّيكولوجية للدّين، في

---

[40]- صليبا جميل ، المعجم الفلسفي ،ج1 ، مرجع سابق، ص573 .

[41]– مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص316 .

محاولة لتحويل الدّين إلى عامل داخلي من عوامل الحياة الدّاخلية؛ أي إلى عامل نفسي ، وينضوي ممثّلوا علم النّفس الدّيني التّجريبي تحت لواء الوضعيّة، والدّراسة الموضوعية للدّين "[42] ،أما **توينبي** فيرى أن التوافق في الحياة الاجتماعية منذ البدايات الأولى للنشاط الإنساني مشروط بالدين، والذي فسّره بالإلهام الرّوحي والفطري الذي نجده عند الإنسان البدائي متجليا في التضامن بين الفرد و آلهته، أما بين أعضاء القبيلة فالدّين يعتبر أقوى الروابط الاجتماعية التي تؤلف فيما بينهم، بل لم يكن للمجتمع فرصة للتقدم حضاريا بدون الدّين أو بعيدا عنه " وواضح أنه في ظل عقيدة المجاهدة على الأرض، تتحقق الغايات الاجتماعية الطيبة للمجتمعات الدنيوية بتوفيق أعظم كثيرا مما تتحقّق في مجتمع دنيوي يرمي إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة، ولا يتطلّع إلى ما هو أسمى من ذلك، وبتعبير آخر إن الارتقاء الرّوحاني للنّفوس البشرية في هذه الحياة يحمل معه حقّا تقدّما اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيّأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى"[43] .

البروليتاريا: plotariat

لغة: مشتقة من الأصل اللاتيني بروتاليوس "plotarius هو مواطن من الدرجة السادسة وهي أدنى درجة اجتماعية "[44] في روما القديمة .

اصطلاحا: طبقة العمال الكادحين من أجل البقاء والذين أصبحوا مجرّد ملحق بالآلة بعد توسّع استعمالها، و يشتغل العامل على كلفة ما يلزمه للعيش في ظروف لا تخلو من صنوف الرّتابة والامتهان، وهم يعانون من الفقر واشتداد وطأة العمل نتيجة الاستغلال المضاعف وتدني الأجور.

[42]- يودين روزنتال ، الموسوعة الفلسفية، تر سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،دط، دت، ص314 .
[43]- توينبي أرنولد، مختصر دواسة للتاريخ، تر فؤاد شبل محمد، ج3، المركز القومي للترجمة، القاهرة،دط، 2011، ص 149 .
[44]– وهبة مراد ، المعجم الفلسفي، ص141.

في بيان الحزب الشيوعي ل**ماركس** و **إنجلز** تعرف البروليتاريا كالآتي:" طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون إلّا إذا وجدوا عملا، ولا يجدونه إلّا إذا كان عملا ينمّي رأس المال، وهؤلاء العمال المرغمون على بيع أنفسهم يوميا هم سلعة لا تختلف في شيء عن أي سلعة أخرى تباع وتشترى، ومعرّضون بالتالي كالسلع الأخرى لجميع مصائب المزاحمة ولجميع تقلّبات السّوق"[45] فالمصطلح عند **ماركس** ينطوي على الوجه القبيح للملكية الخاصّة ويدخل كمؤشر لفهم المجتمع الرأسمالي، فالعامل مضطر للعمل لحساب مستغله البرجوازي الذي يستأثر بخيرات الإنتاج، والبرجوازية التي قامت على أنقاض النظام الإقطاعي بنظر ماركس لم تلغ نظام الطبقية، بل أحلّت محلّه طبقات أخرى وخلقت أشكالا جديدة من الاضطهاد فدعا إلى الاشتراكية التي تتميّز من الناحية الاقتصادية بمبدأ الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج مع إنهاء النظام الطبقي والاستغلال.

أمّا البروليتاريا عند **توينبي** فأشدّ ما يظهر دورها في عصر الانحلال، و طغيان الأقلّية الحاكمة، واستبدادها بعد فقدانها مقوّمات الإبداع ومبرّرات استمراريّتها في الحكم، وهي نوعان:

بروليتاريا داخلية: تتمثل في الجماهير التي سحبت ولاءها "وتتحين الفرصة للثورة.

بروليتاريا خارجية: انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتتحين الفرص للغزو."[46]

التحدي والاستجابة: Challenge and Response

يعتبر أبرز مفهوم تدور حوله فلسفة الحضارة عند **توينبي** وأصل التسمية **الين** و**اليانغ** **Ying and Yong** وهما مفهومان أساسيان من مفاهيم الفلسفة الصينية، يعبّران عن الثّنائية في الكون ، وفي الطّبيعة عن الذّكورة والأنوثة، " ومع تطوّر الفلسفة الصينية

[45]– ماركس–إنجلز، البيان الشيوعي، تر العفيف الأخضر، منشورات الجمل، بيروت–بغداد، ط1، 2014، ص78.
[46]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص272 .

أصبح الين واليانغ يرمزان بصورة متزايدة إلى تفاعل الأضداد القصوى المتقاطعة ؛ النور والظلام، النهار والليل،..ويشكل مفهوم التفاعل بين القوى القطبية، منظورا إليه على أنه محور القوى الكونية للحركة والسبب الأول للتغير المستمر في الطبيعة؛ المضمون الرئيسي لمعظم المذاهب الجدلية للفلاسفة الصينيين"[47] .

إذن التغير هو السمة البارزة في **الين** و**اليانغ** ، تغيّر من النّقيض إلى النّقيض، من الرّكود إلى الحركة مثلا ، ومن الخمول إلى النشاط ، المهم أن أصل المفهوم في موطنه يحيل إلى التّغير، فاستلهم **توينبي** هذا المفهوم ليطبقه على وحدة الدراسة التاريخية عنده ألا وهي الحضارة، حيث لم يجعل نشوء الحضارة وبداياتها مشروطا بلون أو بيئة أو جنس معين، كما لا نستطيع أن نقف عند نقطة نجعلها مؤشرا ومعلما فاصلا بين المجتمعات البدائية والحضارات، لكن " إذا بدأنا بتحول المجتمعات البدائية إلى الحضارات، وجدنا أنه تحول من الركود إلى الحركة الدافعة، وسنجد أن هذا القانون نفسه يسري بالنسبة لانبعاث الحضارات..."[48] .

لكننا مع استحالة معرفتنا لتلك النقطة التاريخية التي تلج فيها تلك المجتمعات عالم الحضارات كونها تبدو في حالة ثابتة لا تتغير، فإن قانون **الين** و**اليانغ** ؛الصيرورة والتغير ينبّهنا إلى خطأ تلك الملاحظة المباشرة، لأنها تقوم على ملاحظة المراحل الأخيرة من تواريخ المجتمعات البدائية وتخدعنا عن " أنّ هناك رتلا من الاستدلالات ينبئنا أنه لا بدّ أن تكون ثمّة مراحل أسبق في تواريخ المجتمعات البدائية، كانت هذه المجتمعات تتحرّك خلالها حركة دافعة تفوق كل حركة قام بها أيّ مجتمع متمدين حتى الآن "[49].

---

[47]- يودين روزنتال، الموسوعة الفلسفية ، مرجع سابق، ص 591 .

[48]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر فؤاد محمد شبل،ج1، مصدر سابق، ص85 .

[49]– المصدر نفسه، ص 82 .

هذا الترديد المتعاقب كما يسميه **توينبي** من الركود والحركة الدافعة، والتوقف والمسير هو شيء جوهري في طبيعة الكون، ويلفت انتباهنا في الوقت نفسه إلى معنى الين وهو الركود واليانغ وهو الحركة الدافعة، وإلى التعابير عنهما في الكتابة الصينية " يبدو أن نواة الحرف الصيني الذي يعبر عن **الين** تمثّل سحبا قاتمة ملتفّة تحجب الشّمس ، في حين أن نواة الحرف الذي يعبر عن **اليانج** تمثّل قرص الشّمس خاليا من السّحب وناشرا أشعته، وفي العبارة الصينية يذكر **الين** قبل **اليانج** على الدّوام "[50]، وكذلك عجلة التّاريخ لا نستطيع أن نتصوّرها متوقّفة عن الحركة، بل هي في جميع الأحوال تتابع صعودها، فيما الحضارات وعلى إيقاع **الين** و**اليانغ** أو التحدي والاستجابة ترتقي وتزدهر حينما يواجهها تحدّ يستحثّ هممها فتستجيب له استجابة ناجحة، وإما تنهار وتندثر حين يعجزها التّحدّي عن المواجهة، فتستريح في هدوء زائف تراقب غروب شمسها بعد توقّف سيرها.

[50]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر فؤاد محمد شبل،ج1، مصدر سابق، ص86 .

المبحث الثاني:

كرونولوجيا الحضارة في الفكر الفلسفي

إنّ تحديد مصطلح حضارة وربطه بمظاهر التقدم العلمي والفني والأدبي، والآثار الفكرية والعمرانية يجعل بحثنا ينصبّ على إبراز تلك المظاهر في الحضارات القديمة والحديثة و المعاصرة، وعلى طرائق التّفكير عند المؤرّخين والمفكّرين في التاريخ.

فجر الحضارة في الشرق القديم:

لا توجد إلى اليوم أدلة تشير إلى قيام حضارة سبقت في وجودها الحضارات الأولى لبلاد ما بين النهرين (Mesopotamian Civilization) و دلتا النيل، وهي" الحضارة الأولى في العالم، وكان لبلاد ما بين النهرين حدود جغرافية داخلية قليلة، مثل السلاسل الجبلية أو الأنهار التي يصعب عبورها، والتي ربما كانت بمثابة حدود دولة طبيعية، وهذا ما سهل نمو إمبراطوريات كبيرة نسبيا"[51] وحضارات كالحضارة المصرية، فقد شهدت هذه الجغرافيا قيام أوّل مجتمع متحضّر، وسنقتصر على نموذج الحضارة المصرية لإبراز تلك المظاهر الحضارية.

الحضارة المصرية:

تعتبر الحضارة المصرية من أعرق حضارات الشرق القديم وأهمها على الإطلاق وكان لظهور الكتابة مفعول سحري على الناس لأنّه أهمّ من اللّغة التي ليست اختراعا وإنما هي خاصية بشرية، وهي وسيلة لنقل الكلام الذي يترجم إلى رموز منقوشة أو مكتوبة على الحجر أو الورق أو غيرهما، توصّلت مصر إلى الكتابة حوالي 3500 ق م وهي الكتابة الهيروغليفية " والكتابات الأثرية هي وثائق العصور القديمة فمعظم

[51] - Aldrete Gregory S , History of the Ancient World, THE GREAT COURSES, Virginia,2015, p10.

الحضارات السالفة سجلت على آثارها ما تريد قوله بكتابات شتى فحين حلّ **شمبليون** (Jean François Champollion) رموز الهيروغليفية أضاف إلى التاريخ ثلاثة آلاف سنة"[52]، وهو للوهلة الأولى بالنظر البسيط تاريخ موغل في القدم بالنسبة لتاريخ الإنسان المتحضر لعل هذا ما جعل المصريين القدامى ينظرون إلى الشعوب الأخرى نظرة أحط شأنا منهم كما نلحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحالة اليونان عندما خاطبوهم قائلين "أنتم اليونان لستم سوى أولاد صغار" [53]

أما المجال الدّيني و الفكري فقد بلغ المصريّون فيه شأوا عظيما، خاصّة في عصر الدّولة الحديثة (1580–1085ق م)أي خلال عهد الأسرة الثّامنة إلى الأسرة العشرين وسّع كل من **أحمس** مؤسّس الأسرة الثامنة عشر و **أمنحوتب الأوّل** الإمبراطورية جنوبا في بلاد النوبة إلى وادي حلفا، كما نبذت الآلهة المتعدّدة على عهد أمنحوتب الرابع الذي دعا إلى عبادة الإله الواحد (آتون)، كانت دعوة أخناتون في تعاليمها أقرب إلى تعاليم الديانات السماوية تنطق بالحكمة وتحبّب إلى الناس مكارم الأخلاق.

"ويقول **هيرودوتس** إن المصريّين أشدّ البشر تديّنا، ولا يعرف شعب بلغ في التّقوى درجتهم فيها فإنّ صورهم بجملتها تمثّل ناسا يصلّون أمام الرّب وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسّك "[54]، ولتتأمل ما كتب على قبر أحد الأشراف بمصر قبل الميلاد

[52]– أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق، ط1، سنة1994، ص32

[53]–ايمار اندريه، تاريخ الحضارات العام، تر فريد م – غامر ، فؤاد جابو ريحان، ج1، منشورات عويدات ، بيروت – باريس، ط2، 1986، ص42.

[54]–سنيوبوس شارل، تاريخ حضارات العالم، تر محمد كردعلي، الدار العالمية للكتب والنشر،الجيزة، ط1، 2012، ص16.

ب2700سنة " لقد كنت شخصا يحبّه أبوه وتمدحه أمّه، شخصا يحبّه كلّ إخوته ، كنت أعطي الخبز للجائع والملابس للعاري وأعبر بمن لا قارب له "[55] .

وإن شئنا تمثّلها في الأخلاق عند أمير من أمراء الدولة الوسطى فسنقرأ على شاهد قبره افتخاره بما أنجزه للمصلحة العامة" لم أسئ إلى فتاة من بنات الفقراء، لم أظلم أرملة، لم يحدث أنّني طردت فلاحا أو أخرجت راعيا من عمله، لم يكن هناك بائس من رعاياي، ولم يجع أحد في عهدي ..أعطيت الأرملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل و لم أميّز غنيّا على فقير في أيّ شيء منحته "[56].

أمّا الحياة الاقتصادية في مصر فقد اعتمدت على التّجارة والصّناعة، ومن نافلة القول أن اقتصاد مصر قام على الزّراعة التي ازدهرت بسبب خصوبة الأرض والماء والمناخ الملائم، "ولقد دوّن الرّحالة الإغريق إعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر ولقد بدت لهم تربة بلادهم بالمقارنة وكأنها أمّ جافية"[57].

لكن لم تكن موارد الأرض لتكون كافية لولا رغبة الإنسان وجهوده في مواجهة التّحدي الذي كان ينتظره، لقد دخل المصريون الأوائل مستنقعات النّيل فجفّفوها وأعدّوها للزّراعة، إضافة إلى تشييد السّدود وحفر الأقنية ونقل المياه إليها من الآبار والينابيع لسقي البساتين، وهو عمل فيه من العنت والمشقّة الكثير نتيجة فيضان النّيل السّنوي الذي يغمر البلاد ويستدعي من الفلاحين جهودا جبّارة بعد انخفاض النّهر من أجل أعمال الحراثة و البذر.

أما المجتمع فقد شهد تراتبية طبقية: طبقة النبلاء والأشراف والكهنة ثم الطبقة المتوسطة أو الأحرار وأخيرا طبقة الأرقّاء .

---

[55] فضل الله مهدي ، بدايات التفلسف الإنساني ، دار الطليعة ، بيروت ، ط2، 1994،ص88.

[56]– المرجع نفسه، ص100 .

[57]– ايمار اندريه، تاريخ الحضارات العام، ج1، مرجع سابق، ص67.

أما الآثار العمرانية و الفنية فقد شيّد فراعنة مصر أعظم عمارة في العهد القديم أهرامات الجيزة والمعابد الدّينية كمعبد الكرنك، إضافة إلى فن المقابر ورسوم الجداريات والتماثيل لاعتقادهم بخلود الروح و الحياة بعد الموت " ويزداد شأن الآثار في التاريخ كلما أوغلنا رجوعا في الزمن لتصبح في بعض الأحوال وفي العصور القديمة خاصة مصادر التاريخ الوحيدة، فالشعوب كلّها بدافع من العقائد الدينية في الغالب أو من رغبات الملوك أو من الحاجات الحياتية الأخرى تركت آثارها على الأرض التي عرفتها، وعلى هذه الآثار نبني معارفنا عن الحضارات القديمة"[58]، بل تعتبر المصدر الوحيد الموثوق للدارسين والمهتمين بميدان الحضارات.

الحضارة في الفكر الغربي

الحضارة اليونانية: Greek Civilization

بداية تجدر الملاحظة إلى أنّ اليونانيين لم يكن لديهم أيّ فكرة عن المفاهيم والنّظريات التي يفسّر التّاريخ على ضوئها اليوم، لكن كانت هناك فكرة عن الكون الذي أبدوا ملاحظات بشأنه تقترب من مفهوم الدّورة أو التّعاقب الحضاري الذي يكاد أن يجمع عليه فلاسفة التّاريخ و الحضارة مع اختلاف طفيف في الرّؤى، ففكرة الحركة الكونيّة تفيد بأنّ الزّمان والمكان والأشياء في تغيّر دائم ومستمرّ، وللقدامى الشّرقيين من صينيين وفرس ومصريين ويونانيين في هذه نحل شتّى.

إنّ ممّا ينمّ عن عبقرية الإغريق توسيع الوعي بالتّغير إلى فلسفة عن طبيعة الزّمن والتغيّر؛ ما نحن عليه وما كان إلى فناء، الكلّ في المستقبل القريب أم البعيد أطياف وتراب، الزّمن يغيّر كل شيء، الأرض تفنى، ويتغيّر الصّديق على صديقه، والتّحالفات بين المدن تزول " مع الزّمن ..كل شيء يتغيّر : البهجة إلى مرارة، حتّى البغضاء تتحوّل

[58]– أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة ، مرجع سابق ،ص21.

إلى حبّ..النّظرة الإغريقية الرّومانية للزّمن كانت تنطوي أيضا على اقتناع راسخ بأنّ الأحداث لا تقع اعتباطا، وإنما طبقا لدورة متكررة من الميلاد والحياة والاضمحلال والموت ثم الميلاد مرة أخرى وكان المصطلح الإغريقي لذلك هو الثّورة"[59] ، ونلمح فكرة الاضحلال عند عديد الفلاسفة اليونان من هرقليطس وصولا إلى أرسطو، " فقد قال **هرقليط** بالحركة الدّائمة أي أنّ كل ما في الكون في حركة دائمة ، وأن سبب هذه الحركة هو صراع Polemosالكلّ وهو في رأيه أبو الأشياء ولولا الصّراع و الخلاف ما ظهر شيء، والصراع في رأيه يؤدي إلى تحوّل الأشياء بعضها إلى بعض، وأن حياة أي شيء تقتضي موت شيء آخر، ومن أقواله المأثورة : أليست النّار تحيي موت الهواء والهواء يحيي موت النّار..والوجود عنده موت يتلاشى ، والموت عنده وجود يزول "[60]،هكذا الخير والشر وجود أحدهما يعدم الآخر، حياة تشترط الموت وأشياء تولد بعضها من بعض، غير أنها أمور طبيعية تتسجم مع النّظام العام و صيرورة الكون.

وقد قال **أرسطو** بالكون والفساد، وضروري أن نشير إلى أن المقصود بالفساد هنا التّحوّل؛ نقول تفسد البراعم حين تنضج إذ تتحوّل إلى ثمرة.

إنّ الحضارة الغربيّة اليوم تدين للحضارة اليونانية بإرثها الذي تميّزت به والذي سجّل التّاريخ بشأنه أنه امتاز بالكثير من الإنجازات في مختلف الميادين؛ الفلسفيّة و الفنّية و العلمية والسّياسية وغيرها فما هي نظرة هؤلاء إلى التّاريخ ؟، وكيف فسّروا التّاريخ من وجهة نظرهم؟ يقول **توينبي:**" بدأ الفكر التّاريخي عند الإغريق أو الهيلنيّين وقت أن تشكّلت الأصول الأولى لشعر **هومر** في عقولهم "[61]، وبناء على هذا و للإجابة عن التّساؤل نرى أوّلا أنه من الضّروري التّنويه بالأساطير التي كانت في الحقيقة لدى

[59]-هيزمان آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ، تر طلعت الشايب، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، 2000 ، ص49.

[60]-حسين مؤنس، الحضارة، مرجع سابق، ص131.

[61]-توينبي أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، تر لمعي المطيعي، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، دط، 1966،ص9.

اليونانيين وعاء لتاريخهم الحقيقي وليست ضربا من الخرافات حيث تعدّى تأثيرها إلى فكرهم ومنجزاتهم العقلية أيّما تأثير، والسّبب راجع إلى المكانة التي حظي بها الإنسان داخل هذه الأساطير.

و**هوميروس** مؤرّخ حروب طروادة تفنّن في إبراز الشخصيات الأسطورية والصورة البطولية وقدرة الإنسان على التّدخل في كثير من الأحداث التي غيّرت مجرى تاريخ اليونان فيستهوي كل من يقرأ الإلياذة فضلا عن اليونانيّين الذين اعتبروها نماذج للسّلوك والكمال الإنساني، "هذه الصّورة التي قدّمها هوميروس للمجتمع البطولي والأفكار البطولية عن الإنسان بقيت لاصقة في عقول النّاس كشيء له دلالته الفلسفية والتاريخية ...وخرج المثال البطولي من الدّائرة الضّيقة التي وضعه فيها **هوميروس** مقصورا على أبطال أعماله ليشمل العديد من رجال الشعب اليوناني في مجالات متنوعة "[62]، وهاهنا نلاحظ أن ملحمتي الإلياذة والأوديسة ليستا كتابا في التّاريخ فحسب بالقدر الذي يشدّ انتباه اليوناني إلى وقائعه التي تدعوه إلى التّأمّل واستخلاص العبر منها و دعوة لربط الماضي بالحاضر بتمجيد الأسلاف واتّخاذهم قدوة و مثلا يحتذى به.

وكما أن قيام حضارة ما مشروط بطائفة من العوامل فلها كذاك عناصر تتألف منها ومظاهر متعددة تظهر بها كالمظهر الإنساني والوجداني والمعاني الخلقية السامية التي شاركها هوميروس مع الرجل العادي.

وتبدو تلك المظاهر الإنسانية في كتابات هوميروس في إظهار العواطف ومشاركتها "فهو يبكي فرحا مع أطفال شفي أبوهم من مرض عضال ويتهلّل بشرا عندما يعانق الوالد ولده بعد غياب طويل، ويشارك الفلّاح سروره عندما يرى أغصان الزيتون مثمرة ..ويتألّم لجوع العامل الذي يكدّ طول النهار، ويرثي لحال المرأة التي تكافح لكسب قوتها، ومع

[62]– إبراهيم عبد العال، الإنسان لدى فلاسفة اليونان، جامعة طنطا،القاهرة دط، 1999، ص33.

الشّيخ الذي مات أبناؤه في ساحة المعركة ..كما استنكر العبودية واعتبرها أبشع مصيبة تحلّ بالإنسان لأنّها تفقده نصف رجولته"[63] .

أما **ثيوكيديدس Thucydides** ، مؤرخ طور الانهيار للحضارة اليونانية فقد سار على نهج سلفه **هيرودوت** وتطور على يديه كثيرا الوعي التاريخي اليوناني، فهو يوضّح الأسباب التي دعته إلى تسجيل وقائع الحرب البلوبونيزية التي دارت رحاها بين مدينتي اسبارطة و أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد لتشمل فيما بعد كل المدن اليونانية تقريبا، " أما أسلوبه في التّسجيل فكان أكثر علمية وموضوعية من سلفه هيرودوت فقد كتب تاريخه بصورة أشبه ما تكون بالكتابات الأبقراطية الطّبية إذ خلى كتابه من أيّ تمجيد للآلهة أو للمعجزات أو للأمنيات أو ما شابه ذلك، وقد استبعد نفسه تماما من رواية الأحداث كما عنى بتحقيق الأحداث التي رواها تحقيقا علميا "[64]

وقد تأثر توينبي حسب بعض الباحثين بثيوكيكيدس Thucdides في مقارنته بين تحطيم اليونانيين القدماء أنفسهم بالارتباط المبالغ فيه بنظام المدينة City-state، وصدمة الحرب العالمية الأولى والأزمة التي حلت بالغرب الحديث من " تكريس الغرب المعاصر للدولة القومية Nationale state الأمر لذي يمكن أن ينتج عنه أزمة مماثلة"[65].

العصر الوسيط:

هي الفترة الممتدة من (ق5-ق15)، من سقوط روما سنة 467م إلى سقوط القسطنطينية سنة 1453م وبداية الكشوفات الجغرافية المبكر، وشهدت هذه الفترة انتصار المسيحية وعلم اللّاهوت الذي سرت مبادئه إلى حياة الناس وأفكارهم و سائر مناحي نشاطهم السياسي، وإنتاجهم الثقافي في الميادين الفلسفية والاجتماعية وتفسيرهم للكون

[63]- النشار مصطفى، فلسفة التاريخ، نشأتها وتطورها، نيوبوك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2017، ص76.

[64]- النشار مصطفى ، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص43.

[65]- شلبي السيد أمين، نظرات في أرنولد توينبي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2000، ص41.

وتاريخ الإنسان فيما اصطلح عليه بنظرية العناية الإلهية و" تصفّحوا تاريخ مابين القرن الخامس والقرن الثامن عشر تجدوا أن علم اللّاهوت هو الذي يسيطر على الروح البشرية ويوجّهها فتطبع جميع الآراء بطابع علم االلّاهوت وينظر إلى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية من الوجهة اللاهوتية دائما...والرّوح اللاهوتية من بعض الوجوه هي الدّم الذي جرى في عروق العالم الأوربي حتى **بيكون و ديكارت**" [66] ، وتبرز الوثائق التّاريخية لذلك الزمن ما كان في المجتمع من التصور بما يمكن أن تؤثّر فيه تلك القدرة الربانية التي كانت تسيطر على مجرى التاريخ فيخشاها الملوك ويتقرّبون إليها، و تهرع العامّة تستجدي رضاها.

إن عجلة الحظّ هو الشّكل الذي أخذته الدّورة الحضارية في العصور الوسطى، والبشر ممسوكون بخيط إلى تلك العجلة التي ترفع أقواما حين دورانها لتضع آخرين، فأين ملاذ الإنسان من هذا الحظ أو ما تحدّد بالخطيئة مسيحيا؟ إنها الفضيلة " وكلمة فضيلة Virtus في الأصل تعني الشجاعة في القتال، ولكنها أصبحت تتضمن أيضا نزاهة الإنسان في شتى مجالات الحياة، كانت الفضيلة هي القوة الداخلية اللازمة للتغلب على تروس وأسنان عجلة الحظ..ومن أجل تشكيل مصير الإنسان"[67] وفي هذا العصر – الوسيط–اصطبغت الفضيلة بالصبغة المسيحية.

عصر النهضة

في ميدان التأريخ للحضارات والشعوب والحركات العلمية يمثل القرن الرّابع عشر فترة الانحطاط في العالم الإسلامي لكنه في الوقت عينه هو القرن الذي بدأت فيه بشائر النّهضة تلوح في أفق أوربا، ففي منتصف هذا القرن بدأت حركة ثقافية في إيطاليا " كان كتّاب النهضة يسمّون حركتهم باسم الإحياءRestituto، وترجمها عنهم **جيبون**

[66]–لوبون غوستاف، فلسفة التاريخ، تر عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، دط،1954، ص56.

[67]– هيزمان آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ، مرجع سابق، ص50 .

إلىRestoration، فالحركة في الواقع كانت إحياء للتّراث اليوناني القديم، وتمثّل ذلك في إحياء الفلسفة الطبيعيّة والعلم الطّبيعي..كما أن ثقة عصر النّهضة في إمكانيّات العقل الإنساني إنما ارتكزت على الفنّ والأدب أكثر من العلوم ولم يقلّل ذلك من شأنها" [68] .

استخدم ميشيليه Michelet مثل كثير من الكتّاب الفرنسيّين مصطلح النّهضة " وعبّر عنها بعبارته الخالدة :ثمّة شيئان يميّزان عصر النّهضة عمّا سبقه من عصور:اكتشاف العالم، واكتشاف الإنسان"[69]، بل غدا هذا الاكتشاف يتجلى في مظاهر هي ما اصطلح عليه لاحقا باصطلاح الحضارة.

المظاهر الحضارية في عصر النهضة:

المظهر الاجتماعي:

بحسب الدكتور أحمد محمود صبحي فقد سادت في عصر النهضة نماذج اجتماعية أربع ترتدّ تاريخيا إلى التراث اليوناني والروماني والتي جاءت كنتيجة لاكتشاف المعارف الكلاسيكية و التي ساعد اختراع الطباعة واكتشاف المخطوطات القديمة Manuscripts على إحياء التراث اليوناني والروماني وتمثلت تلك النماذج في:

نموذج النبيل الذي كان يمثله النبلاء من الطبقة الحاكمة يمتاز بسموّ أخلاقه واتساع آفاقه يمجد البطولة ويحب الشهرة .

إضافة إلى النّموذج الدّيني الذي جاء كردّ فعل على فكرة الخلاص الأخلاقي التي تدعو إلى التّخلي عن العالم وخيراته، فدعوا إلى الاهتمام بالعالم والتّمتع بهبات الحياة إضافة إلى نموذجي الحكيم القديم والعودة إلى الطّبيعة الأولى والفرار من تعقيدات الحياة المدنيّة

الاتّجاه الإنساني:

اتّصف نمط التّعليم السائد في القرون الوسطى بالرّتابة والجمود إلى حدّ النّفور مما دفع مؤسّس المذهب الإنساني ممثّلا في **فرنسيسكو بيترارك**(1304-1374م) إلى نقد

[68]- صبحي أحمد محمود و صفاء عبد السلام جعفر، مرجع سابق، ص101.

[69]-المرجع نفسه، ص102.

الفلسفة السّكولائية التي " تخدعنا من خلال ما تتضمّن من تراكيب لغوية عبثيّة لا تنطوي على أيّ أمر واقعي، من هنا يتوجب الانطلاق مباشرة إلى الأمور بالذات والإلمام بالعلاقة المتبادلة بين الكلمة والشيء. إلّا أنّ الإنسان يظلّ موضوع الفلسفة الأساسيّ، وكذلك شروط حياته التّاريخية والسّياسية والتّفتّح الحرّ لقواه الإبداعية . من هنا كانت التسمية إنسانية؛ عودة إلى الاهتمام بالوجود الإنساني..إن مثال الفلسفة الإنسانية هو الإنسان العالمي"[70]، فنلاحظ رفض معظم الإنسانيّين محاولة العصر الوسيط في تحديد خصائص الإنسان في ضوء علاقته بالإله و إن اعتبره الغاية من الخلق الإلهي.

وهذا الإنسان عند مفكّري النّهضة هو المعجزة العظيمة الجديرة بالإعجاب، إضافة إلى مسؤوليته عن حياته، وصنع حضارته بعيدا عن التّدخل الإلهي الذي أودعه إرادة حرة تترتّب عنها المسؤولية الأخلاقية لأفعاله واختياراته، وبما أنه ذو وعي تاريخي فأول ما يشترط في التاريخ أن الإنسان ذاته كائن تاريخي، ذلك أنه كما يقلب صفحات التاريخ تحليلا ودراسة فليس هناك كائن آخر غيره يصنع التاريخ والحضارة.

المظهر العلمي:

يعتبر عصر النّهضة عصر الكشوفات العلمية والجغرافية فقد أحدث **كوبرنيكوس Copernicus(1473-1543م)**، رمز التّحول في العصور الحديثة بنظرية مركزية الشّمس ثورة فلكيّة " ففي كتابه قام بإبدال صورة العالم القديمة، الصّورة المتوارثة عن بطليموس والتي تجعل الأرض محور الكون بصورة أخرى تجعل الشّمس مركزا وحول هذا المركز تدور الأرض: يعتبر ذلك خطوة هامّة في اختراق صورة عالم مقفل في القرون الوسطى وصولا إلى عالم مفتوح و دينامي"[71]، إضافة إلى نظريّة **غاليلي** عن الحركة والسّقوط ونظريته في تحليل الظّواهر؛ الفرضيّة، التّجربة وأخيرا صياغة القانون الطبيعي كما لو أن العصر الوسيط كان ظلمة حجبت الطبيعة وقوانينها وعلى سبيل المثال لا

[70]– كونزمان بيتر و آخرون ، أطلس الفلسفة، تر جورج كتورة، المكتبة الشرقية، ط2، 2007،ص97.

[71]– المرجع نفسه، ص95.

الحصر؛ **جبلر** (1540-1603)في المغناطيس، **روبرت بويل**(1627-1691)في الكيمياء، و **إسحاق نيوتن**(1642-1727) في الجاذبية

" أمّا الأمر الحاسم بالنسبة إلى مفهوم العلم في العصور الحديثة فكان إحلال مفهوم الوظيفة مكان مفهوم الجوهر، إنّ التّركيز على ما يمكن قياسه كمّيا وما يمكن توصيفه بقوانين مترابطة، والإقرار بتراجع البحث في التّحديد الماهوي للأشياء كلّها أمور سهّلت تقدّم العلوم الطّبيعية "[72]، من ذلك مفهوم العلم كقوّة عند **فرنسيس بيكون**(1561-1626م) الذي اشترط التّحرر من كلّ الأحكام المسبقة والأوهام الأربعة للوصول إلى معرفة موضوعية بإعادتها إلى حيث ينبغي أن تكون؛ إلى الطبيعة والتجربة الحسية من أجل السّيطرة على الطّبيعة خدمة لبني الإنسان.

ولقد كان لهذا التقدم المعرفي أثرا بارزا في استعلاء الإنسان على ماضيه القريب، المرتبط بالكنيسة التي جعلت منه مجرد ممثل مسرحي في التاريخ الذي تسطره القدرة الإلهية، التي لا يملك إزاء سلطانها أي دور في تقرير مصيره، كما يمثّل لذلك أحمد محمود صبحي بكتاب مقال في التاريخ العالمي، للأسقف جاك بوسويه **Jacques Bossuet**(1627-1704) الذي أراد أن يرجع بعضا من سلطان الكنيسة التي بدأ يتضعضع، والذي جعل من تاريخ العبرانيين التاريخ الوحيد الجدير بالدراسة.

أما حضارات الأمم العريقة في التاريخ والحضارة كالمصرية والبابلية والآشورية..الخ فليست جديرة بالاهتمام لأن أديانهم مجرد خرافات بناء على نظريته في أن " الدين هو الظاهرة الوحيدة الجديرة بالتسجيل من بين جميع مظاهر الحضارة لأنه التراث الروحي للشعوب ولأنه الحقيقة الخالدة على مر الزمان...، وإذا كنا نؤمن بقدرة الله في الطبيعة فأولى أن نؤمن بعنايته وإحكام تدبيره في تاريخ الإنسان، إن التاريخ يهدف إلى إعلاء كلمة الله، والمقصود بكلمة الله عنده سلطان الكنيسة [73]"، لعل **بوسويه** كان آخر أسقف

---

[72]- كونزمان بيتر و آخرون ، أطلس الفلسفة ، مرجع سابق، ص95.

[73]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 1995، ص174.

يحاول أن يمجّد دور الكنيسة علنا وينسب إليها من الفضائل في تقييد الحريات وادعاء حفظ كرامة الإنسان ما يثير موجة من المقت والاشمئزاز، فلقد جاءت ردّة الفعل عنيفة من المفكّرين بل من الكاثوليك أنفسهم الذين رأوا فيه دليلا على ضيق أفق صاحبه.

لقد انتقد **فولتير Voltaire (1694-1778)** بحدّة وسخرية شديدين هذا التّفسير المبتذل للتّاريخ في عبارته المشهورة " هل اختار الله بعنايته هذا الشعب الوضيع ليكون شعبه المختار، إذا انتصروا قتلوا النساء والأطفال في نشوة جنونية، وإذا انهزموا تجدهم في الدّرك الأسفل من الذّل والهوان "[74] ، يقصد بالشعب الوضيع الشعب اليهودي الذي جعل **بوسويه** من تاريخه الوحيد الجدير بالنّظر والدّراسة.

شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر ميلاد الاتجاه العقلاني في تفسير التاريخ الإنساني وحضارته، بعد التحرر من سلطان الكنيسة ورجال الدين، خصوصا بعد الإصلاحات التي أدخلها كل من المصلحين الدينيين **لوثر** و **كالفن** على علم اللاهوت المسيحي، وقلبت كل المعارف العلمية على يد كل من **ديكارت نيوتن غاليليو** و**ليبنتز**، فتوسعت المعالجة للتاريخ ولم تعد ترتبط بالفداء كما هو في العصر الوسيط، وسنسوق أمثلة من مفكري تلك الحقبة التاريخية من الذين أسهموا بحق في وضع اللبنات الأولى لمناهج دراسة التاريخ وفق منظور عقلي بعيد عن النصوص المقدسة وفق ترتيب زمني.

فيكو Giambattista Vico(1667-1744)

التعاقب الدوري للحضارات: تستند نظرية **فيكو** في التعاقب الدوري للحضارات إلى مسلمات، أهمها تتابع الفترات التاريخية، **و**هذا التّتابع لا يعني أن مسار التّاريخ دائري يعيد نفسه بل يسير في شكل حلزوني كلّ مرحلة تخالف الأخرى، فالتّاريخ في تجدّد دائم ولا مجال للتّنبؤ بالمستقبل.

وقد قال **فيكو** بالفكرة المصرية حسب مصطفى النشار التي تفيد بوجود ثلاثة عصور:

عصر الآلهة: اعتقاد الأمم بالعيش تحت ظل حكم الآلهة

[74]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص182.

عصر الأبطال: عصر حكم النبلاء الذين حكموا العالم بناء على الاعتقاد بتفوقهم وتميزهم عن العامة، ثم أخيرا **عصر الإنسان:** المرحلة التي تساوى فيها الناس جميعا بعد معرفة التساوي في الطبيعة البشرية.

ثم يضيف قائلا: " وقد مرّت الشعوب كلها في نظر **فيكو** أو تمرّ بهذه المراحل ثم انزلقت أو ستنزلق إلى حال من البربرية، عندئذ تتكرر العملية بأكملها، وترجع هذه الصّفة الدّورانية للتّاريخ إلى الطبيعة البشرية التي فطر عليها البشر، مع أن فيكو اعترف بوجود أوجه شبه بين الشعوب و أرجعها إلى الانتقال فإنه اعتبر أنها في أغلب الأحيان تتولّد ذاتيا عن الطبيعة المشتركة "[75].

وفي محاولة منه لتطبيق هذه الرؤية على الحضارات يرى **فيكو** أن ظهور الفلسفة عجّل عند اليونان الانتقال إلى الدّور الإلهي حيث لم يدم عصر البطولة الذي مجّده **هومر** في الإلياذة والأوديسة طويلا " على عكس ما حدث لدى الرّومان، إذ طال الدّور البطولي وعندما وصلوا إلى الدور البشري كانوا قد ابتعدوا كثيرا عن الدور الإلهي ثم عاد الناس في العصور الوسطى إلى بربرية شبيهة بالبربرية الأولى فاجتازوا دورا إلهيا جديدا وهو الدّور الذي تولّى فيه الملوك المناصب الدّينية ثم اجتازوا دورا بطوليا..عندما قامت الحروب الصّليبية، أما الدّور الثالث فقد بدأ في العصر الذي عاش فيه فيكو" [76].

لا ترتدّ الحضارات إلى النقطة نفسها التي بدأت منها، فهي لا تسير في خطّ مستقيم، إنّما تسير بشكل لولبي يسمح للحضارة الجديدة أن تقف من عل لتبدأ دورتها حيث انتهت الحضارة السابقة لا من حيث بدأت، كما لو كانت تصعد جبلا يسمح انتقالها إلى قمته في رؤية العالم بوضوح وشهود آفاقه الرحبة.

بالرغم من أن فيكو لم يتخلص كلّية من البعد اللاهوتي إلّا أنّه وضع منهجا لمعالجة الواقعة التاريخية ولهذا يعتبر في الحضارة الغربية المعاصرة مؤسس علم التاريخ.

---

[75]- النشار مصطفى، فلسفة التاريخ نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص178.

[76]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص162.

ولئن انتقد **فيكو ديكارت** الذي أعلى من شأن المنهج الرياضي وعدّ العلوم التي لا تستند إلى هذا المنهج محض خرافات وأساطير، فقد أكّد "على ضرورة التمييز بين المناهج التي تستخدم في العلوم الإنسانية والمناهج التي تستخدم في العلوم الطّبيعية، لذلك لا يجب أن تثبت العلوم الإنسانية ومن بينها علم التاريخ علميتها عن طريق تطبيق المنهج العلمي أو الرياضي في دراسة الوقائع التاريخية، إنما تبتكر منهجا خاصّا بها، نظرا لطبيعة وخصوصية الظّاهرة التي تدرسها"[77] ممثّلة في تعبيرات الإرادة الإنسانية إذ موضوع التّاريخ هو الإنسان، الذي يحاول المؤرّخ الإنسان أن يتفاعل معه ويستوعب أفعاله، وهو مختلف عن موضوع الطّبيعة.

رأى **فيكو** أن التّاريخ من صنع الإنسان وعلى طريقة **بيكون** صاغ مجموعة من الافتراضات أو الأوهام التي يمكن أن تخرج المؤرخ من الموضوعية في معالجة الأحداث التاريخية، وهذه الأوهام هي مسلمات أربع:

" **المسلمة الأولى:** العقل الإنساني يجعل من نفسه مقياسا للحكم على الأشياء جميعا كلما ظل في الجهل.

المسلمة الثانية: حكم العقل البشري على الأمور المجهولة والبعيدة على أساس الأمور المألوفة والقريب منه.

المسلمة الثالثة: وقعت الأمم في الخطأ عندما تصوّر كلّ منها كما يقول المؤرّخ الصّقلي ديدروس أن تاريخ العالم بدأ مع بداية تاريخ شعبه و أمته و أنها سبقت جميعا الأمم في اكتشاف أسباب الراحة والترف للإنسان.

المسلمة الرابعة: وقع الباحثون في نفي الخطأ عندما بالغوا في تصوير الحكمة الفذة لبعض الشعوب القديمة "[78] .

تلك المسلمات الأربع تقود المؤرّخ كما يرى أحمد محمود صبحي إلى أوهام أربع؛

---

[77]- ماهورياشة عبد الحليم، فلسفة التاريخ، مركز نماء للبحوث الدراسات، بيروت، ط1، 2016، ص81.

[78]– المرجع نفسه، ص84.

– **وهم التمجيد** حيث تمجّد الأمة ماضيها مبرزة جوانب المجد والثراء غافلة عن المعيار الحقيقي للحضارة ممثلا في الدور الذي لعبته في المسار العام للتاريخ.

– **وهم الثّقافة الأكاديمية** حيث يعتقد المؤرّخ أن الشّخصيات الكبرى التي لعبت دورا في التّاريخ لا بد أن تكون على درجة من العلم غير أن كثيرا من تلك الشخصيات ممن سطروا أسماءهم في التاريخ لاحظ لها من العلم أو قليلة الحظ من الثقافة

– **وهم التأثير والتأثر** تشابه الحضارتين قد يوقع المؤرخ في وهم تأثر إحداهما بالأخرى منكرا في العقل الطاقة الإبداعية.

– وأخيرا **وهم الاقتراب** : " حين يعتقد المؤرّخ أن السّابقين أكثر علما منّا بالنّسبة للعصور قريبة العهد بعصرهم، يرجع هذا الوهم إلى تصوّر التّاريخ كذاكرة الإنسان كلّما كان موضوع التّذكر أقرب عهدا كان أكثر في الذّاكرة ثباتا ووضوحا "[79]

أما نظريته في العناية الإلهية فقد تجاوزها إلى الدور الجديد للآلهة في الصورة الأفضل ممثلا في العقيدة المسيحية "إن ديانتنا المسيحية صادقة ..فأما كل ما عداها فزائف..الله شاء أن ينبثق نظام جديد للبشرية ، حتى يتم تأسيس الدين الحق تأسيسا ثابتا"[80]، و قد تأثر على ما يبدو بفكرة **جاك بوسويه** الذي كان معاصرا له وتبنى مقولته حذو النعل بالنعل في جعل العبرانيين شعب الله المختار.

[79]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، موجع سابق، ص157.

[80]- ويدجري آلبان.ج.، التاريخ وكيف يفسرونه، تر عبد العزيز توفيق جاويد، ج2، الهيئة العامة للكتاب المصري، دط، 1996، ص29 .

العصر الحديث:

بداية التأريخ للحضارة

فولتير Voltaire (1694-1778)

ارتبط عصر التنوير بقيم تمثل الدعائم التي قامت عليها الثورات الفرنسية و الأمريكية قيم الحرية والمساواة، وقد كان القرن الثامن عشر القرن الذي تحرّر فيه العقل من سلطان الكنيسة تحرّرا غير مشوب بالخوف.

ويعتبر **فولتير** المدافع الأول عن الإنسانية بحملته الشرسة على الكنيسة كما رأينا قبل في معرض الحديث عن **بوسويه** لتآمرها بنظره تاريخيا مع أنظمة الحكم من أجل خنق الحريات، وتكريس الطغيان تحت مظلّة الدّين الذي يعد هؤلاء بفردوس أخروي جزاء على ما فاتهم من الحظوظ الدّنيوية التي استأثر بها الباباوات والسّلاطين.

إن الثّورة الصّناعية كانت قد غيّرت الكثير في المجتمع الغربي، فقد أدّى انتشار التّعليم و ظهور الطّبقة البرجوازية بعد ازدهار الصّناعة والتّجارة وتداول الأموال في المصارف بعد أن كانت متمركزة في أيدي الإقطاعيين إلى التأثير في الأحوال الاجتماعية والفكرية والسّياسية، و" يمكن القول أن نظريّة التّقدم المستند للفعل الإنساني تقوم على مقدرة الإنسان على أن يتمّ من الإنجازات ما يمكنه من أن يستبدل بالفردوس الأخروي فردوسا علمانيا حديثا فالحياة في باريس ولندن وروما أفضل عند فولتير- أحد أصحاب نظريّة التّقدم- من جنّة عدن."[81]

انعكس كلّ ما سبق على الرّؤية التّاريخية، فالتّاريخ الحقيقي هو التأريخ للحضارة الذي يكشف عن نفسه حصرا في التّقدّم العقلي في مختلف أوجه النّشاط الإنساني من أجل زيادة رخائه وتيسير الأسباب الموصلة إلى السّعادة وإقامة الفردوس الأرضي.

[81]- الشيخ رأفت غنيمي، فلسفة التاريخ، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1988، ص95.

وبعبارة أفصح لمعرفة منجزات العقل الإنساني عبر مراحل التّاريخ لا بد من نقل التأريخ من الاهتمام بسرد أخبار الملوك والقوّاد إلى التّأريخ للحضارات، " يقول فولتير: إنّ بعض المؤرخين يهتمّ بالحروب والمعاهدات ولكنّي بعد قراءة وصف ما بين ثلاثة آلاف و أربعة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي أكثر حكمة ممّا كنت قبلها حيث لم أتعرّف إلّا على مجرد حوادث لا تستحقّ عناء المعرفة، وأيّ حكمة تكتسب من العلم بسيادة طاغية على شعب بربري لا همّ له إلا أن يغزو ويدمّر"[82].

لا يعني ذلك عدم الإشارة إلى أولئك الذين يمثلون مرآة الحضارة وحملة لوائها من العلماء و المفكّرين، وإليك هذا المثال الذي يسوقه **فولتير** في رسائله حول نقاش دار بين المجتمعين في أيّ هؤلاء أعظم؟ **قيصر** أم **الاسكندر** أم **كرمويل** ...الخ لكن أحد الحاضرين نطق بالحكمة حين رسم طريقا آخر للعظمة وعدّ واحدا لم يكن بين هؤلاء السّاسة الذين جرت المفاضلة بينهم.

لقد أجاب فولتير بأن **نيوتن** هو أعظمهم جميعا لأنه أفاد البشرية كثيرا بعلمه واكتشافاته، ولأن " رجلا مثل السيد نيوتن، الذي لا يكاد يظهر مثله في عشرة قرون يكون العظيم، ولأن هؤلاء السياسيين والفاتحين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا غير أشرار بالحقيقة، فترانا ملزمين بإجلال ذلك الذي يسيطر على النفوس بقوة احترامنا إلى ذلك يعرف الكون، لا أولئك الذين يشوّهونه"[83] فبحسب **فولتير** لا بدّ أن تتسع دائرة التأريخ وتخرج من المحيط الأوربي إلى أصقاع العالم الذي عرف حضارات مجيدة كبلاد ما بين النّهرين والشّرق الآسيوي إضافة إلى استخلاص العبر من أخطاء الماضي لتجنبها مستقبلا، معتمدا على العقل كمعيار للتّقدّم وصمّام أمان من الوقوع مجدّدا في فخّ التّعصب الأعمى للدّين أو القومية أو الأهواء النّزقة كما هو الحال في العصر الوسيط الذي استند

[82]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص181.

[83]– فولتير، رسائل فلسفية، تر عادل زعيتر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2014، ص87.

فـي التّـأريخ للتّـوراة وقصـص العهـد القـديم، والـذي خـصّ العنايـة الإلهيـة بـالعبرانيين وحدهم في مقابل الاحتقار للشّعوب الأخرى ولحضارتهم.

إن السّنن الكونية تجري وفق قوانين ثابتة لا تتغيّر، والعقل منوط بفهم تلك السّنن التي تجري على الكلّ و لا تختصّ بنظر فولتير بشعب دون آخر، ويقيم الشّواهد العقلية على انتصار قوى النّور التي جعلت العقل هاديا لها فاستنارت بعد ظلمات القرون الوسطى و " ليس في وسع الإنسان إلا أن يتفاءل بالنسبة للمستقبل إذ ستخطو سيطرة العقل خطوات أبعد كما أنّ الصّناعة ستصبح أكثر تطورا بفضل التّحسينات والابتكارات في مجال التّكنولوجيا وبفضل سحق الخرافة والجهالة المتمثّلين قي سلطة الكنيسة إذ ستنتهي الحروب الدينية والمذهبية و إن كان هذا لا يعني نهاية الحروب تماما إذ ستظلّ الحروب لدوافع سياسية "[84] .

لا يعني التقدم أن الحضارات دوما في صعود فقد تكون هناك انتكاسات، ربما يحرز البشر تقدما تكنولوجيا وفي الحين نفسه يرتد الشعور إلى الحيوانية؛ ممثلة في التعصب المقيت والحقد المميت فما يصلح دواء لمريض قد يكون فيه الردى لمريض آخر، وقد تنتفع أقوام بمنجزات العقل وتشقى بها أقوام أخر.

الماركيز انطوان دي كوندرسيه(1743-1794)

: Marquis Antoine de Condorcet

يصنف كوندرسيه في مفكري عصر الأنوار ومن المعتنقين مع **فولتير** لنظرية التقدم، و إذا كانت الحضارة كما ورد معنا في التعريفات المقدمة من معانيها حالات التقدم والرقي المعرفي والفني والأدبي وسائر أوجه النشاط الإنساني، فإن كوندرسيه يقدّم لنا لوحة تاريخية تكشف تطور الإنسانية خلال مراحل تاريخية تسعة[85] :

---

[84]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص185.

[85]- نقلا عن: أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، مرجع سابق، ص84(بتصرف).

مرحلة العشيرة: حيث تشكّل أوّل نظام اجتماعي وأخلاقي، وحيث بدأت تصوّرات عن الكون لكنها ارتبطت بمعتقدات سحرية

مرحلة الأقوام الرعاة: في هذه المرحلة حاول الإنسان تحسين ظروف حياته باستئناس الحيوان واهتدى في المعاملات إلى طريق المقايضة للحصول على الاحتياجات

مرحلة الزراعة واختراع الكتابة: كانت الزراعة أهمّ العوامل التي ساعدت الإنسان على الاستقرار وإنشاء المدن ونشأ الرق تبعا لتعلق المزارعين بالأرض الذين خضعوا أحيانا للغزو، كما أدت المبادلات التجارية إلى ظهور الكتابة " فالظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة، وهي إحدى وسائل التجارة المسهّلة لأمورها، فهاهنا أيضا نرى الثقافة كم هي مدينة للتجارة، ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية و الطقوسية والطبية اتحدت طائفتان الدنيوية والدينية [86]" والظاهر من النص أن طبقة الكهان كانت محتكرة للعلوم في الشرق موطن ظهور الكتابة بجميع أنواعها.

مرحلة التخصص في العلوم: أو من الشرق إلى اليونان الذين تلقوا " تراثا واسعا وفنونا عديدة ومعارف علمية ومعتقدات دينية من الشرق وامتاز اليونان لأنها لم تكن بها طبقة كهان تحتكر العلم كما كان حال الشرق فنشأ الفكر حرا، نشأت الرياضيات على يد فيتاغورس، وفكرة الآلية عند ديمقرطيس ..إسهامات جوهرية تمثلت في علوم رياضية ..سياسية..كما ازدهر الأدب والمسرح والفنون الجميلة "[87] لكن ما يعاب على اليونانيين عدم أخذهم بالتجربة ولئن حاول سقراط أن ينزل الفلسفة إلى الأرض والواقع اليومي وإلى النظر في الإنسان ذاته فقد أعادها أفلاطون إلى السماء.

مرحلة تقدّم العلوم: تبدأ من أرسطو وتصنيفه للعلوم وتنتهي بإغلاق المدارس الفلسفية بأمر من الإمبراطور، تميّزت هذه المرحلة باستقلال بعض العلوم كالرياضيات والطب،

---

[86]– أبو خليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، مرجع سابق، ص84.

[87]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ ، مرجع سابق،ص 188.

وخضوع اليونان لروما، كما اتخذت الإسكندرية عاصمة للعلماء هروبا من الاضطهاد الروماني فأفادت العالم القديم التشريع وهيأت الأذهان لفكرة الإله الواحد بعد اتخاذ البانثيون معبدا لكل الآلهة، كما تميزت بانتشار المسيحية الذي رافقه بداية انهيار الدولة الرومانية

مرحلة اللّاهوت: تبدأ بسقوط روما وتلقّب بالعصور المظلمة حيث انتشر الجهل وساد الظّلم وتحالفت قوى الشر" الملوك والقادة العسكريون والكهنة، كان الكهنة يملأون الفكر بالخرافات ويحرّضون الأمراء على إعدام وحرق من يستنكر أباطيلهم، أما في الشرق فقد حمل المسلمون تراث اليونان وتقدمت بعض العلوم وكان ذلك كافيا لتنبيه أوربا من غفلتها وإن لم يحل ذلك دون عودة المسلمين إلى غفوتهم"[88]

مرحلة النّهضة: تميزت بالتقدم في مختلف العلوم التي ساعد اختراع الطباعة و معامل الورق على انتشارها، والحد من سلطان الدين بعد النفور من تسلط الكنيسة، إضافة إلى نشأة الجامعات.

مرحلة الإصلاح الدّيني واكتشاف العالم الجديد: تعتبر دعوة **مارتن لوثر** في تاريخ الفكر المسيحي أو ما يسمّى بالإصلاح الديني البروتستانية تعبيرا عن نصف التّحرر، وتمثّل النّصف الثّاني في الأفكار التي بدأت تفرض حقوقا للشّعب إلى جانب الحدّ من سلطات الملك

المرحلة التّاسعة والأخيرة: مرحلة **بيكون** و **جاليلو** و**ديكارت** الذين سنّوا للبشرية مناهج علمية جديدة غيّرت كثيرا إلى حدّ القطيعة أحيانا مع التّصورات السّابقة، " ومن بعدهم تمثّل التقدم في شخصيات **فولتير** و **مونتسيكيو** اللّذين نشرا أفكار المساواة والحريّة، ولن يتوقف بعد هذا سير الإنسانية إذ هي تخطو قدما نحو المساواة والتخلص من العبوديّة، ويحدو الإنسان الأمل في مستقبل قائم على احترام حقوق الفرد وتقدّم العلم وبذلك تسير

[88]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ ، مرجع سابق، ص189.

الإنسانية نحو سعادة فكرية وخلقية واجتماعية "[89]، لكن هذه الآمال لمفكري وفلاسفة عصر الأنوار كانت مجرد أحلام ، فبعد أقل من قرن على هذه البشائر التي كانت تلوكها الألسن كانت البشرية تشهد عصرا جديدا من الاضطهاد، عصر التوسع الاستعماري والإمبراطوريات، التي يمكن استخلاص نتائجها في تاريخ واحد مشترك لجميع الحركات الاستعمارية هو بعبارة بسيطة تاريخ شقاء الإنسان.

ظهور مصطلح الحضارة

إنه من المفيد أن نلمّح إلى أنّ الاشتقاق الاصطلاحي لCivilisationلم يكن معروفا إلى القرن الثامن عشر بالمعنى الذي اصطلح عليه فيما بعد عند فلاسفة الحضارة ك توينبي و اشبنغلر وآخرين، ففي كتاب ميرابو (صديق النساء أو مقال في الحضارة):

" ولم تلق هذه الكلمة انتشارا في حينها إذ إنّ **بوزول Besswell** حثّ الدّكتور جونسون ليدرجها في معجمه سنة1772م، ولكنّه رفض مفضّلا الكلمة القديمة **Civility**التي تعبّر تماما مثل كلمة **Urbanity** عن ازدراء الرجل المدني للقروي أو الهمجي، ويبدو أن ما عناه غالبية من استخدموا الكلمة لأول مرة هو مزيج من الصفات الروحية والخلقية ..الأدب واللياقة والاعتدال وضبط النفس.."[90]، وإن كنا ذكرنا قبل قليل أنّ المصطلح ظهر في القرن الثامن عشر فإن **رولان بريتون** يعطينا التّاريخ الدّقيق في القرن ذاته لظهوره يقول :" ظهرت كلمة Civilisation بالفرنسية سنة 1734، وأصلها واضح : فهي تنحدر مباشرة من صفة Civilise (متحضر)في القرن السابع عشر"[91].

أما في القرن التاسع عشر وبعد تطور المجتمع الأوربي وبلوغ الثورة الصناعية أوجها فقد أصبحت الحضارة كما رأينا في المدخل المفاهيمي تعكس تلك الصورة النمطية

---

[89]– النشار مصطفى، فلسفة التاريخ، نشأتها وتطورها، مرجع سابق، ص186.

[90]– نقلا عن: نصر محمد عارف، الثقافة–الحضارة–المدنية، مرجع سابق، ص34.

[91]– بريتون رولان، جغرافيا الحضارات، تر خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت–باريس، ط1، 1993، ص19.

للحياة المدنية الأوربية بكل أبعادها الشخصية والاجتماعية والدينية والفنية ...الخ اتساقا مع نظرة الفكر الأوربي للتاريخ، والتي سنرى في المبحث الآتي نماذج منها كان لها التأثير البالغ في الفلسفات اللّاحقة المفسرة للتاريخ والدّورة الحضارية، وبالطبع فإن **توينبي** من الفلاسفة الذين عنوا بدراسة تلك التفسيرات السابقة وتأثّروا بها وأبدوا آراء قيّمة حولها.

المبحث الثالث

المرجعيات الفكرية ل توينبي ومفهوم الحضارة في الفكر الغربي المعاصر

3-1 أرنولد توينبي و القديس أوغسطين

3-2 توينبي و ابن خلدون

3-3 توينبي و شبنغلر

3-1 توينبي و القديس أوغسطين:

كان لإصدار مرسوم **كاركالا** عام 212م والذي يقتضي صيرورة جميع سكان الإمبراطورية مواطنين رومانيين الأثر الفاعل في اندماج الرعايا المسيحيين، وإن تطلب بادئ الأمر قيام ثورات سياسية واجتماعية لانتزاع تلك الحقوق المكفولة بمقتضى نصوص القانون، وهو ابتكار دستوري" مكّن الكنيسة من حل مشكلة التمتع بمنافع الانتساب إلى جماعة علمانية، دون أن تضطر إلى نبذ روابط الولاء المقررة التي تربطها بالهيئة الدينية، أو تقتلع جذورها"[92]، وهذا أدى إلى اندماج الأقليات وإزالة تلك الهوة الاجتماعية بين الرعايا والمحكومين.

لكنّ **توينبي** وإن رأى أن المسيحيّة استفادت من النّظم التي أقرّتها الدّولة العالمية روما ، فإنّ الإمبراطور ومعاونيه في عصر الانحلال أصبحوا يضيقون ذرعا بالدّيانة التي استشرت داخل جسد الدّولة كالسرطان ويرونها السّبب المباشر في هذا الانهيار الاجتماعي وسقوط الدولة جرّاء تتابع حملات البرابرة، لأن المسيحيين أصبح ولاؤهم للكنيسة وللجماعة المسيحية دون تنظيم الدولة العام والسلطة المحلية.

إن هذه أوضح صورة تظهر آثار التلاقي بين **توينبي** و **أوغسطين** ممثلة في صورة الدفاع عن المسيحية خصوصا خلال هذه الفترة التي كانت الإمبراطورية الرومانية فيها تحتضر، وانبرى فيها القديس أوغسطين يرد عن الدين تلك الاتهامات التي جعلته سببا مباشرا لسقوط الدولة الرومانية، و تنكّروا لما قدّمته الكنيسة من خدمات جليلة في الحفاظ على أرواح الرومانيين أنفسهم و التي لولاها " لكانت ألسنتها اليوم صامتة عن التجديف..إن الذين يناصبون العداء لاسم المسيح . أليسوا أولئك الرّومانيين الذين نجوا

[92]–توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، المركز القومي للترجمة، القاهرة، دط، 2011، ص136 .

من ظلم البرابرة باسم المسيح؟..إن العدوّ الغاضب الغاطس في بحر من الدّم كان يقف أمام ذلك الحاجز فتخمد شهوة القتل فيه على عتبة البيت المقدّس" [93].

وهذا التّصور من أوغسطين لتلك الفترة التي سبقت سقوط روماعام 410م تحت ضربات البرابرة لم تقتصر فحسب على السّرد للوحشية والبربريّة ومظاهر الدّماء، بل تعدّت إلى الغاية من التّاريخ نفسه بحيث رأى أنّ تلك الأحداث تنتظم كلّها تحت ما يسمّيه بالعناية الإلهية .

في كتابه مدينة الله يقرّ بأنّ تلك المآسي طريق إلى الخير المستقبلي، بل هي وإن بدت شرّا كلّها ففي طويّتها الخير الكثير " على أن قليلا من الاستقامة لو تحلّوا به لعرفوا في كلّ ما عانوه من مآسي، تلك العناية الإلهيّة التي تتّخذ الحرب سلاحا للإصلاح وسحقا للفساد البشري، وإذ تختبر بتلك الضّيقات النّفوس البارّة والصّدّيقة، تؤهّلها بعد الامتحان لمستقبل أفضل "[94].

هذا الرأي المشوب في التاريخ بالصبغة الربانية ليس بدعا عند المسيحيين فقط، ف **توينبي** مثل **أوغسطين** يرى في التاريخ إنجازا للخطة الإلهية، والبشرية التي ترجو أن تحقق غايتها من غير مشاركة الله إنما تندفع إلى الفتنة والتنافر، وطالما سعى الإنسان أن يلعب دورا في التاريخ بنبذ الإله الواحد فعناؤه في استكمال ذاته " يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زمانا ومكانا، وعلى هذا يصبح التّاريخ عند كلّ امرئ يشارك فيه – على حدة–مجرّد حكاية لا معنى لها يرويها أبله، لكن هذا الشيء الذي لا معنى له، يكتسب معنى روحيّا عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحقّ"[95] ، وعلى هذا الرّأي قد لا يتهيّأ أن تكون الحضارة ميدانا للدّراسة قابلا للفهم دائما إلّا إذا نظرنا فيها إلى ميدان ملكوت الله وفعله في التّاريخ.

---

[93]– أوغسطينس، مدينة الله، تر الخور أسقف يوحنا الحلو، ج1، دار الشروق ، بيروت، ط2، 2006، ص10.

[94]– نفس المرجع والصفحة .

[95]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص192 .

لا يكتفي **توينبي** بإبراز العناية الإلهية في التّاريخ الإنساني الذي حكم عليه بالموت دون أن يتمكّن من بلوغ آماله وتحصيل أغراضه، بل يقف موقف **أوغسطين** السّابق ليدافع عن الأديان العليا و الدّين المسيحي خاصّة ويبيّن دورها في بناء الحضارات.

في الفصل السّادس والعشرين وتحت عنوان الأديان سرطانات يطلعنا **توينبي** عن حالة تحلّل الإمبراطورية الرومانية وذلك الاتّهام الذي أصبح يشتدّ منذ الهجوم الذي شنّه **سلسوس Celsus**حوالي نهاية القرن الثّاني الميلادي حتى بلغ ذروته في غرب أوربا، في الوقت الذي كانت تعاني الإمبراطورية فيه سكرات الموت، ويستعرض أشعار **رويتليوس ناماتيوس** عام 416م و التي تفيض بشعور الكراهية ضد الكنيسة المسيحية ورجال الدين " تتلطخ الجزيرة وتزخر برجال يعرضون عن الضياء، إنهم يرسمون أنفسهم رهبانا بأسماء يونانية ؛ لأنهم يبتغون العيش منفردين لا يلحظهم إنسان، إنهم يرهبون عطايا القدر بينما يخشون رزاياه ..فأيّ عقل ملتاث يتعلّق بهذا المبدأ.

ومن خلال هذه السّطور لا تزال تبدو روح أرستقراطية وثنيّة خامدة رأت في إعراض النّاس عن العبادة التّقليدية للآلهة الهلينيّة، علّة دمار الإمبراطورية الرّومانية" [96]

غير أنّه يستعرض الدّلائل على أنّ المجتمع الهليني قد سقط فعلا قبل ذلك –بفترة طويلة– من تطفّل المسيحية أو أيّة عقائد شرقيّة أخرى عليه، و ينتهي إلى نتيجة مؤدّاها أن الأديان العليا ليست هي المسؤولة عن هلاك أيّة حضارة من الحضارات.

ويواصل توينبي في عرض الآراء المعاصرة التي توافق تلك النظرة الرومانية؛ نقصد هاهنا فكرة **فريزر** التي قوامها أن الأديان العليا هي مصابة–بالضرورة –بداء عضال، هو مناهضتها الحياة الاجتماعية، ويرى في جعل فكرة الخلاص هدف الحياة الأسمى تقويضا للبناء الحضاري.

[96]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص143 .

يرى **توينبي** أنّ فكرة **فريزر** خاطئة، لأنّها تقوم على فهم مبتذل وبسيط لطبيعة الدّين وللنّفس البشرية إذ الإنسان حيوان اجتماعي وليس نملة خالية من الأنانيّة، فلا وجود لمجتمع إلّا في مناحي نشاط الأفراد الذين لا يتأتّى لهم بدورهم وجود إلّا في هذا المجتمع الذي ينظّم شبكة العلاقات بينهم، " وبالمثل ليس ثمّة تنافر بين علاقات الفرد بزملائه، وصلته بالله وإنّنا لنجد في الإلهام الرّوحي للإنسان البدائي تضامنا بين عضو القبيلة وآلهته وهو تضامن لا يؤدّي بحال من الأحوال إلى ابتعاد رجال القبيلة بعضهم عن البعض الآخر، بل إنّه ليعتبر أقوى الرّوابط الاجتماعية التي تؤلّف بينهم ...وتقدّم الحضارات المتحلّلة الدّليل على صحّة هذا القول حين تنشد رابطة مستحدثة للمجتمع عن طريق تأليه حكّامه "[97]

وعلى هذا يتبين لنا أنه لا وجود لتعارض بين محاولة المرء تخليص نفسه بالالتجاء إلى الله، وسعيه للقيام بواجبه اتّجاه الآخرين.

و**توينبي** شأنه شأن الكثير من المفكّرين قلق من المصير المحدق بالحضارة الغربية، ولا يرى في العقل الإنساني وحده ضمانا لاستمرار توهّجها وأمان من الأخطار التي تحيق بها بل يرى في وضوح لا شكّ فيه " أنه في ظلّ عقيدة المجاهدة على الأرض، تتحقّق الغايات الاجتماعية الطّيبة للمجتمعات الدّنيوية بتوفيق أعظم كثيرا ممّا تتحقّق في مجتمع دنيوي يرمي إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة، ولا يتطلّع إلى ما هو أسمى من ذلك،وبتعبير آخر؛ إنّ الارتقاء الرّوحاني للنّفوس البشريّة في هذه الحياة يحمل معه حقّا تقدّما اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيّأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى "[98]، ويرى أنّ ما يؤكّده بشأن المسيحيّة ينطبق على سائر الأديان العليا، لأنّ جوهر المسيحيّة والأديان العليا هو جوهر واحد.

---

[97]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص148 .

[98]– المصدر نفسه، ص149 .

يفترض **أوغسطين** في كتابه مدينة الله أن في التّاريخ استمرارا واتّصالا في التّطور بحيث يكون الماضي داخلا في تكوين الحاضر و المستقبل لبلد أو مجتمع ما، وإذا كان الإنسان ذو نزعتين ؛حبّ الذّات وحبّ الإله فالمجتمع كذلك مدينتان، مدينة الشّيطان التي يغلب على أفرادها حبّ الذّات فينصرفون إلى الشّرور والمظالم، ومدينة الله التي تسعى من أجل الخير للجميع، وقد بدأت في التّاريخ بظهور نبيّ الله إبراهيم.

أما مدينة الشيطان فقد بلغت ذروتها في الإمبراطورية الرومانية، وقد شاءت العناية الإلهية أن تكون كلتا المدينتين ممهّدة لظهور المخلّص المسيح، وبهذا فإن الخلاص مرتبط بامتزاج الدولتين، الجانب الرّوحي والسّياسي معا، فيعتدل هذا بذاك وتتحقق السّعادتين لبني الإنسان؛ الدّنيوية و الأخروية .

لا شكّ أن هذه الرّؤية لتلك المدينة التي تجمع بين مملكة السّماء ومملكة الأرض، لها صداها في فكر **توينبي**، فآراؤه حول الدّولة العالمية وما تتصف به من مبادئ تسمح بانضمام كافة المدنيات العالمية تحت لوائها، و هم في ظلّ هذه الدولة " يعتنقون مبدأ التّسامح رجاء تلافي الصّراع بين بعضهم بعضا؛ إنما يهيّئون للبروليتاريا الدّاخلية بذلك فرصة تشييد صرح عقيدة عالميّة، ومن شأن انصراف البروليتاريا الدّاخلية للأمور الرّوحانية ، ضمور النّزعة المادّية بين رعايا الدّولة العالمية"[99] .

أمّا نقطة الخلاف بين **توينبي** و **أوغسطين** فهو في مسار حركة التاريخ ف**أوغسطين** يرى سير الحضارات في خطّ مستقيم، من بدء الخليقة إلى يوم الدينونة، أما التعاقب الدوري فيفيد تكرار الحوادث و تعاقبها في كلّ دور من أدوار الحضارات، بينما الواقعة التاريخية في العقيدة المسيحية فردية يستحيل تكرارها كاستحالة إعادة صلب المسيح نفسه، في حين قال **توينبي** بالتعاقب الدوري للحضارات في صورة جديدة حيث أقر أن للحضارة حركة إلى الأمام ولكن هي في الوقت نفسه نتيجة حركات دورية جزئية.

[99]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق ، ص27 .

3-2 توينبي وابن خلدون:

في المقال الذي نشر سنة 1961 تحت عنوان –حيرة الكاتب–يرى **أرنولد توينبي** أنه لا جدوى للمرء أن يصبح كاتبا ما لم يكن منسجما مع روح العصر الذي يعيش فيه " وإذا أراد الكاتب النّجاح في تحقيق غرضه (أيّا كان) في الفترة التي يعيش فيها، فلا بدّ أن تصل الكلمة المكتوبة إلى عقول معاصريه وتمسّ مشاعرهم، فإذا فشل الكاتب في ذلك فكأنّه قد أودع أصول كتاباته في إحدى الخزائن، آملا أن يجيء اليوم الذي يظهر فيه جيل يحتفل بكلماته، وفي مقدورنا أن نذكر كتّابا تعرّضوا لهذا المصير –ومن الأمثلة الشهيرة :اخناتون، وابن خلدون، و روجر بيكون..."[100]، ويعتبر ابن خلدون اليوم في بعض الدّوائر العلميّة أوّل مفكّر اجتماعي صاغ قوانين في عوامل نشأة الأمم وازدهارها وانهيارها، كما يشير **توينبي** إلى ابن خلدون كواحد من المؤرخين الذين أفاد منهم وتأثر بهم وأعجب بفكرهم " حيث رأى توينبي أن ابن خلدون قد وضع فلسفة للتاريخ هي بلا مجاملة أعظم عمل أبدعه عقل في أيّ زمان ومكان" [101].

ابن خلدون (732-808 هـ) (1332-1406 م)

لم نكن لنرى عبقريّة ابن خلدون لولا تلك الظّروف التي صاحبت مولده ونشأته نتيجة الحال الذي آلت إليه تلك الحضارة العظيمة التي يفتخر بالانتساب إليها ألا وهي حضارة الإسلام، فقد عاش حياته وهو يشهد تداعي بنيانها لبنة لبنة، ففي الشّرق سقطت الخلافة العباسيّة في بغداد على أيدي المغول، وفي الغرب كانت بلاد الأندلس- بعد انهيارها داخليا عقب سقوط الخلافة الأموية ودخولها عصر ملوك الطوائف- تكافح على ما تبقّى

[100]- الشقفي محمد عبد الله، مع أرنولد توينبي، ترمحمد عبد الله الشقفي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دط،1964،ص37.

[101]- جمعة علم الدين نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1991، ص 21 .

في الجنوب غرناطة وألميريا وجبل الفتح بعد ضياع أهم الحواضر والمراكز الإسلامية طليطلة وقرطبة و إشبيلية في القرن الرّابع عشر ، وشهد المغرب الغربي انقساما بعد انهيار دولة الموحدّين إلى دويلات ثلاث؛ الحفصية بالمغرب الأدنى(تونس)، و بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط(الجزائر)، وبنو مرين بالمغرب الأقصى، وعلى العكس في أوربا فهذا القرن نفسه هو الذي كانت فيه بشائر النّهضة الأوربية تلوح في الأفق.

أطوار الحضارة عند ابن خلدون:

يعرّف ابن خلدون الحضارة بأنها" تفنّن في الترف وإحكام الصّنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنّق فيه"[102]، و يشير ابن خلدون بأن الزّمان كفيل بجعل هذه الصّناعات تصل إلى حدّ من الإتقان والجودة خصوصا في العواصم والمدن الكبرى القريبة منها والتي تزدهر فيها الصناعة وتكثر فيها حركة رؤوس الأموال التي تنعكس أخيرا على المجتمع ورقيّه و رفاهه.

في الفصل الرابع عشر من المقدّمة يرى ابن خلدون أن للدّولة أعمارا طبيعيّة كما للأشخاص " وعمر الدّولة لا يعدو– في الغالب– ثلاثة أجيال؛ الجيل الأوّل لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها...الجيل الثاني تحوّل حالهم بالملك والتّرفه من البداوة إلى الحضارة ...وأمّا الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن..ويبلغ فيهم التّرف غايته..فيصيرون عيالا على الدّولة "[103] ، فهو ينظر أوّلا إلى الدولة كما لو كانت شخصا اعتباريا يمرّ بما لابدّ منه من أطوار الطفولة ثم ينمو ليبلغ أشدّه ثم يرتدّ إلى الضّعف والفناء .

[102]– ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2005، ص179.

[103] – المرجع نفسه، ص 181.

الطّور الأول :

البداوة: وهو جيل الحضارة الأول بعيد عن الترف مخشوشن في مأكله و معيشته " لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها و توحّشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدّهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون"[104]، وهي سمات تكون أول الأمر باعثا على تمهيد الطريق أمامهم للغلبة وقهر الأعداء والمنافسين والاستيلاء على ما في أيدهم.

وبنظر ابن خلدون فإن البدو هم الذين يقتصرون على الضروري من أحوالهم، و أن البادية أصل العمران ، لأن سكان الأمصار أكثرهم من البدو الميسورين الذين سمحت لهم فضول أموالهم أن يعدلوا بأنفسهم وأهليهم عن شظف العيش إلى ترف و راحة أهل المدن ويربط كما نلاحظ بين الخصال العالية من الشجاعة والإقدام و الغلبة على المعتدي وخشونة الحياة في البوادي، لأن الترف والخلود إلى الراحة والدعة مفسدة للمرء أيّ مفسدة.

وإذا كان **ابن خلدون** أرجع أصل الحضر إلى البدو، فإنّ **توينبي** يقسّم " أيضا المجتمعات إلى قسمين رئيسيين هما: المجتمعات البدائية والمجتمعات الحضارية ويعتقد أن أصل المجتمعات الحضارية إنما يرجع إلى تلك المجتمعات البدائية، ويقرر بناء على ذلك أن هناك ستة مجتمعات قد انبعثت من الحياة البدائية مباشرة وهي : المصرية، السومرية، المينوية، المايانية، الاندیانية، الصينية ."[105]، وهو كما نرى توافق على أن البداوة بتعبير ابن خلدون والبدائية بتعبير توينبي سابقة على الحضارة ومهد لها ، فلا يمكن تصور لوجود الحضارة دون وجود مادتها أو قطيعة مباشرة معها.

[104]– ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2005، ص179.

[105]– جمعة علم الدين نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص27 .

التحضر:

بتعبير ابن خلدون الجيل الثاني الذي يؤسّس الدولة بعد أن تغيّر حالهم ورقّت طباعهم بفعل الترفه والملك، وانتقالهم من التشارك في المجد إلى استقلال الفرد أو العشيرة به عن البقية الذي تكاسلت عن السعي فيه، تنكسر في هذه المرحلة العصبيات بعض الشيء وإن لم تذهب بالكلية بل " يبقى لهم الكثير من ذلك ؛ بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، و إن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظنّ من وجودها فيهم."[106] ، فنلاحظ في هذا الطور خفة الطبائع البدوية التي كانت في الصّدر الأوّل، فقد حلّ محلّ العصبيات نظام حكومي ذو قيم حضرية ينوب عن رؤساء العشائر و القبائل في معالجة الأمور النازلة في شكل نظم قانونية ولوائح تنظيمية بلغة العصر الحديث، إضافة إلى تغيّر تلك الأخلاق التي تغيّرت بالاختلاط في العمران الحضري بعد أن كانت حدود القبيلة تحكمها العصبية والنّسب الواحد ونابت الدولة وحكامها في دفع العدوان بقيمها الحضرية بعد أن كانت تحتكم إلى القيم العصبية.

بالإضافة إلى ما سبق يرى **نفين جمعة** أنّ هاهنا امتدادا واضحا للفكر التاريخي لابن خلدون في آراء توينبي ويقابل هذه المرحلة عند **توينبي** مرحلة نموّ المجتمعات أو العصر الذهبي في تاريخ المدنيات " والتي لا تدوم إذ تدخل المدينة في دور الانهيار الذي ينتج عن تحلل هذه المدنية، وأحد مؤشرات هذا التحلل الهامة هو تحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة، فتبدأ مرحلة الاضطرابات أو الصراع الداخلي الذي يؤثر على جسم المدنية، ويتجسد التحلل في الاضمحلال الروحي والابتذال والهمجية"[107].

---

[106]– ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، مرجع سابق، ص180.

[107]– جمعة علم الدين نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص41 .

الطور الثالث

الانهيار:

يسمّيه ابن خلدون الجيل الثّالث الجيل الذي تقادم عهده في التّرفه والدّعة فنسي الملبس الخشن وذاق حلاوة الحضارة ونعيمها، وركنوا إلى السكون شأنهم شأن القواعد من النّساء والصّبيان لا يصلحون في مدافعة العدوّ بعد أن فسدت أخلاقهم وطباعهم، عالة على الدولة " ويلبّسون على الناس في الشّارة و الزّيّ و ركوب الخيل وحسن الثّقافة يموّهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النّسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النّجدة ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدّولة بعض الغَنَاء، حتى يتأذّن الله بانقراضها، فتذهب الدّولة بما حملت، فهذه كما ترى –ثلاثة أجيال–، فيها يكون هرم الدّولة وتخلّفها "[108]. و إذا وجدنا أن المفهوم الأساسي في تفكير **توينبي** هو المدنية أو المجتمع مقابلا لمفهوم الدولة عند ابن خلدون، الذي رأى أنها تمر بتلك الأطوار الثلاث من نشأة وازدهار يعقبه انهيار .

هذا التعاقب الدوري هو الذي نجد صداه في فكر **توينبي** " فكافة المدنيات القائمة حتى اليوم عند توينبي هي إما أنها مرت أو لا تزال تمر بمراحل متشابهة وهذا هو نفس المعنى عند ابن خلدون الذي يقول بأن الدول تتشابه في مراحلها المختلفة وأعمارها ، وتقوم الواحدة على أنقاض الأخرى" [109].

أطوار الدولة عند ابن خلدون: من الضروري أن نبيّن التباسا قد يقع فيه كثير من القراء والباحثين بخصوص ما يقصده ابن خلدون بالجيل وهو ما يخضع للقياس الزّمني ويحدّده

[108]– ابن خلدون، المقدمة، ص180.

[109]– جمعة علم الدين نيفين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص40 .

بأربعين سنة؛ عمر الجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط يستند في ذلك لقوله تعالى " حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة "[110]، إضافة لقصة التّيه الذي وقع لبني إسرائيل الذين جبنوا عن مواجهة أعدائهم قال تعالى "فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض "[111] وهو العمر الذي يسمح بفناء الجيل الذي عهد الذل والجبن ونشأة جيل آخر لم يعهده، فالطّور المقصود هنا هو الطّور الإنساني وما يعرض له من الحالات السابقة أما الدّولة عند ابن خلدون فأطوارها شأن آخر إنّها المراحل التي تمرّ بها خلال تلك الأجيال الثّلاثة مجتمعة أي في مدة 120 سنة، وهي خمسة مراحل:

المرحلة الأولى:

مرحلة الغلبة والظفر و قهر المناوئين والمدافعين " والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية، لا ينفرد دونهم بشيء، لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها"[112] أي في هذه المرحلة تتأسّس الدولة على العصبيّة، وصاحب الدولة حينئذ لا يستقل برأيه دون عصبيته فالأمر يومئذ شورى بينهم، عزّه من عزهم وقوّته مستمدّة من قوّتهم، وليس في مقدوره الاستغناء عنهم من أجل توطين ملكه و إرساء دعائمه .

المرحلة الثانية:

مرحلة الاستبداد بالملك والرأي والمال ، يريد صاحب الدولة أن يستأثر بكل شيء دون وجوه عصبيته التي حاز بفضلها كل شيء؛ يستعين على الأقارب بالأجانب ويستكثر من ذلك " لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له قي نسبه الضاربين في الملك

---

[110]– سورة الأحقاف، الآية 15.

[111]– المائدة، الآية 26.

[112]– ابن خلدون، المقدمة ، ص184.

بمثل سهمه، فهو يدافعهم عن الأمر ويصدّهم عن موارده ويردّهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه، حتى يقرّ الأمر في نصابه، ويفرد أهل بيته بما يبني من مجده، فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون أو أشد" [113]لأنه إنما تغلب على الأولين الأجانب بفضل أهل عصبيته، فيركب الصعب من الأمور، إذ يستظهر على قومه بالموالي ويخصهم بمزيد من التكرمات .

المرحلة الثالثة:

مرحلة الخلود إلى الراحة وهو موسم قطف ثمار الملك والتنعم بما " تنزع طباع البشر إليه، من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت ، فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج، وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل، وبث المعروف في أهله.."[114] إلى سائر مظاهر العظمة من تشييد العمران وتقوية الجيش زينة للدولة و إرهابا للعدوّ، وهذا الطور عند ابن خلدون هو طور نهاية الاستبداد لاستتباب الأمر في أيدي أصحاب الدولة واستمتاع سائر أهل المملكة بأرزاقهم و زيادة أعطياتهم.

المرحلة الرابعة:

مرحلة التقليد وفيها يقنع الخلف بما وطّد له من الملك من أسلافه ، فيجنح إلى المسالمة والمهادنة لنظرائه من الملوك، ولا يزيد في ملكه، بل أخرجته عوائد الترف إلى الجمود عن السير على نهج سلفه، وبما أن التقليد جهل وانتحار لأنه إعراض عن النظر

[113]– ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2005، ص184.

[114]– المرجع نفسه، ص184.

في بواعث التقدم و غفلة عن عوامل الانحطاط ، كان ذلك عند ابن خلدون بداية النهاية للدولة.

المرحلة الأخيرة:

الانصراف إلى التبذير والإسراف في النفقات، وإتلاف الأموال العظيمة التي كدّ الأولون في جمعها في الشهوات، واستئثار الحاشية السلطانية بالخيرات، وإسناد الأمر لغير أهله، وإبعاد أهل الصّلاح من مشورته، واتّخاذ بطانة السّوء التي تزيّن له تخريب ما شاده سلفه " وفي هذا الطّور تحصل في الدّولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برء، إلى أن تنقرض .. والله خير الوارثين"[115] فيكون انهيارها اقتصاديا بسبب الإسراف الذي ذكرناه، و سياسيا بسبب انهيار العصبية،وهكذا تكون الدولة قد استكملت دورتها وآذنت بفجر جديد لدولة أخرى، "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا " [116] .

ويحدث هذا الانحلال للحضارة عند **توينبي** عندما تبدأ الجماهير تفقد ثقتها تدريجيا في الفئة الحاكمة ، وبتعبير توينبي الأقلية المبدعة التي تحولت إلى أقلية مسيطرة ، فينتج عن ذلك انحلال الرابطة الاجتماعية وحدوث الانشقاق في جسم الدولة، فيتشكل المجتمع على النحو الآتي :

" 1-أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الإبداع وأصبحت تحكم بالقهر

2-بروليتاريا داخلية ذليلة ولكنها عنيدة تتحين الفرصة للثورة

[115]-ابن خلدون، المقدمة، ص185.

[116]- الأحزاب، الآية 62.

3- بروليتاريا خارجية انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتتحين الفرص للغزو ويمضي التّحلل قدما حتى تصل الدولة إلى مرحلة تفككها النهائي."[117]

وإذا كان **ابن خلدون** قد وصل إلى استنتاجاته بعد دراسة مستفيضة للحضارات القائمة في عصره مثل الفارسية و البيزنطية وغيرها فقد أقام الدليل على اعتبار الحضارة وحدة للدراسة التاريخية، وهنا نلاحظ أن **توينبي** يلتقي **بابن خلدون** في المبدأ الرئيسي لوحدة الدراسة التاريخية، ففي الجزء الأول من كتابه دراسة للتاريخ يصل كما يقول **توينبي** إلى الاستنتاجات التالية " إنّ حقول الدّراسة التّاريخية والتي وضعنا حدودها تقريبا بأعمال المظاهر الخارجيّة والاتّجاهات العكسية من وجهة نظر وطننا في وقتنا الحاضر، هي المجتمعات التي لها امتداد أوسع في كل من المكان والزمان؛ من الدول القومية أو الدول الدينية، أو أي مجتمعات سياسية أخرى "[118] ، ويعني بالاتجاهات العكسية ما يسميه بالاستكفاء التاريخي أو اللمحة العكسية التي طبقها على مجرى التاريخ الإنجليزي ليصل إلى أن ميدان الدراسة القابل للفهم بذاته، هو يقينا مجتمع يضم عددا من المجتمعات أو الدول القومية.

وبهذا اعتبر ابن خلدون من الأوائل الذين بحثوا عن منطق في التاريخ، بعيدا عن مجرد السرد للوقائع التاريخية، وكان يمكن أن يكون أول من يصوغ قانون التعاقب الدوري برأي مالك بن نبي " لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معيّن من نتاج الحضارة ونعني به –الدولة–وليس عند الحضارة نفسها، وهكذا لم نجد عند ابن خلدون غير نظرية عن تطوّر الدّولة، في حين أنه كان من الأجدى لو أنّ نظريته رسمت لنا تطور الحضارة حيث كنا نستطيع أن نجد فيها ثروة من نوع آخر غير ذاك الذي أثرانا به فعلا، إذ لم تكن عبقرية ابن خلدون بعاجزة عن أن ترسم لنا ذلك التطور في صورة منهج

[117]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص 273 .

[118] -Arnorld Toynbee, A study of History, vol 1, Oxford University Press, 1956, p45 .

قائم بذاته."[119] ، ويمكن أن نشير إلى أن مفهوم الحضارة عند ابن خلدون هو ما أسيئ ربما فهمه من قبل بعض الدارسين باختزاله في مظاهر الترف والعمران، إذ لا تحقق في الواقع شيئا ذو قيمة زيادة على إنتاج مجتمعات استهلاكية تعيش عالة على غيرها من الأمم المنتجة، بل سرعان ما يكتشف زيف تلك الحضارة المرصعة بالأضواء والمطارات والواجهات الملونة في أول تحدي يعرض لها.

3-3 توينبي واشبنغلر

كان القرن التّاسع عشر قرن الأنوار بامتياز ولقد رأينا مع **فولتير** و **كوندورسيه** ذلك التّفاؤل والحديث بتوقّد عن المستقبل وعن قيم الحرية والإخاء والمساواة، بعد أن تحررت البشرية و انعقت من أغلال الفكر اللاهوتي الذي كبلها لقرون عدة، وبدا أن العالم بعد اعتناقه فكرة التقدم القائمة على تقديس العقل قادر على طرد أشباح عصور الظلام وجعلها تختفي إلى الأبد.

لكن أحداث القرن العشرين جعلت تلك الأحلام وذلك الفردوس الذي تحدث عنه فولتير في رسائله يتبدد، فقد عرف العالم حربا كونية كانت صادمة للعقل الغربي الذي كان قد اطمأنّ إلى انتصاراته فضلا عن الدّمار والملايين من الضّحايا التي خلّفتها، وبات الفلاسفة والمؤرّخون على يقين أنّ شمس عصر التّنوير قد غربت وأفكاره الفلسفية عن الحضارة الغربية ومركزيّتها والاطمئنان إلى المستقبل الذي كانت تبشّر به لم تعد مقبولة فضلا عن فاعليّتها في التّاريخ.

سادت أفكار بديلة تشاؤمية إلى حد كبير حول المستقبل الإنساني بعد الحرب، ومؤكدة على حتمية أفول الحضارة الغربية و" أصبح الاعتقاد بأنّ الاضمحلالDecline لا رجعة فيه وأن السقوط صار وشيكا، وانشغل المثقفون في القرن العشرين بظاهرة

[119]–بن نبي مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص62.

الاضمحلال والتفكك، ومثلما أشار هانز كون Hanz Khon فإن الأزمة كانت شاملة لأنها تتضمن أسس الغرب الثقافية، ونظرته الروحية ونظامه الاجتماعي وأشكاله السياسية، وبناءه الاقتصادي وهو ما يعرض للخطر بفناء هذه الحضارة، التي بدت آمنة في القرن التاسع عشر."[120]، ويكفي الاستدلال بجنوح البشرية نحو التدمير الشامل لنفسها من خلال ما شهدته مستقبلا من سباق محموم نحو التسلح.

أزفالد شبنغلر Oswald Speingler(1880-1936)

بداية يرى **شبنغلر** أنّ الحضارة هي وحدة الدراسة التاريخية و" أنّ كلّ حضارة من الحضارات هي كلّ متكامل غير قابل للتّجزئة، وظاهرة أوّلية متفرّدة وذلك لأنّ لكلّ حضارة نفسا أولية واحدة، وتعبر برموزها عن نوازعها وطاقاتها، وأن تلك تنطلق عنها النفس وهذه الظاهرة ، وهذا الرمز هي التي تسيطر وتوجه جميع نتاج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان"[121].

كما تعتبر مقولة المصير الأساس الذي تدور حوله كتابات **شبنغلر** في التاريخ، ويراها بديلة عن مقولة العلية التي تفيد الضرورة وتلحق التاريخ بالعلوم الطبيعية.

والمصير الذي يقصده شبنغلر لا يعني الجبر " أو بالأحرى قوة خارجية تحدّد سلوك الإنسان، وإنما المصير شعور الإنسان بذاته إزاء قوة إنسانية أخرى تتحداه وتجعل وجوده في خطر، حينئذ تنبثق الطاقات الكامنة فيه من أجل تأكيد الوجود ...حينئذ تكشف الروح عن جزعها إزاء ما يهدد شخصيتها، جزع مصدره الجهل بالمصير لأن أخص خصائص الزمان استحالة الإعادة، وما يستحيل عوده يولد في النفس الجزع " [122] .

---

[120]- شلبي السيد أمين، نظرات في أرنولد توينبي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2000، ص40 .

[121]- شبنغلر أوزفالد، تدهور الحضارة الغربية ، تر أحمد الشيباني ، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت، ص07.

[122]- صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص244 .

وينطلق في كتابه تدهور الحضارة الغربية من نقده للأشكال التعبيرية للتاريخ العالمي ويراها محدودة العدد وغير مقبولة من الشكل الخارجي، لأنها تعالج الحوادث بطريقة سطحية ولا تفيدنا في معرفة جوهرها " إن معالجة التاريخ مثل هذه المعالجة الذرائعية Pragmatic ليست سوى جزء من العلوم الطبيعية داء تتكري، أضف إلى ذلك أن مناصري المذهب التاريخي المادي لا يحيطون من جانبهم هذه الحقيقة بالسرية، لكن معارضيهم هم الذين لا يستطيعون أن يروا التشابه بين المنهاجين"[123] ، وهي دعوى صريحة في أن مناهج العلوم الطبيعية لا تفيدنا في معرفة حكمة التاريخ في الوقائع والأحداث ولا تناسب البحث التاريخي.

كما انتقد تقسيم الأوربيين العصور التاريخية إلى قديم ووسيط وحديث في محاولة يائسة لتوكيد مركزية الحضارة الغربية " وهذا التقسيم هو منهاج تافه سقيم غير ذي معنى إلى حد لا يصدقه العقل ، لكنه منهاج سيطر على تفكيرنا التاريخي سيطرة مطلقة ، أقول بفضل تقسيمنا هذا فشلنا في إدراك المركز الحقيقي للجنس البشري في التاريخ العام، وللعالم الجزئي الصغير الذي نما وتطور على تربة أوربا الغربية منذ عهد الإمبراطورية الألمانية الرومانية، كما وفشلنا في الحكم على أهميته النسبية وفوق كل ذلك فشلنا في تقدير اتجاهه"[124] ، إذ لا يجعل منهاج كهذا الحضارات العريقة تحتل أماكنها اللائقة بها ويلغي تلك الآلاف من السنين لهذه الحضارات أمام حضارة غربية فتية لا يتعدى تاريخها بضعة قرون.

شبنغلر والتعاقب الدوري للحضارات:

يربط شبنغلر التحولات الحضارية بالتغيرات التي تطرأ على المجتمعات، فهو لا يرى اختصاص عرق بالحضارة دون غيره، فعند رؤيتنا للتاريخ ندرك أنه ليس سوى

[123]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، تر أحمد الشيباني، مرجع سابق، ص45.

[124]– المرجع نفسه، ص60.

حضارات حيث تستجيب كل حضارة بمجرد نشأتها لدورة بيولوجية مثل الكائنات الحية ، كما أن هذا التعاقب الدوري للحضارات، مبني على الخصوصية الثقافية لكل مجتمع، ويما أنه لكل مجتمع ثقافته فلكل مجتمع حضارته، و يخضع لتحولات تابعة لنمطه الثقافي المتفرد في الشكل والجوهر.

" سلاسل من مراحل يتوجب علينا أن نعبرها، وأن نعبرها بالإضافة إلى ذلك في سياق تاريخي لحمته النظام وسداه الإرغام؛ فكل شيء منظم، كإدراك الولادة والموت والشباب، والسن والعمر، جميع هذه أشياء أساسية، أفلا يجوز القول أن هذه الإدراكات في هذا الحقل أيضا تملك مفهوما صارما عنيفا لم يستطع أحد حتى الآن استخلاصه؟"[125]

وبناء على ما سبق فلكل حضارة دورة مقفلة كدورة الحياة، تبدأ بالميلاد ثم يعقبها فتوة ثم هرم وشيخوخة، فلا مجال للقول بالأصول الأجنبية لمظاهر الحضارة، فذلك وهم راجع إلى وهم عالمية الحضارة، وإلى اختلاق التاريخ الواحد، والذي يراه شبنغلر ضيقا و من غير الممكن الحفاظ عليه، إلا إذا أغمض المؤرخ عينيه عن مجموعة من الحقائق. ويفصل القول في توهم الحضارة الوحيدة المسيطرة بدراما أو فسيفساء من حضارات متعددة وجبارة تفيض" كل حضارة منها بقوة بدائية من تربة الإقليم الأم حيث تبقى مشدودة إليه برسوخ وثبات طيلة دورة حياتها، وتطبع كل واحدة منها مادتها و جنسها البشري وصورتها الخاصة بطابعها، ولكل واحدة من هذه الحضارات فكرتها و عواطفها وانفعالاتها الخاصة وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها، وهنا يوجد حقا ألوان وأضواء وحركات لم تكتشفها أية عين فكرية بعد، وهنا تزدهر الحضارات ..وتهرم وتشيخ، شأنها في ذلك شأن أشجار البلوط.."[126]، ونلاحظ أن شبنغلر ينأى بالشعوب التي صنعت تلك الحضارات عن مثل ذاك المصير حين يرى أنه لا يوجد جنس بشري يهرم ويشيخ.

---

[125]- اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، تر أحمد الشيباني، ج1، مرجع سابق ، ص40.

[126]– المرجع نفسه، ص69.

يستعرض شبنغلر تلك الرؤى التاريخية التي لم تخرج عما أسماه بالفهم السقيم والأفق الضيق للتفكير وإهمال أهمية المفاهيم ومجالات الإدراك لصفحة الكون الواسعة، والتي لم تمتد إليها أذهان الغربيين المحصورة في دائرة مغلقة؛ ولا يستعرض للدلالة على مقولته شخصيات مغمورة، بل يدعونا معه للتفحص في أفضل آثار الفلاسفة والمفكرين الغربيين، فهذا أفلاطون في معرض حديثه عن الإنسانية إنّما عنى بها الهلينيين في تباينهم مع البرابرة، إلى أرسطو طاليس وصولا إلى بيكون و كانط و نيتشه وأفكارهم التي تفتقر إلى الطابع النسبي للمعرفة التاريخية التي تفترض أن اقتناع كل واحد من هؤلاء بصحة الحقائق والنتائج التي توصل إليها هي صحيحة بالنسبة إليه وفقط.

"وهل مجال فكر شوبنهور وكومت و فيورباخ و هيغل أو سترندبرغ أرحب وأوسع؟ أليست سيكولوجيتهم بكل ما لها من مقاصد وعزم على أن تكون ذات صحة عالمية هي سيكولوجية ذات مغزى أوربي محض؟... والواجب أن يتطلع إلى ما وراء هذه الحقائق والنظرات ليعرف ما الذي ولده أهالي الحضارات الأخرى بقناعة تعادل قناعته من داخل ذواتهم. هذا وحده وليس أي شيء آخر هو الذي سيبلغ بفلسفة المستقبل ذروة الكمال"[127]

ويمكن أن ندرج ضمن هذا التفكير الضيق الأفق توهّم المؤرخين والفلاسفة الغربيين لعب الحضارة الإسلامية دور الوسيط بين الحضارتين اليونانية والغربية الحديثة، بل يرى بعض المفكرين سفاهة بعض الآراء التي يكاد أن يجمع عليها كثير من المؤرخين وفلاسسفة الحضارة مثل الرأي القائل بأن الحضارة الغربية تدين للحضارة اليونانية الرومانية والديانة المسيحية.

مثل هذا الآراء يراها شبنغلر برأيه " نظرة سطحية برانية إلى مسار التاريخ لأن انتقال مظهر من مظاهر حضارة ما يقتضي عملية معقدة من التحويل ممثلة في هضم الحضارة

[127]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، تر أحمد الشيباني، ج1، مرجع سابق، ص، ص 72،73.

وتمثيلها، فلا شيء اسمه تأثير حضارة في أخرى على نحو يفيد أن الثانية قد نقلت تراث الأولى "[128]. فلكل حضارة خصوصيتها وطابعها الفكري والثقافي الذي يميزها، ولئن انفردت كل حضارة بخصائصها التكوينية كما رأينا مع شبنغلر، فإن ذلك لا يمنع تشاركها في الأطوار التي تمر بها والشبيهة بمراحل الكائن الحي من ولادة وفتوة وشيخوخة تنتهي بالفناء، مع اختلاف روح كل حضارة عم الأخرى.

ويمكن أن نلمس هذا التباين في روح كل حضارة وتميزها به عن الحضارات الأخرى في الفن، إذ تعبر به عن استقلالها الروحي فالنحت والتصوير اليوناني تعبير عن نزعة مادية، والزخرفة الإسلامية تعبير عن مفارقتها ونزوع إلى التجريد.

ميلاد الحضارة:

في رأي شبنغلر لا بد من وجود ما يستثير تلك الروح الكامنة في الحضارة عند بدء أمرها، عند شعورها بما يولد في نفسيتها الجزع والخوف على المصير، تلك الظروف تهيؤها العوامل الخارجية التي تنبثق وتأذن بميلاد حضارة جديدة بروح خلاقة تزخر بإمكانات خصبة، في ظل بيئة تسودها الفوضى لتفرض إرادتها بالقوة وتطبع الإنسانية بطابعها، وتسري تلك الروح في جميع نظمها من تشريع وسياسة وعقائد ..الخ.

أما الروح فيصرّح شبنغلر أن الدين هو مصدرها ولا تخلو أي حضارة فيما نعلم من فكرة دينية وسمت الحضارة بوسم أخلاقي وروحي.

نفس الشيء إذا قلنا الإصلاحات الدينية التي تظهر في آخر السلسلة العقدية " ونحن نعلم اليوم بأن لوثر كاد أن يصبح في عهد شارل الخامس المصلح لكامل الكنيسة غير المنقسمة، وذلك لأن لوثر ككل المصلحين في جميع الحضارات، لم يكن الحلقة

[128]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص246.

الأولى بل الأخيرة من سلسلة تعاقب عظيم ابتدأ بالزهاد الذين عرفتهم البراري وانتهى بكاهن المدينة"[129].

هاهنا يلتقي كل من **توينبي** و**شبنغلر**، إذ يعتبر توينبي الدين مبدأ كل حضارة، كما اعتبر حركة التاريخ سلسلة من الين واليانج أو التحدي والاستجابة. واطلعنا على تقسيمه تلك التحديات إلى بيئية وبشرية وأن " الظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستثير في الأمم قيام الحضارات، فالتحدي إذن هو نقطة التحول الروحي، وانتقال التحدي الخارجي إلى انفعال داخلي، أي الإحساس بالمشكلة وانتقالها من مجال المادة إلى مجال الروح التي هي جديرة بتقرير مصيرها من خلال رفض ما هو قائم في العالم الخارجي والعمل على تذليله وفق متطلبات هذه الروح"[130]، ونلاحظ هاهنا اشتراط التحول الروحي في أي مسيرة حضارية لمجتمع من المجتمعات.

ارتقاء **الحضارة (الازدهار)**:

ويسميه شبنغلر الإبداع العقلاني الذي لا يتأتى للحضارة في بداية نشأتها بل يأتي بعد الإصلاح الديني، ويمثله عصر النهضة، فالعلم الحر هو أكثر إنجازات تلك الحركة روعة ونموذجية، ومهما اختلفت الإصلاحات الدينية لشتى الحضارات فإن القصد منها عند شبنغلر واحد، إعادة الإنسان إلى الوعي بالزمان، إلى ميدان الطبيعة، إلى الشعور الواعي النقي بمبدأ السببية لتدخله عالم العلم، وتخرجه "من الطموح السياسي لأبناء الأرومة من ذوي الحلل الرسمية من رجال كهنوت و دولة إلى السببية المقدسة التي لا تنتمي إلى هذا العالم..ومن ثم انتشرت فوق جبال الألب وبلغت بلاطات الشمال لا بوصفها نظرة جديدة إلى العالم، بل بوصفها ذوقا جديدا . فعصر النهضة الشمالي للمدن

[129]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، تر أحمد الشيباني، ج2، مرجع سابق، ص432.

[130]– عبد الكريم النجم زياد، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2010، ص61.

والعواصم التجارية تجلى فقط في الواقعة الماثلة بحلول المجتمع الراقي للنبلاء الإيطاليين محل الفروسية الفرنسية"[131].

تدهور الحضارة:

يستخدم شبنغلر مصطلح المدنية للتعبير عن الشوط الأخير الذي تقطعه الحضارة الغربية، والتي بنظره اجتازت مرحلة الخلق والإبداع، والمجتمع الغربي في طور التدهور لا يعاني ولا يحتوي على أقل من مشكلة المدنية، وهو يشير إلى أن استخدام لفظي الحضارة والمدنية يردان عنده للتعبير عن التعاقب الدوري والتتال الضروري الحازم والمحتوم " إن المدنية هي المصير المحتوم للحضارة..هي أضحل الأوضاع سطحية، وأبعدها عن الطبيعة أصالة..هي نتائج الشيء 'يصير'..إنها الموت يتبع الحياة، إنها الصلابة تعقب المرونة..إن المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع أن تقف أمام تحققها إرادة أو عقل، ومع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى مدفوعة بضرورة باطنية"[132].

وهذه الضرورة الباطنية لا تعدو أن تكون تعبيرا عن الخاتمة التي هي الشيخوخة التي يعقبها الفناء بعد الاكتمال الحضاري، والتي بدأت طلائعه تتضح مع الانحطاط الذي شهده شبنغلر في الحرب العالمية الأولى، ولا يخفي في ثنايا سفره الخالد 'تدهور الحضارة الغربية' تشاؤمه بمستقبل الحضارة الغربية.

أما مسألة تعاصر الحضارات فأهم ما يلفت انتباه الدارس لشبنغلر حصره لذلك التلاقي في ثلاث حالات؛ حالة تساوي الحضارتين في القوة والنفوذ وقد رأيناها في المثال الذي سقناه عن الحضارة الهلينية والإسلامية في التعبير عن خصائص كل من

[131]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ج2، مرجع سابق، ص ص، 433،434.

[132]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ج1، مرجع سابق، ص87.

الحضارتين إحداهما عن الأخرى في تميزها الروحي واستقلالها الشخصي من خلال الفن، والحالة الثانية متمثلة في انقسامهما إلى حضارة غالبة وأخرى مغلوبة.

وفي مثل هذه الحالة تفرض الغالبة طابعها وتتلون المغلوبة ظاهريا فقط بطابع الحضارة الغالبة، لكن روحها تبقى كامنة خلف القشرة الظاهرية التي فرضتها عليها الحضارة الغالبة، كشأن الحضارة الهلينية مع الحضارات الشرقية، فبعد أن فرض الإسكندر الطابع الهليني على مصر وجنوب آسيا انتحلت الأخيرة " أوجه النشاط الفكري والثقافي في هذه المنطقة صورة هيلينية لمدة تقرب من ألف سنة، ولكن ظلت الحضارة الهيلينية قشرة خداعة تحجب الحقيقة الجوهرية...ويسمي شبنجلر تلك الحالة التي تضطر فيها حضارة عريقة إلى الخضوع والتلاؤم الظاهري مع حضارة مسيطرة بالتشكل الكاذب للحضارة pseudo-morphosis "[133] .

أما الحالة الثالثة فحين تلتقي حضارة أعظم قوة وخصوبة بحضارة لا تزال في المهد ضعيفة فتختنق الأخيرة ويسري إليها الفناء كحال الحضارتين المكسيكية وحضارة الهنود الحمر بأمريكا، فقد قضت عليهما الحضارة الغربية الحديثة.

ويتفق كل من شبنغلر وتوينبي حول هذه الفكرة، ففي مسألة التعاصر يوجد ركن أساسي في التعرف على مسار التاريخ ومغزاه، و يمكننا التنبؤ بشكل دقيق بالمستقبل والأطوار التي مرت بها الحضارات عموما، و الحضارة الغربية خصوصا " ويلتقي توينبي مع شبنغلر حول مسألة المعاصرة بين الحضارات قديمها وحديثها ويقول توينبي حول هذه الفكرة ما يلي: أما من وجهة النظر الفلسفية فإننا نجد الحضارات جميعا كانت وما تزال وسوف تظل معاصرة الواحدة مع الأخرى فهي جميعا بنت تربة واحدة وهي جميعا ترتد إلى أصل واحد ..وما الفرق في الأعمار بين الواحدة والأخرى غير فروق صورية تتناهى

[133]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص255.

في هذا الصغر، بما يتضح عند مقارنتها بالعهد الطويل الذي عاشت خلاله العائلة الإنسانية قبل مولد مدينة ما.. " [134].

ويمكن أن نجد استخدام توينبي لمصطلح الدولة العالمية في طور الانهيار يرد عند شبنغلر تقريبا بنفس المعنى بمصطلح المدينة العالمية.

ودليلنا على هذا اشتراك المصطلحين في تأدية نفس المعنى من اختلاط الشعوب التي لم تنبت من تربة واحدة وتودي بالحضارة إلى نهايتها، ولنعقد مقارنة بسيطة بين مقولتين يمكن أن تغنيا عن كثير من القول، فعند توينبي جزء من قوام تلك الدولة العالمية هي البروليتاريا الخارجية التي تقيم خارج الحد الحضاري والتي أخضعتها بطريق القوة والعنف تحت سلطانها،" هذه الشظايا عناصر دخيلة تناثرت عن حضارات أخرى تعاصر الحضارات التي انهارت ثم تحللت. فكان أن توفرت لها حرية الامتزاج بها اجتماعيا و ثقافيا "[135]، وهم عند شبنغلر " السكان الطفيليون معدومو التقاليد، مغرقون في الواقعية ، لا دينيون ، أذكياء عقيمون ، يكنون احتقارا عميقا لابن الريف وخاصة.. وهذا يشكل خطوة واسعة نحو ' اللاأساسي 'Inorganic أي نحو النهاية "[136] .

إذا كانت هذه الرؤى التي سبقت توينبي حول الحضارة قد أثرت فيه بشكل أو بآخر فلا ريب أننا سنجد ثناياها مبثوثة في نظريته التي سيكون الفصل الآتي مجالا للبحث والنظر فيها، فكيف يا ترى تناول توينبي النظريات المفسرة للتاريخ وللحضارة ؟ وماهي آراؤه التي سجلها اعتراضا على بعض النظريات حول كيفية نشأة الحضارة ؟ وما هي رؤيته حول العوامل التي تسهم في قيام حضارة دون اشتراط بيئة أو عرق بعينه ؟ إلى غيرها من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها في الفصل الآتي.

---

[134]– عبد الكريم النجم زياد، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، مرجع سابق، ص60.

[135]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص04.

[136]– اسوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية،ج2، مرجع سابق، ص89.

الفصل الثاني

الحضارة عند

توينبي

الفصل الثاني:

نظرية الحضارة عند أرنولد توينبي

المبحث الأول

انتقادات توينبي لنظريات نشأة الحضارة

نظرية العرق

نظرية البيئة

المبحث الثاني

ميلاد الحضارة

نظرية التحدي والاستجابة

المبحث الثالث:

نمو الحضارة وارتقاؤها

الحضارات المتعطلة

نمو و طبيعة الارتقاء الحضاري

الارتقاء صوب تقرير المصير

لا شك أن المجتمعات التي وفدت إلى مسرح التاريخ أو بعبارة أخرى إلى طريق الحضارة استمرار لتلك المجتمعات البدائية التي تنتسب إليها، والقول بأن للحضارات أو المجتمعات التي تعرف أو عرفت أطوار الحضارة وجودا وشخصية مستقلة عن سابقاتها قد يحمل في طياته صنوفا من المغالاة والبعد عن الحقيقة، فلم و كيف وثبت إلى التاريخ هذه الحضارات ونالت من اهتمام الباحثين كل ذلك القدر من التقدير والاهتمام؟ في حين لفّ الظلام والنسيان تلك العصور المتقدمة من إنسان الكهوف والمغارات؟ ونحن نرى في هذا العصر المتقدم جدا كيف توظّف تقنيات المسح الجيولوجي في وادي الملوك بطيبة في مصر أو حضارة المايا في أمريكا اللاتينية ، في الوقت نفسه الذي أصبح التقاط الصور الفوتوغرافية لرسوم الإنسان الأول ونقوشه الصخرية ضرورة لازمة لحفظ تراث الإنسان الأول والذي جعل من الصّخر رسائل إلى الجيل التالي من البشرية قبل أن يعفو عليها تغير الزمان، فهل لهذا علاقة بتاريخ اكتشاف الكتابة والزراعة؟ و هل يمكن اعتبار الأخيرتين وجودا منفصلا عن الكتابة الصخرية وإبداعا ليس للإنسان الأول أيّ دور فيه؟ إذا كان الأمر كذلك فليس هناك بأس في جعل العصور التاريخية تبدأ من تاريخ اكتشاف الكتابة والخروج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة، أمّا إذا كان العكس وهو الصّحيح في نظرنا فلم يكن الإنسان الذي حمل مشعل الحضارة ليصل إلى ما وصل إليه لولا أنّ الأجيال التي سبقته هيّأت له سلّم الارتقاء الحضاري إلى نقطة انطلق منها صعودا نحو قمّة الحضارة، تلك الأسئلة وغيرها هي نقطة البدء في محاولة **توينبي** إماطة اللّثام عن العلاقة الوثيقة بين تلك المجتمعات البائدة والحضارات التي عرفتها البشريّة والوصول بالقارئ إلى إقامة فارق دقيق بينهما يكون معلما بارزا من خلال الإجابة عن سؤال جوهري: كيف تنشأ الحضارة ؟ وهو ما سنراه في التحليل الذي سنقدمه في هذا المبحث.

المبحث الأول

انتقادات توينبي لنظريات نشأة الحضارة:

المجتمعات البدائية و الحضارات:

ينطلق توينبي عند تعرّضه لهذا الإشكال في جعل الحضارات أو المجتمعات التي تسير في أطوار الحضارة وهي واحد وعشرون حضارة تنقسم إلى مجموعتين :

" المجموعة الأولى: تشمل خمسة عشر مجتمعا تنتسب إلى مجتمعات سالفة من نفس النوع، و يتصل عدد قليل منها بسابقتها اتصالا وثيقا، بحيث تصبح المناقشة في مسألة توافر شخصية منفصلة لها، موضع نظر.

وتتضمن المجموعة في الطرف الآخر منها؛ بعض مجتمعات اتصالها بسابقاتها ضعيف إلى حد أن القول بانتسابها إليها، يحمل بين طيّاته الكثير من المغالاة." [137]

أما المجموعة الثانية فما تبقّى وهي ستّ مجتمعات تختلف عن الأولى من حيث أنّها لا تنتسب مثلها إلى مجتمعات من نفس النّوع، بل ترتد إلى المجتمعات البدائية مباشرة، وهي المصرية–السومرية–المينووية–الصينية–المايانية–الاندیانية، وانطلاقا منها يحاول **توينبي** بحث الفارق الأساسي بين المجتمعات البدائية والحضارات أو المجتمعات التي عرفت أطوار الحضارة.

وينفي بادئ الأمر أن تكون النظم الاجتماعية أساس الفارق بينهما " فما النظم إلا ناقلات العلاقات غير الشخصية بين الأفراد وهي التي تعيش فيها جميع المجتمعات، ذلك لأن المجتمعات البدائية –حتى أصغرها– تقوم على أساس أوسع من الحلقة الضيقة التي تضم الصلات المباشرة لفرد ما. و النظم هي صفات جنس المجتمعات كافة، والأخرى

[137]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، مصدر سابق ، ص81 .

فإنها خواص مشتركة لنوعي هذا الجنس (أي المجتمعات البدائية والحضارات) كليهما."[138] بل يرى **ديورانت** أن استعمال الألفاظ من نحو بدائي وهمجي بعيدة كل البعد عن الالتزام العلمي، لأننا حين نطلق مثل هذه الألفاظ نجدها لا تعبّر عن حقيقة موضوعية، بقدر ما نعبر بها عن إعجابنا بأنفسنا وحبنا العارم لها، فإن ذلك الهمجي أو البدائي " هو أيضا متمدن بمعنى هام من معاني المدنية، لأنه يعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه – وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية، التي هذّبتها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة"[139] ولئن كنا نعيش يوميا في دائرة هذه النظم وعلى أساسها فقد عرفت المجتمعات البدائية نظمها أيضا ، فقد كانت لديها عقائد وشعائر فيما يتعلق بالزواج ومراسم الانضمام إلى الطوائف والجماعات، إضافة إلى عقيدة الطوطمية ونظام الفصل بين الذكور والإناث عند بلوغهم سنا معينة في المضاجع، " ويقينا أن بعض هذه النظم من دقة إحكام الصنعة والحذق ، حتى لتبلغ مبلغ النظم التي تختص بها الحضارات، ولا تتميّز الحضارات عن المجتمعات البدائية كذلك بتقسيم العمل ، فإنّ في مكنتنا أن نعاين –على الأقلّ– مبادئ تقسيم العمل في حياة المجتمعات البدائية أيضا" [140] .

وبنظر **توينبي** فإن وجد اختلاف فهو يتبدّى في الاتجاه الذي يتخذه التقليد في النّظام الاجتماعي لكلا المجتمعين وأثره في الحياة الاجتماعية؛ حيث نجده في المجتمعات البدائية يعمل في اتجاه الماضي فنجد المجتمع يولي وجهه شطر الأموات أو الأسلاف، جاعلا من استشعار وجودهم قوّة تعزّز نفوذهم و تسم المجتمع بسمة تجعل من الأعراف

---

[138]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، مصدر سابق، ص 82.

[139] – ديورانت ول، قصة الحضارة، تر زكي نجيب محمود، ج1، ، دار الجيل للطبع النشر والتوزيع ، بيروت– لبنان ، دط ، دت، ص9.

[140]– توينبي أرنولد، نفس المرجع والصفحة.

و العادات تتحكّم بالنظام الاجتماعي وتسيطر عليه، أما في المجتمعات المتحضرة فالتقليد يوجّه اتّجاه " الشخصيات المبدعة الذين يلزمون الناس باتباعهم، لأنهم من الطلائع ، ومن ثم ..يصبح المجتمع في حركة دافعة في طريق التغير و السمو"[141].

ويرجع الاعتقاد بوجود اختلاف دائم و أساسي بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة إلى اعتمادنا على الملاحظة المباشرة في البحث عن خصائص لكل منهما وتحديدها تاريخيا، ولئن استطعنا بملاحظة بسيطة تحديد المراحل التاريخية للمجتمعات المتحضرة إلى قديم و وسيط وحديث، وما عرفته البشرية من تغيرات وتحديات وكشوفات فإن نفس الملاحظة تنبئنا أنه من المستحيل أن المجتمعات البدائية كانت في حالة ثابتة ولم تعرف طوال ثلاثمئة ألف سنة وهو تاريخ وجود الإنسان على هذه الأرض حركة دافعة إلى الأمام ولم تجابهها أي مخاطر أو تحديات، بل على الأرجح وربما قطعت البشرية خلال تلك الفترات والعصور مالم يقطعه أي مجتمع متمدن حتى الآن وخلال السبعة ألاف عام الأخيرة من تاريخ الحضارة.

وربّما أو بعبارة **ديورانت** ومن يدري أن تلك المجتمعات " لم تترك لنا شيئا لنضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقوّمات لو استثنينا فنّ الكتابة، ومن يدري فلعلّهم كانوا يوما متحضّرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوا فيها من شقاء النفس"[142].

يضرب توينبي في تدليله على تلك الأشواط التي قطعتها تلك المجتمعات البدائية مثلا غاية في الروعة، إنه مشهد مسرحي من مسرح الحياة حيث يقف الرائي يرقب أناسا خاملين على سلسلة من الصخور، تحتهم هوّة وفوقهم أخرى (المجتمعات البدائية) وفيما استسلم هؤلاء لرقود طويل قرّر جماعة منهم المضي قدما في تسلق الجبل (الحضارات). لكن إصدار الحكم على الفريق الأول بالشلل والخمول أليس فيه نوع من الإجحاف بحقهم

---

[141]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، ص83.

[142]– ديورانت ول، قصة الحضارة، تر زكي نجيب محمود، ج1، مرجع سابق، ص9.

؟ أم تراهم ولدوا على تلك الصخور؟ بالطبع لا، فلا يعقل أن يكونوا قد ارتفعوا إلى المكان الذي يقفون فيه سوى بجهدهم ودون أن تكون هناك قوة خارجة عن جهد عضلاتهم و بالنسبة لتاريخ وجود الإنسان "فإن رفاقهم الصاعدين في هذه اللحظة لم يغادروا تلك الصخور نفسها إلا في التوّ؛ شارعين في تسلق الصخور العليا...كل ما نعلمه استحالة التوقف و الاستراحة قبل بلوغ الصخور التالية أينما كانت ..على أن في مكنتنا التأكد من أن بعضهم لن يبلغوها أبدا، وفي وسعنا أن نلاحظ أن مقابل كل فرد يحاول أن يتسلّق الآن في عزم، ثمّة ضعف هذا العدد(أي حضارتنا البائدة)قد سقط مرتدّا منهزما إلى الصّخور الأولى"[143].

ويعبّر جورج حنا على عدم يقينية الدراسات المتعلقة بتاريخ المجتمعات البدائية وبالإنسان ذاته بالمعلومات التي تتكشف عنها يوميا حقول العلوم المتعلقة بالآثار والأنثروبولوجيا والتي تثبت يوما بعد آخر أن " تاريخ الإنسان خزانة مليئة بالأسرار، المكدّس بعضها فوق بعض، فكلّما نبشتها وجدت فيها شيئا جديدا لم تجده في المرة التي سبقتها، ويزودك هذا الشيء بزاد جديد في سفرتك مع الإنسان، ويفتح لك أفقا جديدا لاستكشاف حقيقته وأسراره، ومعرفة مدى تطوّره وتقدمه "[144].

يصل توينبي إلى استحالة إقامة حدّ فاصل بين المجتمعين، لكن يكون بالوقت نفسه قد اهتدى إلى أنّ بداية الحضارات كان تحوّلا من حالة الخمول إلى الحركة، إنه قانون كوني بالنسبة إلى انبعاث كلّ حضارة عرفناها إلى اليوم، و يتساءل عن العامل الإيجابي الذي قاد البشرية إلى الحركة مرة أخرى، مستعرضا بداية نظريتين يراهما ينتهيان إلى طريق مسدود .

[143]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، مصدر سابق ، ص85.

[144]– حنا جورج، قصة الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1989، ص5 .

نظرية العرق (الجنس):

قبل الحديث عن هذه النظرية لا بد من تحديد المصطلح؛ ماذا نعني بالعرق أو الجنس في الدراسات التاريخية والفلسفية، وما علاقته بنشأة الحضارة؟ ويتساءل توينبي هل في استطاعتنا أن ننسب الحضارة إلى جنس بعينه دون باقي الأجناس؟

ففي المعجم الفلسفي أن صاحب مقولة التفوق الجنسي و اللامساواة بين أفراد الإنسانية هو الكونت دي جوبينو Arthur de Gobineau في كتابه المعنون ب :فصل المقال في اللاتساوي بين الأجناس البشرية " يرى أن الجنس هو علة جميع الأحداث التاريخية، والجنس ليس مجرد خصائص فردية للمتميزين ولا هو خاص بإبداع البشرية، ذلك أن التاريخ محكوم بقانون صارم و هو أن عامل الجنس هو العامل الحاسم الذي تمليه الطبيعة أما العوامل الأخرى فهي عوامل ثانوية، وليس في إمكان إرادة الإنسان أو أي إيمان مهما يكن نبيلا أن يزيل المصير الذي تضعه الطبيعة التي تعبر عن ذاتها في الجنس"[145]، ويبدو أنه يرفض صراحة إسهام أي عامل آخر روحاني سماوي أو مادي اقتصادي في حركة التاريخ وبدء الحضارة.

لقد غيّر غوبينو التفكير الأوربي بشأن الجنس تغييرا جذريا، فهو لم يكن من السابقين إلى تأسيس هذا الفرع من المعرفة العلمية علم الأنثربولوجيا والتقسيم الثلاثي للأجناس على يد يوهان **فردريك بلومنباخ Johann Freidrich Blumenbach** و جورج كوفير **George Cuvier** حيث رتبوا الأجناس إلى ثلاث مراتب:الأبيض أو القوقازي– الشرقي أو المغولي–الزنجي أو الحبشي، ثم بدأ الأوربيون يستخدمون هذا الاختلاف في ترتيب هرمي يحتل البيض قمته والسود يحتلون قاعدته، وينسبون للعرق الأبيض مزايا عقلية وجسمانية تفوق ما لدى نظرائهم من باقي الألوان، وهذا الافتراض بالتفوق هو أبرز

[145]– مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص250.

الجوانب المظلمة والسيئة التي ستلقي بنتائجها على القرن العشرين فيما بعد، وهو الجديد الذي أضافه جوبينو إلى النظرية " فإن الرجل الأبيض لديه توافق أعظم بين مكونات القوة الجسدانية والذكاء والأخلاق، ومن بين كل الأجناس الموجودة يظل هو الأكثر حيوية، تلك الحيوية التي هي قوة حياة أو جوهر تنتقل إلى ذريته، وهي أساس الحضارة والإبداع الإنساني"[146] هذا التفوق مختص بالبيض الأوربيين المعاصرين ويسميهم جوبينو الآريون.

وشبيه بالتعريف السابق ما ذكره توينبي في معرض حديثه عن إمكانية اختصاص جنس معين بالحضارة، فالتفوق الروحي والذهني يرتبط ويتصل اتصالا وثيقا باللون في غالبية الأحوال، بل يتعدى إلى درجاته نقصا وزيادة في زعم هؤلاء، "فإن أكثر نظريات الحضارة العنصرية شيوعا، هي تلك النظرية التي تضع على منصة الشرف، السلالة ذات البشرة البيضاء والشعر الأصفر والعيون الشهباء والرأس الطويل التي يدعوها البعض بالإنسان النوردي، ويدعوها نيتشه بالوحش الأشقر، وحري بنا أن نبحث عن أوراق اعتماد هذا الوثن معبود أوساط التيوتونيين"[147].

إن أوراق اعتماد هذا الوثن كانت قد حرّرت وختمت من قبل الكونت دي جوبينو المنوه إليه سلفا، الذي وعلى حد تعبير توينبي أضاف ردا على هذا الهراء بهراء أسخف منه، إذ جعل حتى الأوربيين أنفسهم وبيض البشرة درجات، أنقاها الدم النوردي أصل كلّ نبض للحضارة ودافعها إلى الحركة، مستندا إلى الكشف الذي عاصره و مستفيدا منه في أن جميع اللّغات الأوربية الموجودة فضلا عن القديمة منها تنتسب جميعها إلى لغة أصلية آرية كانت مصدرا لاشتقاق كلّ لسان، وهكذا استخلص خطأ أن الشّعوب النّاطقة بتلك اللغات المشتقّة من اللغة الأم تنتسب إلى بعضها بعضا بنفس درجة انتساب ألسنها إلى الشجرة الأم، وهذّب الأصل فيما بعد من الهند أوربي إلى النوردي الجرماني أعلى

[146]– هيرمان آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي،تر طلعت الشايب، مرجع سابق، ص96.

[147]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص87.

الأجناس وأنقاها والذي نسب إليه المسيح ودانتي ! بل أكثر من هذا " تمضي تلك الفكرة قائلة بأن ذلك العنصر قد أنتج العبقرية الدينية لزرادشت و بوذا، وعبقرية اليونان الفنية، وعبقرية روما السياسية، وفي الختام نحن النبلاء، لأنه إلى هذا الجنس يرجع تقريبا فضل جميع ما حققته الحضارة البشرية من أعمال وتقدم" [148].

هذا وقد أوحت الكشوفات الجغرافية واتساع نطاق الغرب بعدها في أصقاع العالم منذ ذلك التاريخ وصولا إلى الاستعمار الحديث لأجزاء كبيرة منه إلى توكيد العامل العنصري في تاريخ صنع الحضارة، وتلك حجّة نجدها مبثوثة في رسائل أمراء الحرب وجنرالات الجيوش البربرية بحجة إخراج تلك الشعوب من البدائية إلى التحضر، و" هذا الأنموذج الفاوستي وُلد مما يسمّى عصر النهضة الغربية ..يزعم أنه مقياس الأشياء كلّها ومركز المبادهة التاريخية الوحيد، ومبدع القيمة الوحيد ومن ثم ينكر أو يهدم جميع الثقافات اللاغربية"[149]، وساهم على توكيد هذه النظرة علم البيولوجيا، إذ الاتّصال غير الودّي بينها وبين شعوب المنطقة كان مردّه أوّلا إلى الاختلاف الثّقافي ثم ملاحظة تلك الفوارق الفيزيولوجية ما جعل البيولوجيا تصنّف الأنواع إلى أنواع بيولوجية عليا وأخرى دنيا.

وبما أن الجغرافيا، جغرافيا الحضارات كما يقول **إليزيه راكلوس** "منظورا إليها من فوق في علاقاتها بالإنسان، ليست شيئا آخر سوى التاريخ عبر المكان، مثلما يكون التاريخ هو الجغرافيا عبر الزمان"[150] فإن **توينبي** يذهب إلى جغرافيا الكلمة والآفاق التي بلغتها؛ إلى أمريكا التي عبّرت عن اقتناعها بالإنسان النّوردي من خلال تقييد الهجرة

---

[148]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص90 .

[149]– غارودي روجيه، حوار الحضارات، تر عادل العوا، عويدات للطباعة والنشر، بيروت–لبنان،ط4، 1999، ص ص34،35.

[150]– نقلا عن: بريتون رولان، جغرافيا الحضارات، ترخليل أحمد خليل،منشورات عويدات، بيروت–لبنان، ط1، 1993، ص13 .

حفاظا على نقاوة الفرع النّوردي بأمريكا من الاختلاط، ثم إلى بريطانيا ومذهب الطّائفة اليهودية بها، إلى أرخبيل اليابان والإينو المشعّرين...الخ.

لكن وصولا إلى هنا سيحتكم **توينبي** إلى التاريخ ليكشف زيف الدعوى وبطلانها "دعونا نرى ما يمكن أن تفعله التجريبية الإنجليزية عندما نختبر التفسيرات البديلة الممكنة في ضوء الحقائق"[151] من خلال إبراز إسهام الرجل الأبيض وأجناسه الثلاث فعليّا في الحضارات؛ النوردي والألبي وجنس البحر الأبيض المتوسط، "ساهم النورديون في أربع أو ربما في خمس: الهندية، الهلينية، الغربية، المسيحية الأرثوذكسية الروسية، وربما الحيثية، وأسهم الألبيون في سبع وربما في تسع: السومرية، الحيثية، الهلينية، الغربية، المسيحية الأرثوكسية الأصلية و الفرع الروسي منها، والإيرانية، وربما المصرية و المينووية، وأسهم سكان البحرالأبيض في عشر:المصرية، السومرية، المينووية، السورية، الهلينية، الغربية، المسيحية الأرثوذوكسية(الأصيلة)، والإيرانية، العربية، البابلية"[152]، أما لو نظرنا إلى إسهامات الأجناس الأخرى في الحضارة فقد أسهم الجنس الأسمر في اثنتين؛ السندية والهندوكية، كما أسهم الجنس الأصفرفي ثلاث؛الصينية،الشرق الأقصى، اليابانية ، ولم يسهم الجنس الأسود في أية حضارة إلى الآن حسب توينبي.

لكن من المهم أن نشير إلى ما تتكشف اليوم عنه في الهلال الخصيب من آثار حضارة مجيدة وعظيمة؛ تسمى حضارة الفراعنة السود "وفي منطقة الخرطوم خلال العصر المسيطر الأخير حوالي(8000–5000ق.م) كان للصيادين الزنوج حضارة ميزولينية ...وقد وجد معها أقدم فخار معروف. وقد أمكن تتبع هذه الحضارة من **كلا** إلى

[151] – Arnold J. Toynbee, Civilization on Trial, Oxford University Press, New York ,1948, p10.

[152]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق ،ص92

بوركو في الغرب على بعد أكثر من ألف ميل(1609كم) "[153] ناهيك عن تلك الحواضر التي ألهمت الجغرافيين والسفراء؛ تومبكتو، اكسيوم...الخ.

إضافة إلى أنّ المطّلع على كتابات الحسن الوزّان وابن بطوطة ومؤرخي ممالك ماقبل الإسلام وغيرهم، والآثار العمرانية الشاهدة على تلك الحواضر يدرك أنه قامت بتلك الأصقاع البعيدة والمنقطعة عن العالم مدنيات شهيرة، وثّقها كما يقول **رالف لينتون** الرّحالة العرب، بل يستدرك قائلا:" وهناك قصص و أخبار غير مكتوبة يتناقلها سكان الممالك الزنجية العظيمة التي تنتشر عبر القارة جنوبي الصحراء الكبرى وهي تعود إلى تاريخ أقدم من كتابات أولئك الرحالة العرب بقرنين أو ثلاثة قرون، ولاشك بأن قوائم ملوكهم وقصص الهجرات والغزو فيها شيء كثير من الحقيقة" .[154]

و ماذا لو أدرك جوبينو و العنصريين من أمثاله اكتشافات الحفريات المعاصرة؟ لعلم يقينا بأنه لا حاجة للإيغال في احتقار الجنس الأسود الذي أثبت عالم المستحثّات البشرية البريطاني Louis Leakey (1903–1972) وعلماء الأحياء" أن جميع الأجناس الأخرى مستمدة من العرق الأسود عن طريق النسب المباشر إلى حدّ ما، وأن القارات الأخرى كانت مأهولة من إفريقيا في مراحل الإنسان المنتصب و الإنسان العاقل قبل 150000 سنة "[155]، وقد كان لطرق التأريخ الإشعاعية خاصة تلك الخاصة بأرغون البوتاسيوم أن تسهم في تقدّم العلم في علم الأحياء والأعراق البشرية وأن تخفّف من تلك الدوغمائية التي سادت منذ وقت ليس ببعيد و لا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

وربّما كانت المدنية أو الحضارة بحسب ديورانت– فهما يردان عنده في سلسلته بنفس المعنى في كثير من الأحيان– هي التي تهيّء الجنس للريادة " فليس الجنس

---

[153]– حماد حسين فهد، موسوعة الآثار التاريخية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن–عمان، دط، 2003، ص349.

[154]– لنتون رالف، شجرة الحضارة ، تر أحمد فخري، ج3، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، دط، 1961، ص09.

[155] - Diop, Cheikh Anta, Civilisation or Barbarism,LAWRENCE HILL BOOKS, Brooklyn,New York,1ed,1991,p 11.

العظيم هو الذي يصنع المدنية بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب،لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه،ليست المدنية البريطانية وليدة الرجل الإنجليزي ولكنه هو صنيعتها...فلو تهيأت لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية ، ألفيت نفس النتائج نفسها تتولد عنها"[156]

مما تقدم فللأجناس البيضاء دور رائد في نشأة الحضارات كما رأينا، شريطة ألا نجعل ذلك قاعدة لازمة وصفة موروثة للعرق الأبيض جميعه، فثمة كثير من الشعوب البيضاء لم تسهم في أي حضارة مثل السود تماما إلى اليوم؛ فنصف الحضارات التي أتينا على ذكرها لم تكن خالصة لجنس بعينه دون الأجناس الأخرى، بما في ذلك الحضارتين اللتين يحاول أن ينسب إليها الفضل على جميع الحضارت الأخرى؛ نقصد الغربية والهلينية، ولو اعتمدنا نفس تقسيم هؤلاء المغالين في تصنيف كل جنس إلى أقسام عدة لما خلصت حضارة واحدة من مساهمات الأجناس الأخرى في نشأتها وازدهارها، وهذا كاف للتدليل على عدم اختصاص أي جنس بعينه بصنع الحضارة والانتقال بالمجتمعات من حالة الركود إلى الحركة.

نظرية البيئة:

"البيئة في اللغة المنزل والحالة، وتطلق في الاصطلاح على مجموع الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد والمؤثرة فيه، تقول البيئة الطبيعية، أو الخارجية..قال (كلود برنارد): هناك بيئتان تؤثران في الكائن الحي الأولى هي البيئة الكونية أو الخارجية، والثانية هي البيئة العضوية أو الداخلية"[157]، وهي بهذا أقرب إلى الاصطلاح

---

[156]– ديورانت ول، قصة الحضارة ، تر زكي نجيب محمود ، ج1، مرجع سابق، ص6.

[157]– صليبا جميل، المعجم الفلسفي،ج1، مرجع سابق، ص220.

* يقع بحر قزوين بين أوربا وآسيا إلى الشرق من جبال القوقاز، ويحدّه اليوم كازاخستان، تركمانستان، إيران، أذربيجان روسيا،كما يمثل البحر الأسود اليوم حدودا لكل من رومانيا،أوكرانيا، جورجيا،روسيا، بلغاريا، تركيا أما بحر أورال فنهر

الإنجليزيEnvironment منها إلى الاصطلاح الفرنسي Milieu ونعني به الوسط الذي قد يكون مرادفا للبيئة في معان كثيرة.

يستهل توينبي دراسته للنظرية بالإشارة إلى أن الجغرافيا التي انتشر فيها اليونانيون أضيق مساحة من العالم الغربي الذي نعرفه اليوم، إذ أن التجارة والاستيطان كانا سببين كافيين لليونانيين لاكتشاف تعدد الثقافات التي تحيط بهم، غير أن العالم القديم لم يك ليميّز فوارق بدنية بين الأجناس التي كانت متقاربة إلى حدّ بعيد في الهيئة الفيزيولوجية، التي يمكن ملاحظتها مثلا بين زنوج إفريقيا والهنود الحمر، فنحن نعرف أن اليونانيين انتشروا شرقا إلى مشارف بحر قزوين وشمال البحر الأسود إلى بحر أورال*، أي إلى الأجزاء الغربية من روسيا حاليا، ومعلوم مدى تشابه الخلقة بين ساكنة هذه المناطق، إذن ولتبرير التفوق اليوناني على باقي الشعوب كان لا بد من من إيجاد عوامل أخرى تبرر الاختلاف الثقافي عبر إيجاد المسوغ البيئي المتمثل في المناخ والتربة والموقع.

يحدّثنا **توينبي** عن رسالة حفظت ضمن أعمال مدرسة هيبوقراط الطبية تحاول تقسيم الأجناس البشرية من منظور بيئي إلى نوع جبلي يمتاز بضخامة البنية مع ما يلزم ساكنيها من شجاعة و قدرة على الاحتمال، وساكني المناطق المنخفضة الحارة، وجوههم أقرب إلى السواد ويميلون للغضب ضخام، "أما سكان البلد غير المستوي و ذي الرياح الجارفة والمياه الغزيرة والموجود على ارتفاع كبير، فهم أقوياء البنية ويمقتون النزعة الفردية، وفي طبائعهم نوع من الجبن وسهولة الانقياد...وسنجد في غالبية الأحوال أن الجسم والخلق البشريين يتغيران وفقا لطبيعة البلد"[158]، فأي اختلاف بين المصريين ساكني

ينبع من جبال الأورال في روسيا ويصب في بحر قزوين(راجع: أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة،ط1، 2004، الصفحات، 09- 36- 39).

[158]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص95.

النيل الأدنى ونظرائهم من اليونانيين وسكان الشمال يرجع إلى البيئة التي تؤثر بنظر الهيلنيين على الطبائع والأخلاق والنظم.

هذا الحكم الذي يجعل للبيئة مثل هذا التأثير لا ريب فيه نظر ويتطلب أن نقف عنده رفقة **توينبي** لنقلب فيه النظر والتمحيص، مستندين في ذلك إلى الوقائع التاريخية التي لا تجعل للباحثين عن الحق شكّا في صحّة النتائج التي سيتوصل إليها توينبي، فكما نلاحظ هناك محاولة لتفسير الاختلاف الواقع بين الشعوب ودورها تاريخيا في الحضارات بربط أسبابه بالعرق والبيئة، ولئن وقفنا على الأدلة في المطلب السابق التي تدحض أفضلية لون من الألوان في التفوق الحضاري، فقد أورد **توينبي** ما يماثلها من البراهين التي تجعل حظ البيئة ودورها في نشأة الحضارة لا يختلف عن النظرية السابقة، إن الطباع التي سقناها سابقا عن الشعوب تجعل العلاقة بينها كعلاقة العلة بالمعلول، وهي نظرية هيلينية خالصة يمكن أن تتداعى بمجرد أن نعقد مقارنة بين بيئتين متشابهتين، فإذا ما توصلنا إلى نفس النتائج فقد أثبتت النظرية صحتها وتعميمها، وإلا نقضت من عراها لو وجدنا مثالا نسوقه عن بيئتين متشابهتين و طبعين مختلفين.

يسوق توينبي لعقد هذه المقارنة السهب الأوراسي و السهب الأفراسي، فالأول يمتد عبر أوربا الشرقية وصولا إلى شبه الجزيرة الابيرية، والثاني يمتد عبر القسم الجنوبي الغربي لآسيا مرورا بشمال إفريقيا، فهل هذا التشابه في التضاريس الجغرافية قد أنتج مجتمعين شبيهين، لا ريب أنهما أنشآ مجتمعا بدويا نتج عن البيئة المتشابهة لكلا السهبين، بل قد نجد خصائص كثيرة مشتركة بينهما، ولكن ماذا لو أجرينا المزيد من الاختبارات لأجزاء شبيهة أخرى من العالم؟ ستتداعى هذه المقولة بمجرد أن نولي وجوهنا شطر العالم الجديد، فنجد أن الأجزاء الأخرى من العالم التي تتوفر فيها البيئة اللازمة لقيام مجتمعات بدوية شبيهة بمجتمعات السهب الأوراسي أو الأفراسي مثل منطقة اللانوس في فنزويلا والبمباس في الأرجنتين ومراعي أستراليا" لم تنجب نوعا خاصا بها

من المجتمعات البدوية، هذا وليست الإمكانية الكامنة في تلك المناطق موضع سؤال لأن مشروعات المجتمع الغربي قد أدركتها في عصرنا الحديث وغدت تستثمرها.. يلفت النظر أن الشعوب التي وجدها الرواد الغربيون الأوائل تشغل هذه المراعي لم تدفعها بيئتها إلى الحياة البدوية إذ لم تجد تلك الشعوب في هذه المناطق التي تصلح للحياة البدوية أي وجه لاستعمالها، أفضل من تخصيصها للصيد"[159]، ولعله يلتمس عذر لليونانيين في أنهم لم يعرفوا من السهب الأوراسي نفسه سوى ركنه الجنوبي الغربي، وغابت أجزاء فسيحة من العالم وقتئذ عن أبصارهم إلى حين.

لا يستدعي منا هذا الحكم على دعوى اليونانيين إطالة الحديث فيه بأكثر من هذا، بل سننتقل مع توينبي لنقض أساس نظرية البيئة باختبارها في المناطق المشابهة لوادي النيل الأدنى متبعين الطريقة نفسها، هل كلّ بيئة مماثلة لبيئة النيل الأدنى قامت بها حضارة مماثلة للحضارة المصرية؟ وإذا افترضنا جدلا أن مصر هبة النيل وجب علينا تعميم الحكم في البيئات المشابهة للطراز النيلي.

قد يستعجل المرء في إجابة عن سؤال كهذا بالإيجاب مستدلا بحضارة وادي الرافدين؛ دجلة والفرات، ولكن ماذا لو أجرينا مزيدا من الاختبارات عن بيئات مماثلة، وهنا لا تلبث أن تنهار النظرية بمجرد أن نضعها تحت الفحص في وادي الأردن مثلا، أو **ريوجراندي**[160] و**كلورادو** بأمريكا "بيد أن نهر كلورادو لم يسرّ بهذا السحر إلى شعوب لم تكن من مريديه، و إن كانت قد تعلمته في مكان آخر. ومتى ثبت ذلك، لا يمكن اعتبار البيئة العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات النهرية إلى الوجود، وسنستوثق من هذه

[159]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص96.

[2]–من أطول الأنهار في أمريكا الشمالية حيث يتدفق لمسافة تفوق 3034كم جنوب غربي الولايات المتحدة (انظر: أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص17.)

النتيجة إذا ألقينا نظرة على بعض البيئات الأخرى التي أنتجت حضارات في منطقة, ولم توح بها في أخرى"[161] .

ومن المنطقي أن يقول أحدهم بعد اقتناعه بهذه البراهين التاريخية في ثقة شديدة ربما لم تكن البيئة النهرية شرطا في جلب الحضارة إلى الوافدين على ضفافها دائما، والدليل على هذا نهر الأمازون الذي لم يعرف حضارة على الإطلاق.

بل على العكس ينتفي القول باعتبار البيئة عاملا إيجابيا في نشأة الحضارات إذا ألقينا نظرة على حضارات **المايا** في ميسوأمريكا أو أمريكا الوسطى فقد كان مبعثها إلى الوجود أول مرة على هضبة مرتفعة و" غالبا ما تسمى بالأراضي المرتفعة الجنوبية "[162]، وإذا نظرنا إلى الشطر الثاني من الكرة الأرضية المقابل لتلك المنطقة على طول خط الاستواء نجد هضبة **كليمنجارو** بتنزانيا والتي لم تعرف حضارة إلى اليوم، ولم يعرف حوض نهر الكونغو الأغنى بالموارد الطبيعية حضارة مماثلة بالرغم من تشابه البيئتين، ولا زالت قبائل الماساي تستهوي السياح الذين يرتحلون من أصقاع العالم ليأخذوا صورة تذكارية عن إنسان ما قبل الحضارة، إذ لا تزال تعتمد في تحصيل أقواتها في غالب الأحيان على القنص والصيد.

"وتذكر الحضارة الصينية في بعض الأحيان على أنها سليلة النهر الأصفر، لأنه اتفق نشوؤها في وادي النهر الأصفر. بيد أن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادي في أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل، قد أخفق في إنجاب حضارة كالحضارة الصينية، ولقد انبعثت الحضارة المايانية وسط الأمطار والأحراش المدارية في

[161]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص90.

[162]– حماد حسين فهد، موسوعة الآثار التاريخية، مرجع سابق، ص595 .

جواتيمالا وهندوراس البريطانية، لكن مثل هذه الحضارات لم تبرز من خلال نفس الظروف الوحشية في الأمازون والكونغو"[163].

و بعد استعراض هذه الدلائل جميعها يسهل الحكم باستحالة أن تكون البيئة منفردة هي التي أيقظت الإنسان البدائي وجعلته يتجشّم المخاطر من أجل أن يعتلي ركب الحضارة ويسعى وراءها، بل نستطيع القول في ثقة وجزم أن وراء ذاك التحول العظيم في حياة الإنسان البدائي حافز آخر غير مادي المنشأ جعله يخطو خطواته الأولى في سبيل الحضارة وهو ما سنعرفه في المبحث التالي.

[163]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص99.

المبحث الثاني

ميلاد الحضارة

نظرية التحدي والاستجابة:

حاولنا قبل قليل أن نقف على العامل الذي يستحث المجتمعات لدخول ركب الحضارة، واستعرضنا أهم نظريتين حاولتا دون جدوى إثبات صحة ادعائهما في كونهما سببا مباشرا في بدء الحضارات وهما نظرية الجنس والبيئة " المفتاحان المتنافسان الرئيسيان اللذان قدمهما مؤرخوا القرن التاسع عشر كعاملين محتملين في الغرب لحل مشكلة عدم المساواة الثقافية في المجتمعات البشرية المختلفة "[164] وحري بنا الآن أن نبسط النظرية المدبجة في العنوان وتستكنه أغوارها لنصدر حكمنا كسابقاتها بشأنها.

ينطلق توينبي من الإشارة إلى الوقوع في الخطأ فيما لو اقتصر بحثنا عن العوامل الدافعة لنشأة الحضارة على روح العصر والوقوع في دوغمائية الطريقة العلمية في دراسة الطبيعة ونحاول تطبيقها على دراسة الفكرة التاريخية، التي تتطلّب أن نطبق أجفاننا لحظات و نهتدي بهدي أفلاطون ونفتح آذاننا لحديث الأساطير.

وقد تعلّم توينبي من افلاطون أنه "حين أكون في رحلة عقلية فإني أجد نفسي عند الحدود العليا الموصلة إلى العقل، وأن لا أتردد في أن أدع خيالي يحملني على أجنحة أسطورية إلى الجزء الأعلى من الغلاف الجوي، وحيث لم يكن أفلاطون أبدا فخورا جدا أو خجولا جدا في استخدام الأسطورة من أجل استكشاف مناطق الكون الروحي فيما وراء نطاق العقل، فإن في ذلك تواضع وجرأة عقل عظيم "[165]. ويبدو واضحا أن بدء

---

[164] - Arnold J. Toynbee, Civilization on Trial, Oxford University Press, New York ,1948, p10.

[165] – نقلا عن : شلبي السيد أمين، نظرات في أرنولد توينبي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2000، ص41.

الحضارات لم يكن نتيجة العوامل العرقية أو البيئة الجغرافية، كلّ بمفردها، إنما نتيجة نوع ما من التفاعل بينها جميعا، " وبعبارة أخرى، ليس العامل الذي نسعى للتعرف عليه شيئا مفردا لكنه متعدد،هو ليس وحدة لكنه علاقة، وعلينا أن نختار بين تصور هذه العلاقة بين قوتين غير بشريتين، أو كالتقاء بين شخصيتين فوق مستوى البشر، فلنحاول ترويض أذهاننا على ثاني هذين المعنيين، لعلّه يقودنا إلى النور."[166]

وللوصول إلى الدافع الحقيقي في بدء الحضارات يحاول توينبي أن يفهمنا أن محور المآسي العظيمة الذي تصورته المخيلة الإنسانية كله متمحور حول ذلك الالتقاء بين تلك الشخصيتين،الإله والشيطان في قصة أيوب، بين الرب و مفيستوفيليس في قصة فاوست، بين الأرباب والشياطين حكمة الملحمة الاسكندنافية، كما تتكرر نفس الأسطورة في آخر كتاب التراجيديا اليونانية.

إذن فللانتقال من حالة البداوة إلى التحضر، ولمعرفة الانتقال المتعاقب من حياة المجتمعات البدائية إلى المجتمعات الحضارية ، ومن حالة الركود إلى الحركة، من حالة الين YING إلى اليانغYANG سيستخدم توينبي الأساطير التي تشكل التحديات التي عاشها الإنسان، وتطلّب ذلك منه استجابة لمواجهتها وحلّها.

يسترسل توينبي في عرض تلك الأساطير بشيء من التفصيل، مبرزا تأثر معاصريه من علماء الفلك والآثار وتقبلهم وجود هذه الثنائية والتسليم بتأثيرها، إذ بعد انتفاء أن تكون البيئة هي السبب الكلي وراء بدء الحضارات وانتفاء كل ما هو مادي" فإنه ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده وتجدر الإشارة إليه بالحرف*س* الكم المجهول،

[166]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص102.

وهو على ما يظهر سيكولوجي في طبيعته...و إن لم يكن *س* أعظم عامل تأثيرا في المسألة، فإنه بالتأكيد أعظمها أهمية...وأكثرها ارتباطا بالقدر"[167].

وفي هذه الدراسة التاريخية سيثبت توينبي وجود هذه النظرية؛ ذلك الالتقاء بين الشخصيتين، إذ إحدى الشخصيتين هاهنا ستكون المجتمع والطرف الآخر سيكون التحدي الذي سيفرض على المجتمع، إن التحدي يمثل المأساة في الأسطورة، التجارب التي مرّ بها أيوب في ابتلائه، وفاوست حين تحالف مع الشيطان، وآلام المسيح التي لم تكن إلا افتداء الإنسان، ولئن كان اللقاء لم يتم في منظور الإنسان فإن نتائجه على الأرض غدت بمكان.

إن حالة **الين** أو الهدوء أو الجمود– وهو تعبير غير صحيح أحيانا باعتبار أن المجتمعات الإنسانية لم تكفّ يوما عن الحركة إذا نظرنا من زاوية يكون الزمن فيها أوسع من أن تلحظه فيها عين إنسان إذا ما قيس الزمن نفسه في حياة الكون أو حياة الكوكب– هذه الحالة التي تسبق بدء الحضارة، هي حالة أيوب قبل أن يمسه الضر، وحالة فاوست حين أحس كمال المعرفة، وهي الحالة نفسها قبل الانفجار الكوني العظيم، وحين تكتمل الصورة على مثل هذه اللحظة الوادعة الجميلة، أو كما يحلو لتوينبي تسميتها بالهناء وبلوغ الحد الأقصى من السعادة الروحية، يبدو حينذاك أن الكل غدا مهيئا للانتقال إلى حالة **اليانج أو** الحركة.

لكن ماهو الدافع إلى هذا الانتقال؟ إنه الحافز الذي يفرض نفسه من خارج، على طريقة التفكير فيدفعك إلى إعادة التفكير، على المشاعر فيبث في النفوس بعد أن كانت تفيض بالرضا مشاعر الخوف على المصير، الشعور بالقلق أو النفور، إنه بلغة التعبير القرآني "ما منعكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين"[168]،

---

[167]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق ، ص104.

[168]– الأعراف، الآية 20 .

فالشيطان في قصة آدم و أيوب وفاوست مثلا هو العامل الدخيل الذي أدخل حافزا يضمن استثارة أقوى التغييرات المبدعة في الإنسان ليستجيب لها استجابات مختلفة.

"ويمكن استخلاص أثر هذا العهد الأسطوري على مشكلتنا الخاصة ببدء الحضارات، بوساطة تشبيه فاوست–في اللحظة التي يعقد فيها رهانه–بأحد أولئك الراقدين الذين استيقظوا ونهضوا من على الطنف الذي كانوا مستلقين عليه في حالة ثبات، وشرعوا في تسلق المنحدر الصخري، وفي لغة هذا الشبيه يقول فاوست:لقدعزمت على ترك هذا الطنف وتسلق هذا المنحدر وراء الطنف الذي فوقها، وفي محاولتي هذه أدرك أنني أخلّف السلامة ورائي"[169]، لكنها الروح الفاوستية التي تجلت في كولومبوس وهو يتجه إلى المجهول، ومكتشفو عصر النهضة وهم يكتشفون قوانين الكون والطبيعة، تلك الروح التي ستخلّف السلامة وراءها على حدّ تعبير الشبيه تدرك مخاطر السقوط على المنحدر الصخري، لكن في الوقت نفسه سيتاح لها رؤية الأفق بوضوح، وفي فاوست جوته سيوفق المتسلق في بلوغ قمة المنحدر بعد أن يعاني عدة نكسات.

وحتى في أسفار العهدين القديم والجديد يطلعنا **توينبي** بعد عرض نصوصهما في صراحة أن الشيطان إذ تدخّل في عمل الإله فإنه سيخسر الرهان، "وينتهي توينبي إلى القول بأن الانتقال من حالة الين إلى حالة اليانج، من خلال فعل له قوة دافعة، يقوم به المخلوق ليساعد الإله نفسه في مواصلة نشاطه الخلاق، وهنا يجب أن يدفع ثمن الارتقاء من جانب العبد الذي ينفذ الإرادة الإلهية فحسب"[170]، وبعد أن تختبر النفوس بتلك الضيقات يكون الإنسان تهيأ للانتقال من حالة الين إلى اليانج ، أو من السكون إلى الحركة.

[169]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص108.

[170]–علم الدين نيفين جمعة ، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص28.

وإذا ما أتينا إلى تطبيق الأسطورة على إشكالية بدء الحضارات فما هو الحافز الذي هز البشرية وأخرجها من السكون إلى الحركة، من خمول العادة إلى المشقة، فإن حالة الين يمكن أن نجدها في المجتمعات البدائية التي كانت تعتمد في بقائها على التقاط الطعام، وعلى القنص والصيد، واللذين كانا متوفرين بالقدر الذي يزيد عن الحاجة، يوافقه في ذلك مناخ معتدل ودافئ.

" كان الإنسان في زمن ما قبل التاريخ يعيش بشكل جماعات تهيم في الطبيعة بحثا عن الغذاء، وقد استعمل أسلحة بسيطة من العصي والحجارة ولبس من جلود الحيوانات و أوراق الأشجار ولجأ إلى المغاور والكهوف في حالة الخطر أو البرد"[171] ، لكن ما إن انقضى هذا العصر حتى أقبلت عصور جليدية فضنّ الطعام وانعدم الدفء وطفقت حالتهم تسوء يوما بعد يوم، وشكل الجليد تحديا مميتا لهم، وتخبرنا علوم الأركيولوجيا أن الإنسان في هذه الفترة حاول أن يجد ملاذا بحفر الأرض ليتقي زمهرير البرد القارس، فيما استعان آخرون بأغصان وأوراق الشجر لإقامة أكواخ وفرش دافئة، واكتسى آخرون بجلود الحيوانات التي كانوا يصطادونها، وتعلموا تجفيف اللحوم وتخزين الأطعمة لوقت الحاجة إليه، وحصّنوا بيوتهم بعد ذلك ودربوا أولادهم على طرق البقاء وأصبحوا ملاذا لأولئك الباحثين عن النجاة، نستطيع أن نقول عن هؤلاء الذين قبلوا هذا التحدي أنهم نجحوا في اجتياز خطوات تعتبر من أعظم الخطوات في سبيل الحضارة، كما لا نستطيع أن نضرب صفحا ذكر أولئك الذين انكفؤوا إلى بيئة مماثلة لبيئتهم الأولى ورضوا من العيش القدر الذي يبقيهم أحياء إلى حين.

لكن لا بد من الإشارة إلى أن تلك التحديات المناخية التي يشير إليها توينبي لا نستطيع أن نعمم الحكم بواسطتها على أهلية شعوب في الاستجابة إليها دون أخرى، إذ يشير كثير من المعاصرين أن السبب وراء قيام الحضارات الأولى أنها لم تتعرض إلى

[171]– شربل موريس أسعد، موسوعة بلدان العالم بالأرقام، دار الفكر العربي، بيروت–لبنان، ط1، 1999، ص10.

هذا التحدي الخطير" فالدورات المناخية العظيمة التي نتجت عنها العصور الجليدية الأوربية والفترات التي بين العصور الجليدية، لم تحدث في إفريقيا أكثر من مجرد تقلبات في كمية سقوط الأمطار"[172]، ويؤكد **رالف لنتون** على أن سير الحضارة في تلك العصور الجليدية، بل وتطور الإنسان نفسه لم يسر إلا سيرا بطيئا هادئا، وتختلف هذه الأحوال عن الأحوال التي كانت تعيشها يومئذ القارة الأوربية، والتي لم يستطع الإنسان في تلك المناطق وخلال الفترات المتعاقبة من العصر الجليدي أن يجد لنفسه ملاذا آمنا ودائما حتى في الحدود الجنوبية للقارة، " و إبّان هذه الفترات العصيبة أصبحت إفريقيا مثل الكنيسة في آراء **توينبي**، أي كانت مستقرا للمكاسب الحضارية التي توصل إليها الإنسان قبل ذلك "[173]

من الملاحظ فيما سبق أن عامل البيئة والجنس يحضران بقوة في المشهد، ولكن سننظر إليهما على هدي نور جديد ، وليس بالطريقة السابقة التي أثبتنا عدم جدواها في كثير من المواضع، بل نتيجة تفاعلها وقت حدوثها على ضوء هذا العامل الجديد الذي سيسمّيه توينبي التحدي و الاستجابة، تلك القوى السيكولوجية الدافعة التي يستحيل قياسها كميا وتقديرها تقديرا علميا، والشبيهة بذلك الانتصار الذي يعجز قائد عسكري متمرس عن تقديره، فإن كان متدينا عزاه إلى خالقه، وإن كان يميل إلى تصديق الخرافات عزاه إلى حسن طالعه.

سيتوجب على **توينبي** توضيح فكرة التحدي والاستجابة ومحاولة تطبيقها على الحضارات لتوكيد دورها الفعال في الخروج بالمجتمعات من طور البدائية إلى التحضر، وها هنا يستهل هذه الخطوة الأولى بالحضارة المصرية، ممهدا لها بالوضع البيئي الذي

[172]– لنتون رالف، شجرة الحضارة، تر أحمد فخري، ج3، مرجع سابق، ص10.

[173]– المرجع نفسه، ص10.

كان يسود العالم آنذاك في العصر الجليدي الأخير حيث كان الثلج يغطي أوربا الشمالية حتى أقصى شمال ألمانيا وجبال الألب البرانس.

وقد دفع هذا الضغط العالي للقطب الشمالي بالزوابع المطرية اتجاه الجنوب."وكانت الأعاصير التي تخترق أوربا الوسطى تمر في ذلك الوقت فوق حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال الصحراء الكبرى وتستمر في طريقها دون أن تعتصرها جبال لبنان، مارة عبر العراق وبلاد العرب إلى فارس والهند.فكانت الصحراء الجدباء تنعم في ذلك العهد بهطول الأمطار بانتظام بينما كانت الأمطار في المنطقة الأبعد من ذلك شرقا أعظم غزارة عما هي عليه الآن، بل وموزعة على مدار السنة كلها، ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال في الوقت الحاضر"[174].

لكن المنطقة الأفراسية التي كانت حاضنة الحضارة المصرية المجيدة كانت أحوالها الطبيعية تكابد في نهاية العصر الجليدي في هذه الفترة جفافا شكل تحديا لشعوب المنطقة التي استجابت له بردود مختلفة؛ فأما الذين ألفوا الإقامة بتلك المناطق وعزفوا عن تغيير موطنهم أو طريقة عيشهم فكان الانقراض بانتظارهم حيث فشلوا في الاستجابة لتحدي الجفاف، وفريق تتبع المناطق المناخية التي تشبه مناطق عيشهم الأولى تجنبا لتغيير نمط معيشتهم فهم بدو السهوب،–ومن هؤلاء قبائل البختياري في إيران" قبائل بدو رحل لا تزال تعيش ردة إنسانية هائلة تجوب الأرض من بقعة إلى أخرى..وما عليك إلا أن ترافق تلك القبيلة في ترحالها لتدرك بأن المدنية لا يمكن أن تنمو مع الترحال، إن كل شيء في حياة البدو الرحل ممعن في القدم"[175]–، وفريق خرج من تحدي الجفاف إلى تحد

[174]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق،ص114.

[175]– برونوفسكي.ج، ارتقاء الإنسان، تر موفق شخاشيرو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط،1981، ص13.

أقسى منه بالشمال حيث مناطق هجرتهم الجديدة فحفزت فيهم تلك التحديات البيئية استجابة خلاقة جديدة.

وبقي قسم أخير؛ وهو الذي واجه تحدي الجفاف بتغيير الموطن وطريقة العيش معا، أما الموطن فلم يرتحلوا مسافات كتلك التي قطعها السابقون، لكنها واسعة إذا رأينا إلى الاختلاف الطبيعي بين البيئتين، وأما طريقة عيشهم فسنشهد على أيدي هؤلاء التحول الإنساني من مرحلة الصيد إلى الزراعة، فقد استحالت المراعي الخصيبة المشرفة على ضفتي النيل ودجلة والفرات في عصر التصحر إلى صحراء، عندئذ "خاض هؤلاء الأبطال الرواد–بوحي الجرأة أو اليأس–مستنقعات الأدغال الموجودة في قرارة الوادي والتي لم يسبق لبشر التوغل فيها، وأحالها عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر وأرض شينعار"[176]، وهناك بذلك الموطن الغريب والموحش بدأت أعظم حضارتين في العالم القديم مغامراتهما الكبرى بمواجهة تحديين؛ الأول حال النشأة متمثلا في التحدي الطبيعي والثاني بعد تشييد بنيان الدولة متمثلا في التحدي الخارجي البشري.

كما نود أن نشير إلى أن توينبي ولتصوير هذه التحديات سيبدأ بالحضارات الأصلية الست ملفتا عناية القارئ بأن الخمس الأولى منها كان بدؤها استجابة لتحديات صادرة من البيئة الطبيعية، في حين كانت الأخيرة وهي الحضارة المينووية استجابة لتحد من نوع آخر وخلافا لسابقاتها وهو تحدي البحر كما سنرى، ثم سيتحدث لاحقا عن الحضارات المنتسبة إلى هذه الحضارات الأصلية الستة.

التحدي الطبيعي: نود أن نشير إلى أن مستنقعات النيل وأدغاله و كذا منطقة النهرين كانت في نهاية العصر الجليدي برية لم يطرقها إنسان فكانت الطبيعة "تضع أمام الإنسان دائما تحديات مختلفة، وتعتبر البيئة إحدى التحديات التي تواجه الشعوب

[176]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص117..

باستمرار"[177] وكانت تشكل تحديا لأولئك الرواد الذين اتخذوها موطنا بعد أن أخضعوا لإرادتهم طبيعتها، فجففوا تلك المستنقعات وحفروا الأقنية والقنوات واستصلحوا أراضي تلك الفلاة وحولوها إلى حقول ومدرجات، ولا يعني هذا أن هؤلاء النازلين بالموطن الجديد غيروا من جغرافية المنطقة إلى الحد الذي لا يمكن معه التعرف على طبيعتها السابقة ، فلا يختلف وادي النيل عن الوادي المنظور في وقتنا الحالي، اللهم إلا من بعض الحيوانات في قسمه الأدنى.

يذهب توينبي إلى الافتراض العكسي لما حدث فعلا قبل ستة آلاف سنة ليطرح أسئلته التالية" فعلى فرض عدم حدوث تحدي الجفاف قطعا حوض النيل في هذه الجوانب منه الخارجة في الظروف الحاضرة عن منطقة الأمطار الاستوائية ..هل كانت الحضارة المصرية لتظهر على الإطلاق، وهل كان يقيض لتلك الشعوب أن تظل جالسة القرفصاء على حدود وادي نيل أدنى لم يذلل، كما يجلس الشيلوك والدنكا اليوم القرفصاء على ضفة بحر الجبل؟" [178]، والحقّ أن التحدي لا يزال قائما بالنسبة لسكان حوض النيل الأعلى بحر الجبل وسكان المناطق المدارية الإفريقية مع اختلاف نوع التّحدي الذي لا نستطيع الجزم بعدم حدوث استجابة نهائية ستصدر عن هذه المجتمعات التي فشل أسلافها في الاستجابة لتلك التحديات.

وما قيل عن بدء الحضارة المصرية يمكن ملاحظته أيضا في التحدي الطبيعي الذي واجه آباء الحضارة السومرية الذين دخلوا في صراع مع التضاريس الوعرة للوادي الأدنى لدجلة والفرات ممثلة في مستنقعات غاباتهما، ولايعني التماثل في البيئتين تماثل

[177]– طحطح خاليد فؤاد، في فلسفة التاريخ، منشورات الاختلاف– الدار العربية للعلوم، الجزائر–بيروت، ط1، 2009، ص99.

[178]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص 120.

كلتا الحضارتين في السمات الروحية المعبّر عنها في الدين والفنون والحياة الاجتماعية ففي هذا يبدو التماثل بينهما أقل بكثير.

ونفس الشيء للإنسان الرائد الذي نزل في حوض النهر الأصفر، فقد واجه "تحديا لا يكاد يستطيع الإنسان عبر طرائقه البدائية مواجهته حيث الجفاف القاتل أو المنخفضات الممتدة في حوض نهر اليانجستي، أو تغير الحرارة الموسمي بالإضافة إلى وجود المستنقعات والأدغال، غير أن استجابة الصين لتلك التحديات أدت في نهاية الأمر إلى تحويل هذه المستنقعات والغابات إلى حقول مثمرة"[179].

لكن استجابة آباء الحضارة الصينية يبدو أنها اختصت بهم دون غيرهم من الشعوب التي كانت تشغل نفس الخط من المنطقة الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي؛ من نهر براهمابترا* وهضبة التبت إلى بحر الصين، فلم يتفق لتلك الشعوب ذات القربى والتي جاورت هؤلاء الصينيين الأوائل أن استثيرت فيهم مقومات إبداع لمواجهة نفس التحدي، فلم تنبعث هناك على تلك الضفاف من حضارة سوى الحضارة الصينية، ولم يكافح أي شعب في سبيل حياته مثلما كافح الشعب الصيني تلك البيئة التي لم تكن أيسر من بيئة جيرانهم.

أما عن الحضارتين المايانية والأنديانية[180] فقد كان أصعب تحدّ واجهته هو الغابة المدارية، ولا تزال أمريكا الجنوبية موطن المجاهيل، فإلى اليوم لا تزال هناك مناطق كثيرة

---

[179]– علم الدين نيفين جمعة ، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص118.

*ينبع نهر براهمابترا من المنحدرات الشمالية لجبال الهملايا، ويجري لمسافة 2700كم مخترقا الجزء الشمالي الشرقي من الهند وبنغلاديش ثم يتحد مع نهر الجانج (انظر: أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، مرجع سابق، ص11).

[180]– هما حضارتان نشأتا بمنطقتي مايا والأنديز بوسط وجنوب القارة الأمريكية، ومايا نسبة للناطقين بهذه العائلة اللغوية، وتشمل اليوم غواتيمالا وشبه جزيرة يوكاتان وأجزاء من تاباسكو وجياباس المكسيكيتين وهندوراس ، سلفادور، أما الأندينية فتشمل اليوم الصحارى الساحلية في البيرو، و جبال الأنديز بفنزويلا إلى شمال الأرجنتين والشيلي(راجع:

لم تكتشف في غابات الأمازون، وقد يتيسّر هناك إعداد الهضبات للزراعة أعظم بكثير مما يتهيأ لزراعة السهول المنخفضة؛ فهي لا تتأتى السيطرة عليها إلا بالعمل المنظم، فإذا تيسّر زراعة الهضاب كما ذكرنا فذلك يرجع إلى قلة الإنبات الطبيعي بها والتنظيم الدقيق للسقي، بخلاف السهل الذي يتطلب جهودا عظيمة ومضنية تتمثل في قطع الأشجار الضخمة مع الحرص على عدم تكاثف الغطاء النباتي بها فيستدعي ذلك عناية متصلة على الدوام من المزارع من أجل عدم تكاثف الأدغال السريعة النمو بهذه المناطق، وهناك في أعلى هضبة الأنديز لا تزال أطلال الحضارة الأنديانية شاهدة على تحدي المناخ القاسي، القارص البرودة يوافقه في ذلك توكيدا على همم عالية لآباء الحضارة الأنديانية تربة شحيحة فقيرة.

وهناك على الساحل حرارة استوائية وجفاف صحراوي مع شح الأمطار، فكيف يمكن أن تكون قد ازدهرت تلك الوردة كما يشبهها **توينبي** إلا بفضل أعمال الإنسان؟ " استطاع طلائع الحضارة انتزاع واحاتهم من الصحراء بفضل حسن تدبير المياه القليلة التي كانت تسقط من السفح الغربي من الهضبة، وإضفاء الحياة على السهول بفضل الري، وأحال رواد تلك الهضبة جوانب جبلهم إلى حقول بفضل حسن استخدام التربة القليلة وإنشاء مدرجات أمكنت المحافظة عليها بفضل نظام شامل من الحواجز المبنية أقيمت بمجهود كبير لحفظ التربة والمياه"[181]، إن كل الحضارات الخمسة التي سبق الإشارة إليها قد أشرنا إلى أن بدءها كان نتيجة استجابة لتحديات بيئية طبيعية، أما الحضارة المينووية فكانت استجابة لتحد طبيعي من نوع مغاير لسابقاتها متمثلا في تحدي البحر.

حماد حسين فهد، **موسوعة الآثار التاريخية**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن–عمان، دط، 2003، ص565 وما يليها).

[181]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص125.

لو ألقينا نظرة على خريطة العالم فسنجد أن موطن الحضارة المينوية و آثارها يقع في جزيرة كريت[182] وهي اليوم إلى الجنوب من أثينا، وهي أقدم حضارات اليونان و أوربا عموما، ثم إذا تتبعنا تاريخ نشأتها فقد يرجع تاريخها حسب بعض المؤرخين إلى الألف السابع قبل الميلاد، وسنجد أيضا أن هذه الجزيرة وجزر بحر إيجه قريبة إلى قارتي آسيا وأوربا منها إلى إفريقيا؛ فإلى الشمال الشرقي غير بعيد عن جزيرة قبرص يمكن أن نشاهد القسم الآسيوي من تركيا، وإلى الشمال الغربي بمسافة تكون مساوية تقريبا تجد أثينا، فهل يمكن أن يكون الرواد الأوائل لتلك الحضارة وفدوا من القارتين؟

إن تاريخ علم الأجناس حسب توينبي يقدم دليلا مخالفا لكل التوقعات التي يمكن استخلاصها بالبداهة وغير قابل للشك، فإنه بناء على ما قدمه علماء الآثار فإن الأوائل الذين استوطنوا هذه الجزيرة لم يكونوا من القارتين، بل من أولئك الذين تم ذكرهم في هجرات آخر العصر الجليدي من بدو المراعي الأفراسية الفارين من الجفاف" ويبدي تحليل أقدم بقايا الأجسام البشرية في كريت، أن الجزيرة قد سكنها أولا –جميعها أو جانبا كبيرا منها–أصحاب الرؤوس الطويلة، بينما لم يمثل أصحاب الرؤوس العريضة قطعيا في طوائف سكان الجزيرة أو كانوا أقلية فيها فقط، وإن كانوا قد أصبحوا بعدئذ الغالبية العظمى فيها"[183] فيكون آباء الحضارة المينوية بهذا أول رواد قبلوا تحدي البحر الواسع فعبروه وأنشؤوا حضارتهم.

إن ما سبق يهيّء لنا أدلّة جديدة أنّ العامل الذي يعتدّ به في بدء الحضارات هو التفاعل بين التحدي والاستجابة، وليس ثمة شيء آخر، فلو كان قرب المسافة هو عامل يمكن أن يسهم شيئا يسيرا في نشأة الحضارات لكان سكان بحر إيجة أولى بجزيرة كريت

---

[182]– تقع جزيرة كريت اليونانية في البحر الأبيض المتوسط..وتبلغ مساحتها 8332كم مربع، وهي أكبر جزر اليونان(للاستزادة انظر: أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج3، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص30).

[183]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص126.

من هؤلاء الوافدين من مراعي إفريقيا التي تبعد عن الجزيرة بما لا يقل عن 300كم، ثم تشارك السكان المحليون لجزر بحر إيجه مع هؤلاء الوافدين الذين وضعوا أسس الحضارة المينوية في احتلال باقي الجزائر القريبة من أوربا وآسيا.

إلى هنا نكون قد رافقنا توينبي في عرض نشأة الحضارات الأصلية الست التي كان العامل الحاسم في نشأتها هو التحدي الطبيعي دون سواه، وسننتقل معه إلى تحد من نوع آخر كان هو العامل في نشأة الحضارات المنتسبة إلى الأصلية متمثلا في التحدي البشري، الذي ينشأ بصفة طبيعية عن الصلة بالمجتمع الذي تنتسب إليه.

إن الحضارة حين تبلغ ذروة المجد تكون قد هتفت في الوقت نفسه ببلاغ قرب زوالها، فالشعوب الموجودة داخل جسد الحضارة تكون قد تهيّأت لتفترق عن الحضارة السابقة التي تفقد مع مرور الأزمان حيويتها وإبداعها، وتستحيل من فضاء يجنح إليه الطامحون في التفيّؤ بظلال إبداعاتها وطاقاتها، إلى كابوس يخنق المنضوين إليها أوّل الأمر بمحض إرادتهم.

التحدي البشري:

بدء الحضارات المنتسبة: لا يمكن إنكار أن درجة ما من التحدي الطبيعي كان عاملا حافزا في نشأة هذه الحضارات، ومن خلال التفارق داخل جسم الحضارة الأصلية التي باتت في طور الانهيار، "يتضح أن التحدي الأساسي والجوهري في حالتها هو تحد بشري نشأ عن صلتها بالمجتمع الذي تنتسب هي إليه...وعند حدوث ذلك تدفع الحضارة المعتلة جراء عجز حيويتها بتحللها إلى : أولا: أقلية مسيطرة تحكم حكما استبداديا يستفحل طغيانه باطراد، ولكنها تعجز عن القيادة. ثانيا: بروليتاريا(داخلية وخارجية) تستجيب لهذا التحدي بوساطة إدراكها بأن لها نفسا خاصة بها وتعقد العزم على خلاص

نفسها حية، وتثير نزعة استبداد الأقلية الحاكمة في البروليتاريا الرغبة في الانفصال"[184] وعليه نستنتج صراعا بين رغبتين، الأولى تتشبّث بالأنفاس الأخيرة لها قبل هلاكها المؤكّد آخذة شمسها في الأفول حتّى تشرف على النّهاية، والثّانية متمثّلة في البروليتاريا وقد بدأت تتحرر شيئا فشيئا من أغلال قيود الأولى التي كانت يومئذ سكنا وموطنا روحيا.

يذهب توينبي إلى إلى حد تشبيه هذا الصراع بدورة الحياة في فصول السنة التي تمرّ من ركود الخريف عبر آلام الشتاء لتنتهي تلك الدورة إلى بهجة الربيع، أما عن القوة الدافعة التي يترتب عليها الفعل الذي يكون استجابة لهذا التحدي والذي ينجم عنه التحول من الركود إلى الحركة، أو من حالة الين إلى حالة اليانج فهو انفصال البروليتاريا، فتتولد الحضارة الجديدة من البائدة كما يتولد فصل الربيع بعد عواصف الشتاء.

ولا يمكن تمييز تحدّ طبيعي في نشأة الحضارة المنتسبة إلا في حدود توسعها خارج إقليم الحضارة السابقة، أو إقامة موطن جديد لها كما هو الحال في الحضارة الغربية فيما وراء جبال الألب متمثلا في غاباتها وأمطارها والثلوج التي تكتسي بها قممها طوال السنة، وهذا تحدّ جديد لم يسبق أن جابهه الهلينيون قبلا، ضف إلى ذلك الحضارة السندية والحيثية وتحدي الغابات المدارية الرطبة بوادي **الجانج**[185] باعتبارها منتسبة إلى الحضارة السومرية التي لم تواجه تحدّ مماثلا له.

أما الحضارة الهلينية فتمثل التحدي الطبيعي في البحر، ويمكن القول أن البرابرة الآخيين وإن كانت حضارتهم تنتسب إلى المينوية فقد اجتازوا شدائد تعدل في قوتها ما واجهها الأوائل إن لم تكن أشد منها ونجحوا في التغلب عليها كأسلافهم.

---

[184]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص128.

[185]– ينبع نهر **الجانج** من كهف ثلجي..في جبال الهملايا شمالي الهند، ويتدفق بطول 2480كم ليصب في خليج البغال.. يعدّ من أشهر الأنهار المقدّسة في العالم(انظر: أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص14.)

أما عن الحضارات المنتسبة إلى المايانية متمثلة في في الحضارتين اليوكاتية والمكسيكية فاختلاف التحدي عن الحضارة الأم ملاحظ في الأمطار الشحيحة والتربة الفقيرة في الهضبة الجيرية.

أما عن باقي الحضارات؛ الهندية وحضارة الشرق الأقصى والمسيحية الشرقية والعربية والحضارة الإيرانية فلا يبدو أنها واجهت تحد طبيعي واضح لاختلاف بيئتها و موطنها عن مواطن الحضارات السابقة، و باستثناء موطن الحضارة البابلية فإنها خضعت أو أخضعت للحضارات الأصلية "على أننا وجدنا مبررا لتقسيم الحضارة المسيحية الأرثوذكسية وحضارة الشرق الأقصى تقسيما فرعيا. وأما فرع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية في روسيا فقد تعرض إلى تحد من الغابات والأمطار والجليد، أعظم كثيرا مما كان على الحضارة الغربية مواجهته، وتعرض فرع الحضارة الأقصى في كوريا واليابان، إلى تحد من البحر يختلف كلية عن أي تحد واجهه رواد الحضارة الصينية"[186].

يرى توينبي أن التحديات الطبيعية باعتبارها عاملا محفزا لنشأة الحضارات فإن استكمال دراستها لا يتم إلا بالوقوف على الدوافع الرئيسية التي تتصل بتلك التحديات " فالدوافع هي المحاور التي تدور حولها عملية تنظيم النشاط تنظيما جديدا، وهي أيضا عوامل التغيير؛ إذ هي التي تكسب العادات القديمة اتجاهات جديدة وتغير من صفاتها"[187] وهي خمسة برأى توينبي كانت في الحقيقة وراء إبداع الحضارات، ويمكن تقسيمها إلى نوعين:

أولا: الدوافع المتعلقة بالبيئة الطبيعية:

يندرج ضمن هذا النوع الدوافع الآتية

[186]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص130.

[187]– ديوي جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، تر محمد لبيب النجيحي،مؤسسة الخانجي–فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة–نيويورك، دط،1963، ص08 .

أ) حافز الأرض الصعبة:

قد استقصينا البحث فيه من خلال أمثلة عديدة سقناها عند الحديث عن الحضارة الصينية التي قامت على النهر الأصفر(هوانج هو) " المعروف بفيضاناته المميتة، و آخرها عام 1887م الذي نتج عن فيضانه وفاة حوالي مليون شخص"[188] ، و مقارنة بنهر اليانجستي[189] الذي يكون صالحا للملاحة طول أيام السنة تجدر الإشارة إلى أنه في الفترة التي سيطر فيها الصينيون على تلك الفوضى المائية لنهر هوانج هو " لم يكن النهر صالحا للملاحة في أي فصل. إذ كان خلال الشتاء متجمدا أو غاصا بالثلج العائم، وكان ذوبان الثلوج في الربيع يحدث فيضانات مدمرة تغير باستمرار خط سير النهر عن طريق مسالك جديدة له، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى مستنقعات تغطيها الأدغال..ورغما عن ذلك انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر، لا على اليانجتسي"[190]، فكانت تلك التحديات السالفة الذكر دافعا ومحفزا لمواجهتها.

لكن لا يمكن أن نغفل ههنا قبل الحديث عن أي شيء أن الانطلاقة الفعلية للتحول الحضاري بدأت بتعبير **برونوفسكي** بتفجر من النوع الهادئ متمثلا في نهاية العصر الجليدي، فالإنسان الذي عانى من مصاعب ذاك العصر قد وجد فجأة أرضا تزهر وحيوانات تحوم من حوله، ووجد نفسه يدخل في نوع مختلف من الحياة، لكن الأهم من هذا كله كان الاستقرار الذي منحته له الطبيعة يومئذ، والذي هوشرط في بدء

---

[188]– أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص29.

[189]– يعد نهر يانجتسي ثالث أطول أنهار العالم، وهو أطول أنهار الصين و أكثرها أهمية..يتدفق بشكل غير منتظم نحو الشرق ووسط الصين حتى يصب في بحر شرق الصين على مسافة 6300كم(انظر: أحمد مصطفى أحمد، المرجع نفسه، ص30).

[190]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص148.

الحضارات والذي كان يجري تحت" الوعي الحاسم بأن الإنسان يسيطر على بيئته في أهم مظاهرها..وأعتقد أن المدنية تعتمد على هذا القرار"[191] .

وما يمكن ملاحظته أيضا للمسافر إلى اليونان برا أن موطن الحضارة الهلينية ليس مروجا وجنانا كما قد يتبادر إلى الذهن أول مرة، فهناك حيث كان مهد تلك الحضارة لا يمكن أن تلحظ سوى جلاميد الصخر ووعورة المكان، بينما في المناطق الشمالية الخصيبة حيث الريف الساحر بسهوله وتنوعه النباتي لم تقم أي حضارة.

يعنون **توينبي** في حديثه عن الحضارة الهلينية عنوانا يدعو القارئ إلى الفضول*آتيكا و بويثيا* وهما بلدتان يونانيتان تعبران كما يقول توينبي عن عقلية فظة عديمة الإحساس والخيال "وحشية بعيدة عن التجانس مع عبقرية الثقافة الهلينية السائدة، وثمّة أمر أبرز هذا التباين وهو أن آتيكا ..البلد الذي كانت عقليته هي خلاصة الهلينية تقع توّا إلى الخلف من سلسلة جبال سيشيرون..ويقع خدّا على خدّ مع البلد الذي أثّرت فطرته في الأحاسيس الهلينية العادية مثل تأثير نغمة نشاز في لحن جميل"[192]. يقصد بويثيا نقيض آتيكا جمالا وسحرا، آتيكا التي اضمحلّت مراعيها وبارت مزارعها بفعل التعرية الطبيعية لتربتها الخفيفة.

ما الذي فعله الأثينيون إزاء هذا التحدي؟، كان لزاما عليهم كما ينوّه **توينبي** إلى ابتكار أساليب جديدة للبقاء، بل استحال ذلك الدافع إلى الازدهار والرّخاء أعظم مما توفر للمناطق الشمالية بزراعة الزيتون واستغلال الثروات الباطنية، فأدى ذلك فيما بعد إلى مقايضة زيت الزيتون بالقمح الآسيوي عن طريق التجارة البحرية، وصناعة الفخار الآتيكي الذي برز إلى الوجود رفقة ضروب أخرى من النشاط؛ كاستغلال مناجم الفضة كنتيجة حتمية للتبادلات التجارية التي كانت في الأخير الأساس الاقتصادي لمعلمة هيلاس أو

[191]– برونوفسكي.ج، ارتقاء الإنسان، تر موفق شخاشيرو، مرجع سابق، ص12.

[192]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص150.

أثينا التي ستغدو الإمبراطورية الأثينية فيما بعد، وتشكلت الثقافة السياسية والفنية وابتدعت أنماط جديدة من الجمال لا تزال تسحر الناظرين إلى اليوم؛ لعل أهمها البارثينون الصرح الحجري الذي يعبر عن البدء والختام لتلك الحضارة المجيدة.

إن **توينبي** إذ يسترسل في الحديث عن تلك الدوافع التي كانت حافزا لنشأة الحضارات إنما ليبقى وفيا لالتزامه في الحصر العددي للحضارات الأصلية والمنتسبة إليها، والمقدر عددها بواحد وعشرين حضارة، ففي نفس السياق يذكر بدء الحضارة البيزنطية بيزنطة وكالشيدون، ثم إلى التاريخ السوري وعناصر السكان الوافدة إلى سوريا، الإسرائليون والفينيقيون والفلسطينيون، وينسب إلى الفينيقيين ابتداع الحروف الهجائية، وإقامة مستوطنات جديدة هناك على الساحل الإفريقي والإسباني، فكانت تلك المدينة التي سحرت الرّحالة القدامى قرطاجنة، وللفلسطينيين يعزى كشف المحيط الأطلسي بعد أن كانوا رعاة في إقليم برسيم، أما الجماعة الثالثة التي تركت وحدها في فترات النزوح فبرأي توينبي فاق الكشف الروحاني للوحدانية الذي تم على أيديها الكشف المادي للمحيط.

ولقد ظلت تلك الأرض أرض أفرايم ويهوذا ذات الطبيعة الجبلية والطبقة الرقيقة من التربة، تغطيها الغابات خالية إلى أن سكنتها طليعة البدو العبرانيين القادمين من السهب الشمالي لبلاد العرب " وحطّوا رحالهم في أطراف سوريا أثناء القرن الرابع عشر قبل الميلاد وبعده .. وهنا حولوا أنفسهم من بدو يربّون الغنم إلى زرّاع يزرعون أرضا حجرية، وعاشوا مغمورين..حتى في تاريخ متأخّر كالقرن الخامس قبل الميلاد، كان اسم إسرائيل غير معروف عند هيرودوتس، وكانت أرض إسرائيل–في الصورة العامة التي رسمها هيرودوتس عن العالم السوري– ماتزال تحجبها أرض الفلسطينيين، وهو يتحدث

فيما كتب عن أرض الفلسطينيين، وقد ظل اسمها حتى اليوم "فلسطين" أو "بلستين" ".[193]

ب) حافز الاستيطان في أرض جديدة:

هاهنا يوجّه توينبي متتبّعه إلى سؤال عن الأثر الحافز الذي يترتب عن اكتشاف أرض جديدة، لكن مع صرف النظر عن طبيعة الأرض في حد ذاتها، والكف عن المقارنات بين البيئات ودرجة المشقة في كل منها، ليعطينا الجواب بالرجوع إلى الأساطير مرة أخرى؛ ففي أسطورة الطرد من الجنة إلى الدنيا حيث العمل والمشقة قد يمكن ربطها بخروج الإنسان من مرحلة التقاط الطعام ونعمة" وكلا منها رغدا حيث شئتما"و مجاوزة اقتصاد الإنسان البدائي إلى مرحلة الزراعة.

أما إذا غيرنا وجهتنا من الأساطير إلى تاريخ الأديان ألفينا تأكيدا لهذه الافتراضات " إذ نجد مثلا–وهذا ما يذهل السائلين–أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟، أن مسيح اليهودية قد انطلق فعلا من هذه القرية المتواضعة في "جليل الأمم"، وهي قطعة نائية من الأرض الجديدة، ضمها المكابيون لليهودية قبل تاريخ ولادة يسوع بأقل من قرن، ولما استفحل نمو حبة الخردل الجليلية هذه التي لا تقهر...وانقلب ذهول اليهودية إلى عداوة صريحة فعالة..تحول ناشرو العقيدة الجديدة إلى الأمم، شارعين عن عمد في غزو أمم جديدة للمسيحية، في أرض أبعد كثيرا من أقصى حدود مملكة المكابيين"[194].

كما ينبّه **توينبي** إلى نفس القصّة في تاريخ البوذية التي وجدت في البداية الطريق ممهّدا لها في سيلان، ومن ثم عمّت انتصاراتها على أرض العالم السندي القديمة إلى أن استقرّت في مقرّها هناك في الشّرق الأقصى، فلا كرامة لنبي كما قيل في وطنه ولا في

[193]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص157.

[194]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص166.

بيته، وقد صدق القول وقائله، ويمكن تعميم هذا القانون الاجتماعي على الحضارات المنتسبة إلى حضارات سابقة عليها؛ فيصدق القانون نفسه على الحضارة الهندية والعربية والإيرانية، والأخيرين ينتسبان إلى المجتمع السوري.

إذن كان لتلك الهجرات واستيطانها بتلك الأراضي الجديدة ميزة تتمثل في كونها شكّلت فيما بعد ومهّدت لظهور الديانات الكبرى، ليس هذا فقط، بل نجد ذروة ازدهار الحضارات و أمجادها تمت بتلك المناطق الجديدة التي لم تكن موطنا لأولئك الرواد الأوائل، ويشرّع لنا توينبي طرح سؤال تقريري إجابته معروفة مسبقا عن الموطن الذي ازدهرت فيه الحضارة المسيحية الأرثوذكسية، وأظهرت فيه عنفوانها؟ ألم تكن في أعنف قوتها في الأجزاء الوسطى والشمالية الشرقية من هضبة الأناضول، وفي روسيا "هل تعتبر هذه المناطق الثلاث أرضا قديمة أو جديدة؟ أما من جهة روسيا فإن السؤال لا يكاد يحتاج إلى رد، أما عن المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من الأناضول فلا ريب أنها كانت أرضا حديثة بالنسبة للمجتمع المسيحي الأرثوذكسي، وإن كانت قبل ذلك بألفي سنة مضت موطن الحضارة الحيثية"[195].

إن الناظر إذا ولّى وجهه شطر الحضارة الهلينية سيجد أن الأرض التي ازدهرت عليها جديدة أيضا، إذ لم تحتفظ الحضارة المينوية هناك إلا بحصون على السواحل الجنوبية والشرقية، ولم تلعب مراكزها الثقافية كما هو الحال في جزائرCyclades أي دور رئيسي في الحضارة الهلينية، بل على العكس لم يتعدّ دورها دور الخادم الذليل لسادة البحر الجدد، ونفس القول ينطبق على مركز الحضارة المينوية في جزيرة كريت، ولعل اختلاف المينويين في الموطن الذي أتوا منه أثار حفيظة اليونانيين فكرهوا الاستعانة بهم تمييزا لهم عن العرق الأثيني.

[195]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص169.

بل يذهب **توينبي** إلى توكيد هذه العنصرية اتجاه مركز الحضارة المينوية سابقا إلى أنه في الوقت الذي شهد عظمة الحضارة الهلينية وضاقت شوارعها بالفلاسفة العظماء والساسة المحنكين والفنانين المبدعين فقد ظلت كريت محفوفة ومحجوبة عن هذا النور الذي بلغ الآفاق، " لم تنجب كريت شيئا ذا صيت سوى مشعوذين و جنود مرتزقة وقراصنة، وأصبح لصفة كريتي في الأيام الأخيرة في اللغة الهلينية معنى مماثل لمعنى صفة بؤيثي، وفي الواقع فإن الشاعر الكريتي قد حكم على نفسه عندما ألف بيت الشعر السداسي الوزن الذي أشير إليه في كتاب المسيحيين المقدس في العبارة الآتية: قال واحد منهم وهو نبي لهم خاص، الكريتيون دائما كذابون، وحوش رديئة، بطون بطالة"[196].

بقي أن نطبّق نفس الاختبار على مجتمع الشّرق الأقصى ففي أيّ موطن أظهرت تلك الحضارة عنفوانها؟

إذا أردنا البحث عن أقوى ممثلي ذلك المجتمع فلا شكّ أننا سنضع كلا من اليابانيين والكانتونيين أو الكوريين على هرمه، وكلا الشّعبين بالنسبة لتاريخ الشرق الأقصى قد ظهرا في أرض جديدة بالجنوب الشرقي خلال قرون متأخرة أي في حدود القرنين السادس السابع بعد الميلاد.

نلاحظ أن الأدّلة تظافرت جميعها في إثبات أن الأرض الجديدة تهيّء حافزا أقوى للعمل مما تهيّؤه الأرض القديمة، بل يبرز الحافز بشكل أقوى فيما لوكانت الأرض الجديدة تنفصل عن الأولى برحلة بحرية؛ ويمكن ملاحظة أثر حافز مثل هذا في الحواضر التي أنشأت على مستعمرات جديدة قرطاجنة السورية وسيراكوز الهلينية وجنوب إيطاليا مثلا والتي أصبحت في العالم القديم مراكز تجارية وفكرية فاقت مدنها الأصلية الأم التي ركنت قرنا بعد قرن إلى الخمول والركود.

[196]– المصدر نفسه، ص171.

ويندرج ضمن هذا الدافع تلك الهجرات البحرية التي لم تنقل الإنسان من ضفة إلى أخرى فحسب، بل ارتحل هناك معه حافز آخر لتلك التجربة الحضارية تمثل في انتقال الأنظمة الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين إلى تلك المواطن الجديدة.

يذكر **توينبي** ست هجرات رئيسية مهّدت في نظره لظهور تصورات جديدة عن الآلهة والبشر:

1-هجرة التيوكريين والأيولين والقوميات اليونانية عبر بحر إيجة إلى آسيا الصغرى، الساحل الغربي للأناضول.

2-هجرة الفلسطينيين والتيوكريين إلى ساحل سوريا بعد سقوط الحضارة المينوية.

3-هجرة الجوت والإنجليز إلى بريطانيا بعد سقوط الحضارة الهلينية.

4-هجرة البريطانيين عبر بحر المانش إلى منطقة النورماندي

5-هجرة الإيرلنديين الاسكتلنديين إلى آرجيل خلال الفترة نفسها لهجرة البريطانيين

6-وأخيرا هجرة الفايكنج الاسكندنافيين

وكان منطقيا أن قامت عقب هذه الهجرات مقام الآلهة القديمة هيئات متحدة من الآلهة تسيطر على العالم ذو طبع مماثل لدين حملته الجدد كما يلاحظ " ولقد بعث دين الفايكنج إلى الوجود إلها جديدا هو أودينOdin قائد البشر وسيد ميادين القتال، ومهدت هجرة الكلت الاسكتلنديين البحرية من إيرلندا إلى شمال بريطانيا السبيل بطريقة مشابهة تقريبا لدخول دين جديد، ولم يكن من قبيل المصادفة أن أصبحت دالريادا Dalriade

فيما وراء البحار، مركز حركة القديس كولومب التبشيرية التي كانت إيونا Iona نقطتها المركزية"[197].

ضف إلى ذلك أثرا إيجابيا انبثق عن تلك الصعاب والمحن إبان فترات الهجرة البحرية وهو سياسي بحت لا علاقة له بالأدب والدين، حيث قامت أنظمة سياسية جديدة لا تراعي العصبية والقرابة؛ مثلما يظهر جليا في المقاطعات اليونانية أبوليس ودوريس وأيونيا فقد اعتمدت في مبدأ التشريع الدستوري على مبدأ تنظيمي قائم على القانون والمكان لا وفقا للعرف والقرابة، وهذا على سبيل المثال لا الحصر،إذ إن **توينبي** يعدّد النتائج السياسية للهجرات الستة جميعها.

ثانيا: الدوافع الخاصة بالبيئة البشرية: ويقسمها كالآتي

أ) الدافع الناتج عن الضربات:

إن البيئة البشرية التي تكون خارج جغرافيا المجتمعات تشكل عن طريق الحروب والهجمات دافعا ينجر عنه ردودا داخلية تكون في نهاية المطاف بذرة لنشأة حضارة فتية، من خلال ملاحظة ردة الفعل التي يمكن رصدها في الكوارث المترتبة عن تلك الحروب، وبما أنه كلما عظم التحدي عظم الحافز فإن توينبي يستشهد هاهنا بالغزو البربري لروما، والذي كاد أن يعصف بما أحرزته من ملك وسلطان، فكان هو نفسه الذي مهد لها فيما بعد انتصارها الهام بعد صراع طويل وحصار دام عشر سنوات لمدينة Etruscan Veii، وهذا ما مهّد لها الطريق لاحقا لبسط سيطرتها على بلاد اللاتين، وفي أقل من نصف قرن كانت إيطاليا جميعها تحت نفوذها وزعامتها.

ويمكن ملاحظة نفس النتائج بعد النكبة التي حلت بالعثمانيين بعد أسر تيمورلنك للسلطان بايزيد فلم يمض نصف قرن بعد هذه الفاجعة حتى كان السلطان محمد الفاتح قد

[197]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص176.

استولى على القسطنطينية ووضع الحجر الأساس لنهاية الحلم العثماني وبداية الإمبراطورية العثمانية.

هكذا يستمر توينبي في عرض الشواهد التاريخية التي تؤيد وجهة النظر القائلة كلما عظم التحدي عظم الحافز، "أدهش القرطاجنيون العالم مرتين حتى بعد هزيمة هانيبال(في الحرب البونية الثانية)، إبان نصف القرن الذي انقضى قبل دمارهم النهائي:

الأولى؛ بسرعتهم في تسديد تعويضات الحرب واستعادة رواج تجارتهم.

والثانية؛ بالبطولة التي أظهروها رجالا ونساء وأطفالا في القتال والموت في الصّراع النهائي"[198].

ويستمر في بسط الأمثلة العديدة المؤيدة لوجهة النظر السابقة من الناحية الروحية، فإن أعظم دليل وضوحا على الحافز المترتب عن الضربات يمكن استقصاؤه في تلك الردود الدينية الملاحظة في أعمال الرسل والمبشرين، وكما قيل على لسان المسيح إن ما تبشرون به سرا في جنح الظلام لسوف ينادى به نهارا على رؤوس الأشهاد، وكان الأمر كما بشر به المسيح عليه السلام، فلم تمض ثلاثة قرون حتى كانت الإمبراطورية التي كانت فيها أرواح الرسل والمبشرين في أوطأ حالاتها، مسيحية تدين بالنصرانية.

ب) الدافع الناتج عن الضغوط:

ويتأتى من البيئة البشرية التي تمتزج جغرافيا مع المجتمعات التي تكون على حدود حضارة ما، فإن الشعوب أو المدن التي تتعرض لضغط خارجي تقع في معظم الحالات في نطاق الجغرافيا السياسية في المناطق الحدودية " وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في تاريخ الحضارة المصرية" [199] في التحدي الذي واجهته في الجزء الجنوبي من قبائل

[198]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص183.

[199]– علم الدين نيفين جمعة، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص121.

النوبة التي غزت المنطقة الحدية إبان عصر تحتمس الأول(1557–1505) قبل الميلاد، وفي المنطقة الحدودية الشمالية التي شهدت ضغط برابرة ليبيا وممالك الجنوب الغربي لآسيا على منطقة الدلتا، وكان هذا الحافز الذي نجم عن ذلك الضغط هو الذي جعل تلك الأقاليم المهددة بالاجتياح والمعرضة للغزو هي صاحبة النفوذ السياسي في التاريخ المصري على جميع المناطق الأخرى التي لم تشهد مثل هذا الضغط.

وفي العالم الإيراني يمثل توينبي بين شعبين تركيين احتل كلا منهما إبان القرن الرابع عشر قسما من الأناضول؛ العثمانيون والقرمانيون خليفتا وورثتا الأملاك السلجوقية، لكن تاريخيا كان القرمانيون أوفر حظا من العثمانيين، فقد ورثوا كما يقول **توينبي** لباب المملكة السلجوقية مع عاصمتها قونية، بينما حصل العثمانيون على فضلات الملك السلجوقي كونهم آخر الوافدين أو اللاجئين إلى تلك المنطقة هاربين من بطش المغول، حيث خصص السلطان السلجوقي لهم شقة من الأرض على الحدود البيزنطية، لم يكن للعثمانيين خيار في الأراضي الممنوحة لهم كلاجئين فشكل ذلك حافزا نتج عن تلك الضغوط التي كانت يمارسها البيزنطيون من الجهة الغربية والمغول من الجهة الشرقية، وكثيرا ما تحالف الفريقان من أجل استئصال شأفة الإسلام من هذه الأرض الحدودية المكشوفة.

وأمام هذا الضغط أخذ عثمان على نفسه توسيع أراضيه على حساب جيرانه الأرثوذكس واضعا نصب عينيه مدينة بروصة التي استغرق تسعة أعوام ليستولي عليها (1317–1326ميلادية). ولهذا تنسب الإمبراطورية العثمانية إلى عثمان المؤسس، "فقد رفعتهم عبقرية عثمان العسكرية من مستوى البدو الرحل المفتقرين إلى النظم السياسية والوعي القومي، إلى مرتبة أسياد عظام لامبراطورية عظيمة في منتصف القرن الرابع عشر"[200]، فبعد ثلاثين عاما نجحوا كما يخبرنا **توينبي** في وضع أقدامهم على الشاطئ

[200]- النيهوم الصادق، مسيرة الحضارة، م2، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان،طرابلس، دط، 1976، ص108.

الأوربي للدردنيل، وقبل قبل نهاية القرن ذاته "غزوا بيدهم اليسرى القرمانيين وغيرهم من الجماعات التركية في الأناضول، بينما كانوا في الوقت نفسه يخضعون بيدهم اليمنى الصرب واليونانيين والبلغاريين ، وكان ذلك نتيجة الحافز المترتب على الحد السياسي."[201] والذي استجاب له العثمانيون استجابة ناجحة جعلت لهم موطنا إلى اليوم في تلك البيئة المعادية.

ج) الدافع الناتج عن العقوبات:

يعنون له توينبي حافز النقم هو عكس السابق لا يكون من خارج البيئة البشرية للحضارة بل يكمن في نسيج كيانها الاجتماعي، ويأتي نتيجة لاستبداد وطغيان الفئة الحاكمة؛ ذلك الكيان الذي فقد كل مقومات الإبداع و مبررات الاستمرار، لكن يأتي بنتائج عكسية للفئات المضطهدة التي تستجيب للتحدي استجابة إيجابية تغير من واقع المجموعة المضطهدة عن طريق القيم الجديدة التي تفرضها على الكيان المستبد كما في مسألة الرق والعبودية بأمريكا والعالم الجديد.

ينطلق **توينبي** في شرح هذا الدافع بتمثيله بطائفة من العوائق المادية التي تحول بين قيام بعض الأفراد بوظائفهم العادية في المجتمع الذي ينتسبون إليه، حالهم في ذلك شبيه بالمحنة التي يمر بها المعاق في مجتمع بربري مطلوب فيه من الرجل الدفاع عن قبيلته حين يقتضي الأمر ذلك، فإن كان كما وصفنا ورجلاه لا تقويان على حمله لميادين القتال" فما تزال يداه تستطيعان صنع الدرع والسلاح لأقرانه، يرتدونه ويستعملونه ويكتسب في الصناعة حذقا تدفعهم إلى الاعتماد عليه مثلما هو يستند عليهم،وهنا يصبح صورة عادية يومية من **هيفيستوسHephaestus** أو **فولولكان** الأعرج أو ..(الحداد **ولاندWayland**)المشهورين في عالم الأسطورة"[202]، ويقصد توينبي هنا الإلياذة التي

[201]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص190.

[202]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص211.

مجدت أعمال هؤلاء، فقد ذكر **امبرتو إيكو** أنه " حين عقد أخيل العزم على العودة إلى القتال طلبت أمه ثيتس من **هيفايستوس** أن يصنع لابنها أسلحة جديدة فانصرف إلى العمل. وقد كرّس **هوميروس** شطرا من الفصل الثامن عشر من الإلياذة لوصف الترس الذي أوقف هيفايستوس نفسه لصنعه"[203] وكذلك إذا عجز الأعمى البربري عن الحدادة وجد في الأشعار الحماسية وتقريظ الشعر ما يدفع بالمحاربين العظماء إلى ميادين القتال من أجل تخليد ذكراهم في أشعاره التي ستتلى في العصور المقبلة.

أما ما لا تفرضه ظروف كالتي سبقت ويمثل أقسى أنواع النقمة فهو العبودية، ذلك الألم الذي لايكاد يفارق الشعور الإنساني لإنسان لا يستطيع تحمّل ما يجري له إذ هو فوق ما يتصوره العقل، إنسان كان ينعم بحريته ويتنعم بالجو الأسري ثم يسحب فجأة رفقة بنيه وأهله إلى سوق الرقيق، وأشد الفترات التي تبدو لدى توينبي معبرة عن هذه المأساة خلال القرنين اللذين تليا حرب "هانيبال" و"سلم أغسطس"، وفي الأربعة قرون التي تمثلها روما التي أقامت مدرجات الاستعراض القتالية إلى حد الإبادة.

بيد أنّه كانت هناك طائفة من الرقيق استجابت لهذا التحدي بطريقتها، وذلك بالارتفاع في خدمة أسيادهم والترقي فيها– كون الأمر لا يخرج عن هذه الطريقة إلا إلى الموت المحتوم والقدر المشؤوم– حتى تولوا في ظل الدولة العالمية تلك الأملاك الواسعة وأداروها بأنفسهم، ولم يقف الأمر عند حدود الامتلاك بل تعدّاه إلى إدارة الحكم حين اتسعت أملاك قيصر اتساعا يستحيل معه إدارتها إلا من الرجال الأكفاء، فيما أدار بقيتهم ما نستطيع اليوم تسميته بالمؤسسات الاقتصادية الناشئة وغدا الروماني الأصيل المنبت يمجّد حكمة أبيكتيتوسEpictetus العبد الأعرج لأحد بطانة الطاغية نيرون، إضافة إلى إيمانهم الراسخ بالقيم المسيحية بعد اعتناقهم لها وضربهم أروع الأمثلة في اعتقادهم الذي

[203]– ايكو أمبرتو، لا نهائية القوائم، تر ناصر مصطفى أبو الهيجاء، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، الإمارات العربية المتحدة،ط1 2013، ص11.

" يحرك الجبال من مواضعها، ولما شاهدت السلطات الرومانية خلال القرون الخمسة الواقعة بين حرب هانيبال واعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، معجزة إيمان الرقيق هذه تجري تحت أنظارهم وتتكرر متحدية جهودهم لوقف تيارها بالقوة البدنية، اضطرت هي نفسها في نهاية الأمر إلى الاستسلام لها، فإذا كان الأرقاء المهاجرون قد فقدوا دورهم وأسرهم وأملاكهم إلا أنهم احتفظوا بعقيدتهم"[204]، والتي مكّنتهم في نهاية المطاف من جعل الأسر الحاكمة في أوربا تدين بدينهم ولهم.

[204]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص213.

المبحث الثالث:

نمو الحضارات

2-1 الحضارات المتعطلة

2-1-1الحضارات المتعطلة بسبب تحد طبيعي

2-1-2الحضارات المتعطلة بسبب تحد بشري

أثبت توينبي في المبحث السابق أن الحضارات إنما تنشأ في بيئات تتسم بالمشقة غير العادية، ولقد رأينا خلال استعراضنا لنشأة مختلف الحضارات أن الظروف الصعبة لا السهلة هي التي استثارت في الإنسان قوى الإبداع، واستدللنا طيلة المبحث السالف على ذلك بتقديمنا عرضا للاستجابات التي كانت نتيجة للدوافع الخمسة التي ذكرناها، وينتهي **توينبي** بعد العرض المستفيض لكيفية انبعاث الحضارات إلى طرح سؤال عن مدى صحة القانون الاجتماعي الذي رافقنا طيلة التحليل "كلما عظم التحدي عظم الحافز"، هل إذا زاد التحدي إلى ما لا نهاية يعظم معه الحافز إلى ما لا نهاية؟ أم لتلك الاستجابة حدا لا تتجاوزه؟ وهي حالات ينوه توينبي إلى إيجاد أمثلة واضحة عليها في البندقية التي بلغت من المجد والثراء مالم تبلغه أية مدينة أوربية أخرى، رغم أنها مدينة بنيت على أعمدة غرست في الطين، وبالمقابل قدّر لإمبراطور روما أن يرى انهيار الجزء الشرقي من مملكته تنهار أمام التحدي الإسلامي ليبطل الخليفة عمر كل طابع هيليني عملت عليه الأيادي طيلة قرون إلى الأبد، بينما لا نضمن نفس النتائج دائما كما رأينا، وبقي هناك حد ثالث هو وسط بين السابقين هو الوسط الذهبي حيث لا تقل شدة التحدي كما في الحد الأول ولا تعظم عن المتوسط كما في الحد الآخر، وهذا ما يصطلح توينبي على تسميته بالاستجابة الناجحة.

أما ما نحن بصدد معالجته في هذا المبحث فهي حالات عن حضارات متعطلة كان التحدي فيها خروجا عن الوسط الذهبي الذي يكفل الاستجابة الناجحة، وسنرى مع توينبي أنواع التحدي التي كانت سببا في توقف نمو هذه الحضارات، هؤلاء الغزاة الذين أصبحوا عبيدا حين أسرهم الغزو، أولئك السادة الذي بلغوا في التحدي مبلغا جعلهم في الأخير يرزحون تحت رحمة المالك الجديد الذي كان يستهويهم فيما مضى.

الحضارات المتعطلة:

يستهل توينبي الفصل التاسع من كتابه بهذا العنوان ويمثل له بالحضارات الآتية البولنزيون والاسكيمو والبدو، وهو ينبّه أوّل الأمر إلى انصراف ذهن القارئ إلى عدم ضرورة البحث في هذه الحضارات للاستنتاج البديهي لمسألة النمو بعد النشأة إذ هو أمر مفروغ منه بداهة، ويستوضح المقصد بالسؤال التالي " هل نلاحظ –كمسألة تاريخية مقررة–أن الحضارات التي تغلبت على أخطار الميلاد والطفولة المتتالية، تنمو كلها دون استثناء نموا ثابتا مقررا؛ إلى مرحلة الرجولة؟..هل تواصل كلها دون أي استثناء نموها الطبيعي إلى أن توفق إلى السيطرة على أسلوب حياتها والبيئة التي تعيش فيها؟..الإجابة هي أن بعضها لا يقيض لها ذلك"[205].

إنّ توينبي يعني بها ما يسمّيه بالحضارات المتعطلة، تلك الحضارات التي انبعثت إلى الوجود وظلت على قيد الحياة لكنها أخفقت في متابعة نموها، ويقسمها إلى نوعين: نوع انبعث استجابة لتحد مادي ويمثل له بالحضارات الثلاث المذكورة آنفا، ونوع آخر جاء نتيجة استجابة لتحد بشري شديد الوطأة زمن انبعاثها وفي ظروف خاصّة كالجماعات الشاذة مثل العثمانيين في جغرافيا المسيحية الأرثوذكسية والإسبارطيين في العالم الهليني.

ومن هنا تحتم علينا دراسة مشكلة نمو هذه الحضارات التي يشبهها في المثل الذي ضربه بشأن متسلقي المنحدر بأولئك الذين وصلوا إلى نقطة محفوفة بالمخاطر لا يستطيعون معها حراكا إلى الأمام أو الخلف فهم على درجة عالية من التوتر.

1–الحضارات المتعطلة بسبب تحدّ طبيعي:

يصوّر لنا توينبي حضارة الإسكيمو* من الحضارات الفارقة والمنظورة لما تثيره من دهشة، كون ثقافتها مطبوعة بالإرادة والإدراك، فقد اضطرت إلى بذل طاقة عظيمة من

[205]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص275.

أجل تنمية أساليب البقاء في بيئة قطبية تتميز بالقساوة وتحتاج إلى مرونة وجدول مواعيد صارم، وهذا الطغيان الطبيعي على الصياد القطبي نجد نظيره في الطغيان البشري بالمرحلة الصناعية.

ويفيدنا علم الآثار الإسكيمو ؛ وهو علم حديث نسبيا أن ثقافة تول وهي ثقافة الإسكيمو " منتشرة إلى حد كبير من سيبيريا إلى الساحل الشرقي لجرينلاند، وتعتبر مناطق كندا الأثرية الأقدم بين جميع ثقافات الإسكيمو "[206] وفي الواقع تجدنا مدفوعين إلى التساؤل بعد اضطرارهم هذا إلى المواءمة بين الظروف القاسية وأساليب البقاء عمّا إذا كان الإسكيمو سادة أم عبيدا للطبيعة القطبية؟ ونفس السؤال يمكن طرحه بخصوص الإسبرطيين والعثمانيين، " فبينما كان الإسكيمو يصارعون الجليد، والبولنزيون يصارعون المحيط، كان للبدو الذين استغرقوا في تحدي السهب الجسارة على مراعاة عامل مساو لهذين في العناد.فإن السهب بسطحه العشبي والحصبائي يشابه علاقته بالإنسان بحرا لا يحصد (كما يدعوه هومير)، أعظم من مشابهته اليابسة التي يسهل علاجها بالمجراف والمحراث. ولسطح السهب وسطح الماء شيء مشترك، وهو أنه لا يسهل للإنسان الاقتراب منهما إلا حاجا أو زائرا"[207]، مع الإشارة إلى أنهما مكان لا يستطيع الإنسان الإقامة فيه إقامة مستقرة، بل تجعل منه دائم الأهبة للسفر والانتقال وهاهنا وجه التشابه بينهما.

و**توينبي** لا يقف عند هذا الحد بل يضرب أمثلة لذلك، فتتبع المراعي صيفا وشتاء يشبه تجول الأسطول للصيد وفقا للمواسم، وقوافل التجار في المراكب البحرية شبيه بقوافل

*الإسكيمو من الشعوب البدائية، وهم اليوم لا يزيد عددهم على 40 ألف نسمة منتشرون على سواحل المحيط المتجمد الشمالي في ألاسكا وشمال كندا وفي جزيرتي بافن وغرونيلد(للاستزادة انظر: موسوعة بلدان العالم بالأرقام ل شربل، مرجع سابق ،ص 10 وما يليها).

[206]- Malaurie Jean, Archeologie eskimo, Annales de Geographie, AROND COULIN , Paris, no 336, 1954,p 157.

[207]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص279.

راكبي الجمال، وقراصنة البحار يشبهون غزاة الصحراء، وهذه تحركات يمكن ملاحظتها في النورديين الذين انحدروا نحو شواطئ أوربا كالأمواج، ومثل العرب الذين ساقهم تتبع المراعي إلى الأراضي الخصيبة في مصر والعراق، وهذه الاستجابة من قبل هؤلاء البدو استثارها نفس التحدي المادي وهو الجفاف الذي سبقت الإشارة إليه في الحضارات التي نشأت على الضفاف، ولكنها استجابة هروب إن صحّ تعبيرنا إلى مناطق شبيهة بمناطقهم الأولى؛ كأجداد **الدنكا** و**الشيلوك** وهي قبائل لا تزال تعيش إلى اليوم بجنوب السودان التي اضطرت لتدبير معاشها في الأشكال البدائية للزراعة في المنطقة الاستوائية، وعاشوا بعد ذلك بدوا إلى يوم الناس هذا، ويمكن ملاحظة نتائج هذا في الصراعات القبلية في تخوم النهر الأعلى للنيل بإقليم جنوب السودان ودارفور، ويستخلص من هذا أن هذا النوع من الزراعة البدائية سابق لمرحلة البداوة.

أما الدليل الذي يورده توينبي فهو الدليل الأثري في **آنو Aneau** فيما وراء بحر قزوين ، فقد شهدت هذه الجغرافيا شدة جفاف استجابت لها شعوب المنطقة بطريقتين؛ آثر الفريق الأول عدم تبديل العادات عن طريق تغيير الموطن، بينما آثرت طائفة الارتحال إلى تحد أعظم من الأول تمثل في هجران الواحات إلى السهب الشحيح " وجازفوا بوجودهم اعتمادا على الفن الذي اكتسبوه حديثا وهو تربية الماشية، وانحدروا إلى السهب ليتخذوه لهم مقاما، لا ليتجاوزوه إلى ما ورائه. فأصبحوا بذلك بدوا، وإذا قارنا بين حضارة البدوي الذي هجر الزراعة ومكّن لنفسه في السهب، بحضارات إخوانه الذين احتفظوا بتراثهم الزراعي بوساطة تغيير موطنهم نلاحظ أن البداوة تبدي تفوقها بعدة طرق"[208].

وبالنظر البسيط فإن استئناس الحيوانات ممن نزلوا السهوب في نظر **توينبي** إنما هو انتصار على مادة يصعب قيادها ويحتاج إلى فطنة وإرادة، واستئناس الحيوانات أعظم من استئناس النباتات، والراعي أعظم فنا من المزارع، فهو يستخلص طعامه من الحشائش

[208]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص282.

الخشنة التي تأكلها ماشيته فتتحول لبنا سائغا للشاربين ولحما، ولتوفير الطعام لها كّيف حياته كلها مع البيئة القاسية وفقا لمواسم وتواقيت دقيقة تطلبت منه سلوكا منتظما وخلقا متينا.

وعلى هذا نستطيع الإجابة عن السؤال الذي طرحناه في البدء، فقد دفع البدوي والاسكيمو كلاهما ثمنا لهذا النجاح في تذليل الصعوبات الهائلة بأن استعبدت البيئة كلا منهما بطريقة غادرة، وهم وإن أصبح أسرهم سببا في تعطل حضارتهم وضياع ميزة السبق بين باقي المجتمعات، غير أن مسرح التاريخ لم يخل من علامة تثبت وجودهم " إذ دأبوا من حين لآخر على الإغارة على موطن الحضارات المستقرة المجاورة، ودفعوا في بعض المناسبات شيء أمامهم. ولكن هذه الانتفاضات لم تكن تلقائية في أي وقت من الأوقات.لأن البدوي عندما تدفق من السهب واعتدى على بستان الزارع، لم يتحرك عن نية متعمدة في تغيير دورته المألوفة، بل إنه استجاب آليا لقوى خارجة عن إرادته"[209]، فقد يدفعه خارج السهب جفاف مهلك، وقد يكون نتيجة تغيرات اجتماعية كبيرة كانهيار حضارة مجاورة لا تملك حيالها شيئا، وهاهنا يقصد توينبي الصراع بين البدوي والفلاح، البدوي الذي يمثل له باقتحامات الأتراك والمغول في فترة الجفاف قبل الأخيرة، والمزارع الذي مثل له بروسيا أثناء توسعها شرقا.

وعلى المدى الطويل يبدو اعتداء المزارع أعنف وأشد إيلاما من مجازر البدو الوحشية، لأن المزارع يثبت أقدامه بكل أرض ينزلها بالفأس والمحراث ويبدو ذلك في غزوات المغول فرغم وحشيتها لم تدم لأكثر من جيلين، وخير دليل على هذا ما قام به **باتوخان** حفيد **جنكيز خان** سنة 1237م وتخريبه لكافة المدن الروسية باستثناء نوفغورود. وانظر إلى انتقام روسيا في ثأرها من المغول فلأكثر من أربعمائة عام لا تزال خلف الحدود الطبيعية لبلاد المغول التي أحاطت بها من الجهات الأربع، وبنظرة بسيطة

[209]–المصدر نفسه، ص283.

لخريطة العالم فقد امتدت خلف حدود القوزاق السلافيين شمالا نقصد سيبيريا و منطقة السهوب الجنوبية شرق أوربا، ثم جنوبا ما وراء كازاخستان وراء بحر قزوين كما يمكن ملاحظة اتساع خريطة روسيا شرقا من الصين مرورا بمنغوليا وغربا حتى كازاخستان.

ويقدّم توينبي مثالا آخر عن عنف المزارع اتجاه البدوي المغلوب، فالأخير إما يمحق من الوجود أو يتأقلم مع غازيه الجديد، ولا تتمّ عملية الإدماج بالسّلم أبدا فصيحة موت البدوي قلّما تسمع، وخير دليل يقدّمه توينبي ما نسمع تردد صداه إلى اليوم، فبريطانيا تنعى المجازر العثمانية للأرمن، لكن في الوقت ذاته وإبان الحرب الكونية الأولى " كان ثمة خمسمائة ألف من الناطقين بالتركية من بدو آسيا الوسطى الذين ينتسبون إلى اتحاد قازاق القرغيز، يبادون كذلك وفقا لأوامر عليا كذلك بمعرفة ما يزعم أنه أكثر البشر عدلا؛ أي الفلاح الروسي(الموجيك)"[210]، وهكذا ختم على نعش البداوة ودفن إلى الأبد على الأقل هناك في أوراسيا.

أما الحضارة الغربية المعاصرة فلم تترك موضعا برأي توينبي يمثل المجتمع البدوي إلا وأحالته بالكراهة إلى مجتمع زراعي، هاهم الأوربيون يغزون مراعي **الماساي Mosai**هناك في كينيا ويحيلونها إلى أراض زراعية، وهناك بشبه الجزيرة العربية لم تعد صحراء الربع الخالي حصنا كما في السابق أمام الغزاة بعد غزوها اليوم بالطائرة وسيارات الدفع الرباعي، فغدا آخر معقل لموطن البداوة الأفراسية يحول أبناؤه قهرا إلى النشاط الفلاحي، ولا يجامل توينبي حين ينبه إلى أن اليد التي امتدت إلى هذه المناطق لم تكن في الحقيقة يد الملك عبد العزيز آل سعود، بل كانت الشركات النفطية الأمريكية التي تحصّلت على امتيازات التنقيب وحفر الآبار الارتوازية.

[210]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص285.

لا يزال إلى اليوم العمل جاريا من أحفاد الملك للقضاء على ما تبقى من روح الأصالة، ففي وقتنا الحالي رصدت المملكة أموالا طائلة من أجل مسخ المنطقة مسخا قد يؤذن بكل تأكيد بحلول ساعة البداوة الأخيرة، نقصد بذلك مشروع **نيوم** الذي أطلقه وليّ العهد السعودي، مشروع قال عنه ولي العهد بحضور عراب النهب كوشنير صهر الرئيس الأمريكي ترامب أنه يستهدف مستقبل الحضارة الإنسانية، ومن قطاعاته الاستثمارية التسعة الترفيه والغذاء ولا يكون ذلك إلا بزوال ما تبقى من عبق البداوة.

إذن وكما رأينا فإن حضارة البدو والاسكيمو إنما تعطلت وكان توقف نموها وتطورها ثمنا لنشاطها المفرط في الاستجابة لتحد طبيعي مبالغ فيه، وكان ذلك الثمن باهظا إلى درجة زوال البدو نهائيا، وأصبحت اليوم حضارة الاسكيمو تحت نفس التهديد لكنه تهديد مناخي تسببت فيه نفس الحضارة التي كانت سببا مباشرا في تعطل حضارة البدو؛ الحضارة الغربية.

2- الحضارات المتعطلة بسبب تحدّ بشريّ:

يبسط توينبي الحديث بعد ذلك عن نموذجين من الحضارات المتعطلة وهم العثمانيون والإسبرطيون، لينتهي في الباب الثالث إلى خصائص عامة مشتركة لجميع الحضارات المتعطلة، لكن الفرق بين العثمانيين والإسبرطيين ومن سبقهم أن التحدي الذي خرج عن حدّ الاعتدال وبلغ من الشّدة مبلغا أدّى إلى توقّف كلّي لتلك الحضارات عن النمو، والذي واجهوه لم يكن تحديا طبيعيا بل كان بشريا.

يرد توينبي في البدء الأسباب إلى أن الأصل الذي طبعت عليه تلك الحضارات هو البداوة، لكن بتحولّها من بدو يسعون في كفالة الطعام لقطعانهم ويتولّون مراقبتها أي رعاة ماشية إلى رعاة بشر فقد فقدوا خصائصهم في الكفاية من الناحية الاقتصادية فضلا عن الناحية السياسية.

بهذا غدوا يعاسيب كما يشبههم توينبي تستغلّ جهود الآخرين، واستحالوا إلى طبقة تحكم وفقط دون أن تسهم في العمل، بل تستولي على أرزاق الشعوب التي تحت سلطانها، التي لو قدر لها التخلص منهم لكانت حالهم أفضل بكثير من وجودهم تحت حكم هؤلاء الدخلاء، وهذا هو سبب انحلال تلك الإمبراطوريات التي أقامها البدو الغزاة.

هاهنا يلفت **توينبي** أنظار القراء إلى تلك العبقرية الإسلامية؛ **ابن خلدون** في حديثه عن الأعمار الطبيعية للدول، فهو بنظره " كان يفكر في الدولة البدوية لما قدر لها أعمارا طبيعية-كما للأشخاص-لا يجاوز مجموعها ثلاثة أجيال. وحقا، فإنه ما إن يستكمل الغزو حتى يتحلل الفاتح البدوي نتيجة لابتعاده عن عنصره الخاص وتحوله من الناحية الاقتصادية إلى شخص زائد عن الحاجة.على حين يتحسن قطيعه البشري، بفعل استمراره في أرضه ذاتها وتواصل بقائه منتجا من الناحية الاقتصادية. ويعيد توكيد طبيعته البشرية بقيامه بطرد حكامه الرعاة أو باستيعابهم."[211]

لكن قد يصدق قول ابن خلدون في الأفاريين وهم أحفاد شارلمان أو في المغول، لكن نجد الأمر مختلفا بخصوص العثمانيين إبان سيادتهم على العالم المسيحي الأرثوذكسي، ولذلك تفسير عند توينبي يظهر في رسالتهم السياسية، والمتمثلة في تزويد محكوميهم من المسيحيين بالدولة العالمية والذي أطال بقاءها في أوربا لمدة تفوق الجيلين كما هو حال الحضارات التي أقامها البدو قبل ذلك، رغم أنهم كانوا عبئا من الناحية الاقتصادية، فاستمرت هناك بتلك الأرض الغريبة عن موطنهم ما يزيد عن 400سنة؛ من سنة 1372م تاريخ غزو مقدونيا إلى 1774م تاريخ الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بتحطيم الأسطول العثماني وتوقيع معاهدة كوجوك كاينارجا التي تنازل فيها العثمانيون عن أوكرانيا والقرم ورومانيا ومنطقةWallachia والتي تقع شمال نهر الدانوب، إضافة إلى 15000 كيس من الذهب مقابل بقاء سلطة الهلال على مصر والشام.

[211]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص289.

بل يفيدنا المؤرخون أن العثمانيين وهم في طور قوّتهم لم يتحوّلوا أو يحيدوا " عن تقديس حرية الأديان، بل إنه لما اعترض على محمد الفاتح لعدم تخييره رعيته من النصارى بين الإسلام والقتل على ما هو عليه من السلطان، قال: كم هو فوق الواجب الادّعاء بالحرص على الإسلام زيادة على حضرة الشارع، وهو يشير بذلك إلى أن النبي لم يفعل ما يقترحونه عليه "[212]، ولو كان النصارى يفعلونه حينئذ في إمارات الأندلس التي كانت تتداعى الواحدة عقب الأخرى.

لقد أشرنا قبل إلى سر البقاء طوال هذه الفترة في السياسة التي انتهجها العثمانيون اتجاه رعاياهم؛ والتي مردها إلى عناية السلاطين بمساعديهم الأرقاء وتدريبهم لمباشرة المهام الإدارية والعسكرية بالكفاءة التي تشدّ من بنيان الدولة الحديثة وتقويها، للاحتفاظ بسلطانها على العالم المسيحي الشرقي؛ وهي سياسة قائمة في المقام الأول على إدماج هؤلاء المماليك من سائر الديانات في تلك الوظائف العليا بعد تأهيلهم لها بتلقينهم قانونا ودينا وأخلاقا خاصة أشبه في الفداء بتعاليم الحشّاشين، فجعل من أولئك الأرّقاء وزراء ورجال دولة أقوياء وقادة في الجيش مقتدرين، ويشير توينبي أن بعضا من رجال حاشية السلطان كان بدء شأنه صبيا راعيا للغنم أو وراء محراث فارتفعوا حتى علت مراتبهم وتزوجوا الأميرات بعد أن اصطبغوا بالصبغة الإسلامية فلم ير فيهم أسعد حظا ممن نكست على يديه رايات الصليب ورفع راية الهلال بدلها، فيرتفعون بعملهم لا بنسبهم.

إن الفهم الأفضل " للنظام الطبقي الذي تدين له الإمبراطورية العثمانية بلا شك بطول عمرها يرجع للمكان الذي كانت تحتله الأقليات، وخاصة المسيحيين الذين قدّموا للدولة العديد من الخدم والخدمات بدءا من الإنكشارية وصولا إلى الوزير"[213] والغريب أننا نجد القانون مطردا في سائر الحضارات، لا يعلو بنيانها ولا يذيع صيتها إذا اقتصر

---

[212]– بيهم محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، دط، 1925، ص121.

[213] - Lewis Bernard, Istanbul and the civilization of the Ottomane Empire,vol 9, University of Oklahoma, USA, 1963,p 33.

تشييد صرح الحضارة على القومية، فلم نعرف الحضارة الإسلامية إلا خارج حدود شبه الجزيرة العربية، وكان أزهى عصور الإسلام صدر الخلافة العباسية حين جلب المأمون إلى عاصمة الخلافة أرباب الفكر والصنائع من الملل المختلفة، وأزهى عصور حضارة الأندلس عصر عبد الرحمن الناصر حين اتخذ من الصقالبة زينة للدولة، ومن الإمارات التابعة لسلطانه نقطة جذب للشباب الأوربيين من أجل نيل مناصب عالية في بلدانهم بالدراسة في جامعات قرطبة واشبيلية، ولم تكن روما لتصبح دولة عالمية وتفك عن نفسها أغلالا قيدتها إلى الحروب الدائمة التي أنهكتها قبل أن تصدر مرسوما يقضي بإدماج الرعايا المسيحيين و جعلهم مواطنين رومانيين.

أما الحضارة العثمانية فكان لها شأن عجيب مع النوابغ أشبه ما يكون بالنظم التعليمية المعاصرة في الدول المتقدمة، فكما جاء في وصف العالم الدبلوماسي جيسلين سفير بلاط هايسبرج لدى السلطان سليمان " حسدت الأتراك على نظامهم هذا، إنه أسلوب الأتراك دائما عندما يوفقون إلى اقتناء رجل كريم الخصال إلى حدّ غير عادي، فنجدهم يطربون ويسرّون غاية السرور، كما لو أنهم قد عثروا على لؤلؤة غالية الثمن، ويبذلون في سبيل إبراز جميع مواهبه كل ما يسعهم من الجهد والفكر ولا سيما إذا رأوا فيه كفاية عسكرية، ولاريب أن طريقتنا الغربية تختلف عن ذلك كل الاختلاف، إذ نسرّ في الغرب أن حصلنا على كلب أو شاهين أو حصان ممتاز"[214]، وما جعل السفير يعقد المقارنة بين أوربا والعثمانيين في المسألة السالفة الذكر هو التنبيه إلى اختلاف الرؤى بين الفريقين إلى الإنسان؛ الذي عرف العثمانيون كيف يجتنون ثماره إلى أبعد الحدود، بينما لا يتجشّم نظراؤهم الأوربيون نفس القدر من المتاعب إذا ما وفقوا في العثور على رجل موهوب، بل لا يرون له أولوية حتى في الاهتمام بتعليمه وترقيته.

[214]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص296.

إن عنصر الإبداع هذا في الحضارة العثمانية و الذي وقف عليه العثمانيون هو الذي غيّب في النهاية فاندثر النظام بسببه، ففي نهاية القرن16م، القرن الذي أصبح فيه الالتحاق بالرتب العليا غاية من أجل الحصول على امتيازات شخصية، وغير مبني على الكفاءة كانت قد فتحت الأبواب على مصراعيها لكل طامح وطامع، ولم تعد الأهمية بنفس القدر لأولئك الذين كان النظام يبذل في سبيل اقتناءهم من الأرقاء وأهل الملل الأخرى الغالي والنفيس فضعفت كفايتها وتضعضع نظامها، وارتدت إلى بنيان الحضارة الحاضنة تعمل فيه نقضا وهدما لما يزيد عن القرنين من 1682–1922م ؛ وهو تاريخ سقوط الخلافة العثمانية.

ولم يكن اضمحلال نظام الرق العثماني هو العيب الوحيد عند **توينبي** الذي قضى على تلك الحضارة، وإن استحال بعد ذلك تشكيله أو إعادة صياغته بعد تصدّعه، بل يضيف محاكاتهم لأعدائهم الغربيين وطرائقهم، لتنتقل تلك المحاكاة أخيرا إلى السياسة على يد مصطفى كمال أتاتورك، والتي لم تشفع إلى اليوم لتركيا في الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، لتؤكد على مقولة وضع الشعب الشاذ في غير محيطه الطبيعي.

أما الإسبرطيون فقد واجهوا تحديا بشريا مثل الحضارة العثمانية، وإسبرطة مثلها مثل بقية الدول الهلينية شهدت في القرن الثامن قبل الميلاد انفجارا سكانيا، فاق في معدله ما يقابله من مصادر المعيشة المتوفرة، فكان استعمار الأراضي وغزوها وتوسعة جغرافيا الحضارة الهلينية الحل الأسهل لتنويع مصادر الدخل وإطعام الأفواه الجائعة، فاحتل الإسبرطيون أراضي البرابرة جيرانهم الميسينيين الذين قاوموا هذا العدوان فيما يعرف تاريخيا بالحروب الميسينية إلى الحد الذي خلفت معه المجتمع الإسبرطي " مقيدا بأغلال البؤس والحديد ، ولم تقيض للإسبرطيين الراحة أبدا من ذلك الوقت، وعجزوا دائما عن انتشال أنفسهم من رد الفعل الذي ألمّ بهم بعد الحرب. فإن الغزو قد أسر الغزاة، مثلما استعبد غزو البيئة المتجمدة الأسكيمو الغزاة. فإن الأسكيمو كما أصبحوا مصفدين بأغلال

دورة معيشتهم السنوية الصارمة، تقيد الإسبرطيون كذلك بواجب احتجاز أرقائهم الميسينيين"[215].

إن السمة المشتركة بين العثمانيين والإسبرطيين في نظر توينبي هي ازدراؤهم الطبيعة البشرية والتهوين من شأنها، غير أن الإسبرطيين لم يجعلوا للميسيني أيّ حق في امتلاك شيء، وفيما يتقاسمون أراضيه وأملاكه بالسوية بينهم يجعله المالك الجديد يتولّى زراعتها من أجل سد احتياجات العائلة الإسبرطية التي يتفرغ أصحابها لتكريس مواهبهم في الحرب، ومن ثم الحيلولة بينهم وبين ممارسة الحياة المنزلية بإجبارهم على الحياة داخل الثكنات، الأمر الذي أسفر عن انبعاث روح ساخطة مسحوقة لدرجة لا تحتمل، جعلت الفرد الإسبرطي لا يرى نفسه سوى عضو في عصابة تحترف القتل والقضاء على كل قنّ يبدي أدنى علامة تمرّد أو عصيان.

بمثل هذه الصرامة التي بثت تلك الروح ضاعت ميسينيا إلى الأبد، وقبل هذا المصير يقول توينبي أن أرسطو كان قد تنبأ به في عبارته الخالدة "أحرى بالشعوب أن لا تدرّب نفسها على فن الحرب بغية إخضاع جيران لا مبرر لإخضاعهم..يجب أن يغدو الهدف الأعلى لأي نظام اجتماعي تنسيق النظم الحربية مثل جميع النظم الأخرى، بغية اتفاقها مع ظروف السلام وقتما يصبح الجندي بعيدا عن الخدمة"[216]، هذا فضلا عن الضرر الذي لحق الحضارة الهلينية من هذه النزعة الانتحارية؛ النزعة الحربية.

[215]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص299.

[216]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق ، ص303.

طبيعة نمو الحضارات وارتقاؤها

توصلنا من خلال المباحث السابقة أن أشد التحديات استثارة، ماهو وسط في درجة متوسطة بين إفراط في الشدة ونقصان فيها؛ فقصور التحدي يعجز عن استثارة المتحدي، بينما إفراطه يحطّم روح المتحدي، فماهو التحدي الذي في مكنته أن يتكافأ تماما مع الطرف المتحدي؟

يوحي ما سبق معنا من الأمثلة أن التحدي هو ذلك الذي يستثير استجابات إلى أبعد حد يمكن تصوره مثلما شهدناه عند الإسكيمو والبلونيزيين والعثمانيين والإسبرطيين، لكن وصلنا إلى أن هذه التحديات كانت نقمة وسببا في تعطل تلك الحضارات في الوقت نفسه، فتلبية الاستجابة بسرعة لا يقوم دليلا قاطعا على مثالية التحدي في استثارته لأقوم استجابة.

تملي علينا هذه المقدمات البسيطة النتيجة التالية " التحدي الأمثل، هو ما يشتمل على كمية الحركة التي تحمل الطرف المتحدي خطوة أبعد من استجابة ناجحة بمفردها؛ تحمله من مرحلة استكمال الاستجابة إلى مرحلة صراع جديد، من مشكلة واحدة حلّت، إلى مواجهة أخرى. أي من حالة الين إلى حالة اليانج مرة أخرى"[217].

إن الحركة المتناهية في الاستجابات للتحديات المتجددة لا تقدّر للحضارة الارتقاء ومتابعة نموها، فلكي تتحول الحركة إلى إيقاع مستمر لا بد من الانطلاق الحيوي **Elan Vital** بتعبير **برغسون Bergson** الذي يحمل المتحدي حين تعرّضه لتحدّ جديد إلى استعادة توازنه عن طريق استجابة غضّة، وهكذا إلى ما لانهاية، فغدا نموّ الحضارات بمفهوم برغسون مرتبطا بسلسلة من عمليات رجحان الميزان.

[217]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص314.

يمكن تقصّي هذا في الحضارة الهلينية من الميلاد إلى الانهيار؛ فنقول تمثل التحدي الأول الذي واجه الحضارة الهلينية في تحدي الاضطراب والمحنة الناتجين عن انهيار في القيم الاجتماعية بعد تحلل المجتمع المينوي، فقد تبعه هجرات لشعوب وجنوح لشعوب أخرى " فهل قيّض لحضارة قديمة أن تدفن بقاياها تحت الحصباء التي أنزلها سيل البرابرة الطارئ نزول الهاطل؟ وهل قدر للأجزاء الفذة من الأرض السهلة في المنظر الطبيعي الآخي أن تخضع للفلاة الوعرة التي تطن حولها؟ هل يغدو زراع السهول المسالمون تحت رحمة رعاة الجبال وقطّاع طرقها؟ لقد جوبه هذا التحدي بنجاح؛ عندما استحالت هيلاس إلى عالم من المدن لا من القرى. عالم يستند على الزراعة لا على الرعي، عالم يسوده النظام لا الفوضى"[218].

لكن كما أسلفنا فإن نمو الحضارة وارتقاءها متوقف على مرونتها في الاستجابة المعتدلة والناعمة مع كل تحد جديد، فقد واجهها بالفعل تحد ثان يتمثل في ازدياد الكثافة السكانية، بعد انتصار النظام الزراعي في السهول بسلمية فاستخدمت لذلك طريقتين:

-إلحاق مناطق جديدة بالهلينية خارج بلادها الأصلية، وتم ذلك عسكرياعن طريق كتائب مستحدثة، الفيلق المدرع، وسياسيا بإنشاء المدن، فأصبح موطن الحضارة فسيحا على حساب سكان الجبال في الشمال، وقد مس هذا النظام " برابرة إيطالية و التشون Chones. وأقاموا بيلوبونيز جديدة في صقلية على حساب برابرة السيكليين، و شيدّوا بنتابوليس هلينية في برقة على حساب البرابرة الليبيين، وابتنوا تشالسيس جديدة على الشاطئ الشمالي لبحر إيجه على حساب برابرة تراقية"[219].

فهل سيقف سيل التحديات بالنسبة لهذه الحضارة الواعدة ؟ الإجابة بالتأكيد، لا، فما إن خرجوا من التحدي السالف حتى واجههم تحد جديد تمثل في التحدي البشري الذي

---

[218]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص315.

[219]- المصدر نفسه، ص316.

لاحت نذره في الأفق، فقد باتت الشعوب المستعمرة تستعمل نفس طرائق الهلينيين في العدة والسلاح لصد الاعتداء الهليني، وذلك باستحداث قوات خاصة تنسق فيما بينها، فنجحت في ذلك، إذ توقف التوسع الهليني أخيرا في الفرن السادس قبل الميلاد، بعد توسع دام لقرنين من الزمان ؛ من ق8-6 ق.م، وأمام هذا التحدي الأخير آثرت أثينا استجابة من نوع آخر له؛ فجابهته باستخدام الدراسة والتعليم لتحويل ذلك التوسع إلى رقعة ضيقة.

ويرى **توينبي** أن التحديات التي تتلو الاستجابة الناجحة المتواترة " مشروط في جوهر الأشياء، أن يبرز من بين ثنايا أي استمتاع بالنجاح-أيا ما يكون-شيء يجعل المزيد من الصراع أمرا ضروريا"[220]، في إشارة إلى عبارة **والت هويتمان Walt whitman** الذي عبر عن الاستمرارية في الاستجابة المتجددة للتحديات الطارئة بالاستطالة الإيقاعية.

وعليه فإن ارتقاء الحضارة لا يمكن تبينه إلا من خلال ترديد متعاقب تحدي-استجابة-تحدي جديد استجابة..وهكذا دواليك، ولهذا الارتقاء مظهران في الكون والإنسان صانع الحضارة، ففي الكون يبدو الارتقاء في الانتصار على البيئة الخارجية ، وفي الإنسان يتبدى في تقرير المصير.

أما البيئة الخارجية فتنقسم إلى بيئة بشرية وبيئة مادية، الأولى تظهر الاستجابة الناجحة على شكل توسع خارجي أو امتداد جغرافي، والثانية نقصد انتصار البيئة المادية فيتبدى في صورة التحسينات في الأسلوب الفني وطرائق العيش.

الارتقاء عن طريق التوسع الجغرافي:

إن التوسع الجغرافي لا يصدق أن يكون معيارا في ارتقاء الحضارة ارتقاء حقيقيا ما لم يصاحبه ارتقاء نوعي، فغالبا ما يمثل التوسع الجغرافي بداية خط الانحدار نحو انهيار

[220]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص316.

الحضارة؛ فقد أثبت التاريخ أن عصر اضطرابات المجتمع وانحداره يبدأ مع قيام الدولة العالمية، وعصر الاضطرابات يبرز انحراف الروح الإنسانية وجنوحها نحو التدمير المتبادل كما يمكن ملاحظته في النزعة الحربية، ومن ثم يؤسس المنتصر الدولة العالمية التي تجنح نحو التوسع الجغرافي، ومعلوم أن علة تدمير الحضارات على مدى " الخمسة آلاف سنة التي شهدت تحلل عشرين حضارة أو ما يقاربها، مما أمكن تسجيله إلى وقتنا الحاضر. وتقود النزعة الحربية إلى تدمير الحضارة، لدفعها الدول المحلية التي تترابط في نطاق المجتمع إلى الاصطدام بعضها ببعض في منازعات مدمّرة يقتل الأخ فيها أخاه"[221].

لكن صدفت الحضارة الهلينية كما سبقت الإشارة إلى ذلك عن المضي في النزعة الهجومية إلى حالة دفاعية؛ تمثلت في التحدي الفارسي من الشرق والقرطاجينيين من الغرب، فكانت هيلاس خلال هذه الفترة مكبوتة من النواحي جميعها ، ويستشهد توينبي بتعابير المؤرخين اليونانيين الذين عاصروا تلك الحقبة ؛ توكيديديس وهيرودوتس، تسودها اضطرابات وتحديات لم تشهدها جميع الأجيال التي سبقتها.

ربما اعتبر كثير من مؤرخي الحضارة هذا العصر هو أوج ازدهار الحضارة الهلينية، إلا أن المؤرخين اللذين سبقت الإشارة إليهما قبل قليل نعني توكيديديس وهيرودوتس يلتمس لهما العذر فيما قالاه، فهما إنما عنيا كل ذلك في ظل اضطرابات، وكانا شاهدين على بداية انكماش التوسع الجغرافي لتلك الحضارة، أما اعتبار الفترة عند المعاصرين أرقى فترات الحضارة الهلينية، فقد كان انصراف هذه الحضارة كما أسلفنا القول إلى الدراسة والتعليم خلال انكماش رقعتها الجغرافية وعرف هذا القرن بعصر المدارس الفلسفية التي كان أهمها مدرسة سقراط و التي كان الإسكندر الأكبر أحد تلاميذها فيما بعد، وقد تتلمذ على يد أرسطو.

[221]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص318.

ومما لاشك فيه أن هيرودوتس وتوكيديديس كان سيتولاهما العجب مما حدث لاحقا، فهما لم يشهدا فيما بعد فتوحات الإسكندر وتوسع رقعة الحضارة الهلينية توسعا فاق في مداه المادي توسع هيلاس في عصرها المبكر، فقد اتسع نطاقها إلى آسيا وحوض النيل وورثت فيما بعد كل الحضارات التي اصطدمت بها ؛السورية والمصرية والبابلية، إضافة إلى مواطن البرابرة بشمال أوربا وشمال إفريقيا.

ولو تأملنا في الحضارة الغربية وحركتها التوسعية الأخيرة برا وبحرا، لاعتبرت يقول توينبي كلمة " **صليبية** أوفق عنوان مختصر لتلك الحركة، لو فعلنا ذلك لاتّضح لنا أن مظاهر التّوسع الغربي هذه–مثل توسّع هيلاس البحري المبكّر–هي جميعها أمثلة للامتداد الجغرافي الذي لم يصحبه كما لم يتبعه أي تعطّل بصورة حقيقية في نماء الارتقاء الحقيقي"[222].

الارتقاء عن طريق إخضاع البيئة المادية:

سنصدر العنوان بالسؤال التالي،هل يمكن للتكنولوجيا والمنجزات العلمية أن تزودنا بقاعدة مناسبة للارتقاء الحضاري الحقيقي؟ هل ثمة قرينة على وجود علاقة بين التقدم التكنولوجي والتقدم الاجتماعي؟.

إن علماء الآثار يسلمون بوجود هذا الترابط، ودليلهم على هذا هو تصنيف ابتدعوه، يفترض سلسلة في مراحل التقدم المادي التكنولوجي، وتعتبر الأخيرة مؤشرا على تعاقب في فصول ارتقاء الحضارة، ويصبح الارتقاء بهذا المنظور متميزا بالطابع التكنولوجي الخاص بكل عصر؛ العصر الحجري القديم، العصر الحجري الحديث، عصر النحاس، البرونز، الحديد، وأخيرا عصر الآلة ؛عصرنا الحالي.

[222]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص322.

وهذا التصنيف لتلك العصور ورغم إجماعنا عليه، فهل في مكنتنا أن نوافق على ادعائه تمثيل مراحل ارتقاء الحضارة، فإنه مما لا شك فيه أن طريقة التبويب والتقسيم تثير الريبة " ارتيابا مبعثه شيوعها ذاته. لإنها تتفق مع تصورات مجتمع غدت تفتنه انتصاراته التكنولوجية الحديثة، كما أنها مثل واضح لاتجاه الدارس ليصبح عبدا لمواد معينة للدراسة ألقت بها الصدفة بين يديه، فإنه من قبيل الصدفة المحضة– من وجهة النظر العلمية–أن تظل أدوات ‘نسان ما قبل التاريخ التي صنعها لنفسه باقية، في حين فنيت أجهزته الروحية، أي نظمه وتقاليده"[223].

بيد أن الواقع يفيد بأن الآثار المادية التي أقيم هذا التصنيف على أساسها، إنما كان ثمرة لما أداه الجهاز العقلي في حياة البشر، دور كان أوسع ممّا يؤدّيه أيّ جهاز مادي، في حين أن عالم الآثار تقتصر مهمته على دراسة البقايا المادية للإنسان التي يخلفها وراءه، فيما يغيب دور الجهاز الروحي ويطويه النسيان، ومن هاهنا تعطى الأولوية للإنسان العامل على حساب الإنسان المفكر.

من هنا كان الدليل النظري على أن الحضارة وهي في حالة سكون تعطي انطباعا مخادعا بارتقاء الأساليب التكنولوجية المادية أثناء انحلالها كما شاهدناه في الحضارات المتعطلة؛ إذ أن ارتقاءهم في مواجهة التحديات باستحداث تلك الأساليب المتقدمة من الملاحة وطرائق الصيد وتنظيم الفيالق لم يحل دون تعطيل حضاراتهم أثناء هذا الارتقاء.

أما الدليل الذي يقدمه التباين بين تلك العصور فيكمن في ارتقاء الأسلوب التكنولوجي المادي على حساب الارتقاء الحضاري، والذي يمكن ملاحظته في إنسان العصر الحجري الأول على سبيل المثال مع لاحقه، الإنسان الصانع " وصفوة القول؛

[223]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص323.

يعتبر التغير الذي كان فاتحة تقدم مذهل في الأساليب التكنولوجية، ردّة لمقاييس الحضارة .إذ قد مات فن إنسان العصر الحجري الأعلى بانقضاء هذا الإنسان ."[224]

وهذا شأن كل حضارة مع الحضارة اللاحقة لها ؛ فالحضارة المايانية و إن لم يكن لها ارتقاء تكنولوجي يمكن مقارنته مع الحضارة المتفرّعة عنها، المكسيكية مثلا في استغلال الثروات واستخراج المعادن فلا أحد يشكّ أنّ حضارتها أعلى شأنا بكثير من الحضارة اللاحقة لها في الجانب الإنساني.

ويقدم لنا آخر المؤرخين اليونانيين **Procopius** القيصري في حديثه عن حروب جوستنيان أن سبب كون دراسة تاريخ حروب هذا الإمبراطور أكثر أهمية من غيره راجع إلى أن الأساليب التكنولوجية الحربية المعتمدة فيها أكثر تطورا من المعدّات الحربية التي سبق استخدامها في أيّ حرب مضت.

غير أنّه بالنّظر إلى فترات ارتقاء الحضارة أو انحدارها نجد أنه كلّما تقدّم الإنسان خطوة في الأساليب التكنولوجية المادية و الحربية على الخصوص، كلّما صاحب ذلك أحداث تعمل على تدمير الحضارة، وفي اختراع الفيلق الإسبرطي الذي سبق لنا الحديث عنه خير دليل على أسباب انهيار الحضارة، ويمكن تسمية هذا الارتقاء المادي في النزعة الحربية في عصرنا بما يصطلح على تسميته السباق نحو التسلح.

وجملة القول فإن الارتقاء التكنولوجي في فن الحرب تطلّب تعطّل الارتقاء الاجتماعي لما يخصص له من إيرادات ضخمة على حساب المواطنين ورفاههم.

ويصدق القول بقدرة الارتقاء التكنولوجي في فن الحروب على الفن الزراعي، الذي على العكس منه يعتبر بأصله سيّد فنون السلام، لكنّه في الفصل الثاني من تقدمه يرافقه انحدار في الحضارة كما سيبنه توينبي من خلال الحضارة الرومانية التي استغنت عن

[224]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص324.

العمل على الارتقاء الاجتماعي لأفرادها في هذا الفن بالاعتماد على الأرقاء، فحيثما " انتشرت المزارع التي تقوم على الأرقاء ، أدّت إلى إفقار الفلاح والمالك وإقصائهما عن الأرض؛ بنفس الأسلوب الذي تطرد به العملة الرديئة العملة الجيدة، وترتبت على ذلك نتيجة اجتماعية مبناها إفقار الريف وخلق بروليتاريا طفيلية حضرية في المدن. و بصفة خاصّة في روما نفسها، ولم توفّق جهود المصلحين..ابتداء من **جراكسي Gracchi** ومن تلاه، في تخليص العالم الروماني من هذه الورطة الاجتماعية التي زجّهم فيها تطور التكنولوجيا الزراعية في نهاية ارتقائها"[225].

كما رأينا فإن **توينبي** يرى أنه لاعلاقة للتقدم التقني بتقدم الحضارات أي نموها وارتقاءها، وقوانين التطور الاجتماعي ليس لها صلة مباشرة بالتقدم التكنولوجي ولا بالتوسع الجغرافي ، بل لا تبدي ارتباطها بها إلا في حالات ضئيلة ، وهناك حالات ظلّت الحضارات فيها في حالة سكون رغم ما شهدته من تقدم في الأساليب التكنولوجية، وهكذا يصل **توينبي** إلى أن قاعدة الارتقاء أو نمو الحضارات والتي نبحث عنها لا تكون في البيئة الخارجية سواء المادية منها أو البشرية، بل يبدو الافتقار إلى وجود تناسق الارتباط بها واضحا بعبارة توينبي.

وبقي أن نبحث الآن عن طبيعة الارتقاء في تقرير المصير أو التحول الروحي، أو بعبارة أفصح انتقال التحديات من البيئة الخارجية التي أسلفنا الفصل فيها إلى البيئة الداخلية، إلى ماهو روحي.

الارتقاء صوب تقرير المصير:

يذكّر توينبي القارئ بخلاصة القسم الأول في طبيعة ارتقاء الحضارات أن التقدم التكنولوجي فشل كالتوسع الجغرافي في تزويدنا بقاعدة تفسير نمو الحضارات وارتقائها،

[225]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص328.

لكنه أفادنا المبدأ بحكم ارتقاء الأساليب التكنولوجية صوب التبسيط المتتالي، ويضرب لذلك مثلا بالتقدم في المواصلات والاتصالات واللغة؛ فقد حلّت الحروف اللاتينية الأنيقة محل حروف الكتابة المعقدة تعقيدا لا يعقل كالكتابة الهروغليفية والصينية، ولم يسلم من التبسيط فن أوعلم؛ ففي علم الفلك حل النظام الكوبرنيقي محل النظام البطليموسي وزودنا في سهولة ويسر بحركة الأجرام السماوية.

غير أن قاعدة الارتقاء التي " لانبرح نبحث عنها والتي فشلنا في العثور عليها خلال غزونا البيئة الخارجية –سواء أكانت مادية أوبشرية–تقع أكثر ما تقع في نطاق يتسم بالتغير المتعاقب ، وفي تحول مشهد الفعل من هذا الميدان إلى ميدان آخر، قد يجد فيه فعل التحدي والاستجابة بديلا لعملياته. ولا تنبعث التحديات في هذا الميدان الآخر من الخارج، لكنها تنشأ من الداخل"[226]، من الروح الإنسانية.

إذن لا يعني النجاح في التغلب على بيئة خارجية أو قهر عدو متربص انتصار على تحد تبعته استجابة ناجحة، بل الاستجابة الناجحة تظهر نفسها في الترابط الذاتي أو تقرير المصير، الذي لا يعني إلا شيئا واحدا التحول الروحي للمدنيات؛ التحول في الارتقاء من المجال المادي إلى مجال الروح، من البيئة الخارجية إلى ما هو داخلي.

غير أن كثيرا من علماء الاجتماع والفلاسفة يخالفون **توينبي** في أن يكون التحول الروحي هو العامل الذي يحدّد مصائر الشعوب والحضارات، ويمثّل حسنين جودة لهؤلاء بكلّ من لابلايLeplay وديمولان Demolinحيث يؤكّدان على مبدأ الحتمية الجغرافية البيئية ويرون " أنه لو أعاد التاريخ نفسه فلن يتغير فيه شيء لأنّه سيكون استجابة لنفس

[226]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص333.

مقتضيات البيئة الطبيعية "[227]، أي أن الطريق الذي سلكته الشعوب أثناء هجراتها واستقرارها ببيئات معينة هو الذي خلق الجنس والطراز الاجتماعي معا.

وعلى هذا الأساس ينتقد **توينبي** Demolin **ديمولين** حين قرن وضع الحضارات المتعطلة بالأنموذجان الألباني والهليني ، فهو في نظره قرن البربرية بالحضارة لا لشيء إلّا لأنّه تصادف وصولهما إلى نفس الهضبة؛ هضبة مقدونيا، مستخدما اصطلاحات التحديات لاستجابات واردة من البيئة الخارجية، ولعله السبب الذي يحاول توينبي الوقوف عليه في طبيعة الارتقاء، فاستخدام الشعبين لنفس الطريق لا يعني تماثلهما في الأشواط المقطوعة وكيفية الانطلاق ومواجهتهم نفس التحديات والارتقاء صوب الحضارة.

ينتهي توينبي بعد عرض مستفيض لما أحدثته الاستجابات الناجحة للتحديات المتعاقبة إلى تفسيرها بأنها مظهر للارتقاء، شريطة أن يتجه الفعل ويتحول من ميدان البيئة الخارجية إلى الميدان الداخلي للشخصية النامية، أو الحضارة، فطالما تنمو الحضارة ويستمر ارتقاؤها " يقود ذلك إلى تناقص الركود إلى التحديات التي تولدها القوى الخارجية، والتي تتطلب استجابات على ميدان معركة خارجي، وأن يتزايد ركونها إلى التحديات التي تتيحها لذاتها هي نفسها في ميدان المعركة الداخلي. ويعني الارتقاء أن الشخصية النامية أو الحضارة، تنزع لأن تصبح بيئتها الخاصة، فضلا عن صيرورتها المتحدي لنفسها وميدان عملها ذاتها، وبكلمات أخرى فإن قاعدة الارتقاء هي التقدم اتجاه تقرير المصير. على أن التقدم تجاه تقرير المصير صيغة ركيكة لوصف المعجزة التي بوساطتها تدخل الحياة ملكوتها"[228].

---

[227]– جودة، جودة حسنين، قواعد الجغرافيا العامة الطبيعية والبشرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1986، ص338.

[228]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص348.

ينطلق **توينبي** في عملية تحليل الارتقاء التي تنمو بفضلها الحضارات، إذ تترابط أجزاؤها بفضل أفراد المجتمع الذي ينتمون إليه، أي العلاقة بين الفرد والمجتمع هي ما نبحث بواسطته عملية ارتقاء الحضارة ، وهناك بحسب توينبي وجهتا نظر فيما يخص هذه العلاقة.

تقول الأولى أن الفرد حقيقة واقعية، وما المجتمع سوى حشد من الذرات الفردية.

وتقول الثانية المجتمع هو الكل المتكامل وهو الحقيقة، وما الفرد إلا جزء من ذلك الكل لا يفهم وغير موجود خارج نطاق المجتمع.

ويثبت توينبي أن كلا الرأيين لا يصمد أمام الاختبار، فيدعو إلى تصور ثالث وهو أن نتمعن في العلاقة التي تربط الأفراد والمجتمعات بعضهم ببعض.

أما الموقف الأول الذي يقضي بحقيقة الفرد ذاته في الوصف الذي اقتبسه أفلاطون، حيث لكل قانون يطبقه على من يليه، وحاكم لا يلقي بالا إلى نظرائه، فكرة ذرية الحياة لا تتحقق إلا في عالم المثل، أما الواقع فينفي وجود إنسان عاش على غرار **السيكلوبس** العمال المهرة الذين يتولون صنع أسلحة الآلهة وإنجاز الأعمال العظيمة، وليس في واقعنا غير البشر العاديين، فالإنسان بطبعه حيوان اجتماعي.

أما النظرة الثانية التي تجعل الإنسان جزء من كل، مثله مثل جماعات النمل والنحل ، حيث يصرف الفرد عمله إلى الكل ويلقى حتفه في حال انفصاله عن الكل فقد أثبتت العلوم التجريبية والاجتماعية أن ثمة مستعمرات مثل الشعاب المرجانية تعيش عيشة فردية ، لكنها تتصل ببعضها اتصالا عضويا ينفي وجود حياة للفرد في نفي الحياة عن الآخرين، ويفيد علم التشريح أن الإنسان وهو نمط الفردية الأولى قد شيد على عدد من الوحدات أو الخلايا، التي يتمتع البعض منها باستقلال كبير، وبالأحرى فإن هذا العالم العضوي يكون في مجموعه فردا واحدا ضخما.

يخلص توينبي إلى أن " المجتمع هو حصيلة العلاقات بين الأفراد. وتبرز هذه العلاقات من بين ثنايا تطابق أفعالهم الشخصية. و يوحّد هذا التّطابق الميادين الشخصية في نطاق أرض مشتركة، وهذه الأرض المشتركة هي ما ندعوه بالمجتمع"[229].

وبناء على هذا تنبعث نتيجة هامة و واضحة مدارها أن المجتمع هو ميدان الفعل الذي مصدره أفراد ينتمون إليه.

" ولهذا كل إنسان/مجتمع يبني مجتمعه، وينتج ثقافته على النحو الخاص به زمانا ومكانا، ويكتسب خصوصيته من إطاره الإيكولوجي ومحيطه العقلي ونهجه في الحوار وفي التعامل...ومن ثم تتعدد المجتمعات. وتتنوع الثقافات على مدى الزمان في إطار الشروط الوجودية"[230].

ومن العجيب أن التجارب الفكرية والروحية للمجتمعات والتي تتيح لها تقدما اجتماعيا وقفزة إلى الامام، لا تتم دائما إلا على يد شخص واحد، هؤلاء الأفراد الذين يدفعون بالمجتمع سيرا إلى الأمام هم عباقرة بالمعنى الحرفي للكلمة، وأعظم من كونهم رجالا عاديين، وجدوا تحت سطوة العشق الصوفي ليوجهوا البشرية بوجه عام نحو خلق جديد.

إن مثل هذه النفوس القدسية كانت عبر التاريخ هي التي حطمت لتك الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية، وهي التي تخلق عملية الإبداع، هي التي تحدث ذلك الترابط الذاتي للكائنات البشرية، فتغدو في إنجاز أعمال الابتداع في ميدان ميدان الفعل الخارجي وجميع أسباب ارتقاء المجتمعات البشرية.

---

[229]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص354.

[230]– كاريذرس مايكل، الثقافات البشرية، تر شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1998، ص09 .

وهذه " التجربة الباطنية تقتضي من الناس أن يجمعوا بين الوعي والكرم والقدرة على الارتقاء من مستوى 'الأنا' إلى مستوى 'الجماعة' ومن مستوى 'الذات' إلى مستوى 'الغير'، ومن ثم ميلاد وانتشار أنثروبولوجيا جديدة "[231].

يدعم توينبي هاهنا رأيه بإشادة **برغسون** بذوي النزعات الصوفية وأنهم بأصلهم العبقريات المبدعة، وأن فعل الإبداع مناطه لحظة قدسية تتم خلالها تلك التجربة الروحية، لحظة سكون تعقبها لحظة تدفق الحقيقة التي تكيف الكائنات البشرية وفق مشيئة الله تعالى، ويفسر هذا التناقض في السكون والحركة والانسحاب والعودة بأنه حركة مزدوجة من الاعتكاف بغية الاستنارة والعودة من أجل تشكيل الجماعة، وتحويلهم إلى رفاق مبدعين " ويتطلب التبدل الخلقي الذي اتخذ سبيله في عالم الإنسان الباطني تعديلا مطابقا في عالم الكون، قبل أن يغدو إما تاما أو في أمان، لكن الفرض السابق عن عالم الكون للشخصية المتشكلة، هو كذلك عالم كون رفاقه غير المتشكلين، وسيترتب على قصورهم الذاتي، مقاومة جهده لتحويل عالم الكون ليتفق مع التغير الطارئ عليه. وسيتجه هذا القصور الذاتي إلى جعل الكون يتناسق مع أشخاصهم أنفسهم، بوساطة المحافظة عليه كما هي"[232]، و إذا ما وفقت تلك الشخصيات العظام في التغلب على القصور الذاتي و الخصومة الحادة، ونجح في تشكيل الوسط الاجتماعي مع تشكله هو ذاته، هاهنا تصبح الحياة للرجال والنساء العاديين لا تحتمل إلا بتكييف أنفسهم مع الوسط الجديد الذي فرضته عليهم تلك العبقرية القوية المبدعة.

يستشهد توينبي على ذلك بقول المسيح عليه السلام"لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض . ما جئت لألقي سلاما بل سيفا"، ولا ينفي هذا استعادة التوازن الاجتماعي بعد هذا الدفع العبقري إلى اختلال النظام، ويتم هذا بإحداث دفعات منتظمة

---

[231]– بيلت جان ماري، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، تر محمد عثمان، مرجع سابق، ص 224.

[232]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، مصدر سابق، ص356.

في القوة والاتجاه من قبل أعضاء المجتمع كل بمفرده، فيكفل الارتقاء من غير ضغط أو إكراه، فإنه قلما لا تحدث استجابات حقيقية وكاملة عندما تلوح في الأفق فكرة دينية أو علمية، والتي تتخذ صورتها في عقول الأشخاص الملهمين.

و جميع أفعال الإبداع الاجتماعي يصرح توينبي أنّها إما أن تكون نتيجة لعمل فرد عبقري أو " أقليات عبقرية، وتخلف وراءها في كلتا الحالتين أكثرية أعضاء المجتمع الغالبة، ومصداقا لذلك؛ إذا ما ألقينا نظرة على الهيئات الدينية الكبرى المنتشرة في العالم في الوقت الحاضر: المسيحية والإسلام و الهندوكية، سنجد أن الجمهرة العظمى من المنتسبين إليها مهما يكن من أمر إعلائهم شأن العقائد التي يؤدون فرائضها– ماتزال تعيش في نطاق ذهني لا يبعد عن كونه من ناحية اتصاله بالدين وثنية مجردة "[233].

وبناء على التحليل السابق فإن عملية الارتقاء الحضاري و كما يظهر في تاريخ عدد من المجتمعات على الأقل، فإن استطالات الحضارة هي من نتاج الأقلية المبدعة التي تحمل هم الجماعة التي تنتمي إليها والعاطلة عن الإبداع، فتعمل على حمل هؤلاء المتخلفين عن ركب الحضارة على السير معهم قدما اثناء تقدمهم المثير.

و أجمل من هذا عبارة مالك بن نبي في وصفه لهذا المشهد الذي يرسم ذاك التحول في النفوس " ومما هو جدير بالاعتبار أن هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل ، بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة..غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات إلى ما وراء أفق الأرض أو إلى ما وراء الأفق القريب، فتجلت لهم آيات في أنفسهم، وتراءت لهم أنوارها في الآفاق"[234].

[233]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج1، ص358.

[234]– بن نبي مالك، شروط النهضة، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، دط، 1986، ص51.

ثم ينتقل توينبي إلى السؤال حول الكيفية التي استطاع بها هؤلاء تحطيم تلك الدوغمائية، وكيف حمت نفسها من الهزيمة الاجتماعية، ويجيب عنه بأنه بفضل المحاكاة التي تتطلب تدريبا للأنفس أكثر مما تحتويه من الإلهام يتهيأ بعدها الانجذاب نحو الارتقاء المطلوب، وعن طريق الاعتزال ثم العودة التي تستعرض نفسها في حياة الأنبياء والرسل، منهم عيسى عليه السلام والقديس بولس، بنيديكت، جريجوري الكبير، وغيرهم إلى أن يصل توينبي إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذي سنبين من خلال أنموذجه كيف ارتقت الحضارة العربية على يديه وتخلصت من التأثيرات الثقافية القوية التي كانت تعاصرها، إلى درجة إجماع الخليقة أن تاريخ شبه الجزيرة العربية كان مرتبطا بهذه الشخصية التي أخرجته من حالة السكون إلى ارتقاء حضاري بلغ في مداه ما لم تبلغه حضارة إلى اليوم كما سنبينه في الفصل الثالث.

وهكذا يرتبط تحليل **توينبي** لنمو الحضارات باعتقاده "أن الإنسان قد حقق عملا يدلل على البراعة حين تغلب على التحديات المادية والبيئية وصنع الحضارة، غير أنه إذا كان لهذه الحضارة أن تستمر فقد كان عليها أن تنمو من تحدي إلى استجابة إلى تحدي جديد، كما كان لا بد من المحافظة على الروح الخلاقة التي صنعت الحضارة إذا ما أرادت أن تواصل مسيرتها وتتفادى التوقف "[235]، لكن بين المحافظة على روح الإبداع التي تسمح للحضارة بالاستمرار ، والتحديات الخالية من التوسط التي تطرأ على الحضارات جميعها فتصل بها إلى حافة الانهيار تبقى الروح الإنسانية بما تحمله من روح التحدي هي الفيصل والحائل دون تحلل الحضارة فضلا عن انهيارها، و فيما سيأتي سنقف مع توينبي تلك العوامل التي تحيق بالحضارة فتنهار بسببها، وعوامل أخرى تقف كمانع لتفادي مثل هذا السقوط ، وهو ما سنراه في الفصل الأخير.

[235]– شلبي السيد أمين، نظرات في أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص55.

الفصل الثالث

من الانـهيار إلـى التـجديد الحضاري

الفصل الثالث

من الانـهيار إلى التجديد الحضاري

المبحث الأول

انهيار الحضارة وتحللها

المبحث الثانـي

مصير الحضارة الغربية عند توينبي

المبحث الثالث:

الحضارة الإسلامية في ضوء التحدي والاستجابة

المبحث الأول

انهيار الحضارة وتحللها

انهيار الحضارة:

قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة وآفة المحاكاة

آفات الإبداع:

-خمر جديدة في قوارير قديمة

-آفة الإبداع: عبادة ذات فانية

-آفة الحرب: النزعة الانتحارية

تحلل الحضارة:

طبيعة التحلل

الانشقاقات الاجتماعية ومظاهرها:

-الأقليات المسيطرة والدولة العالمية

-البروليتاريا الداخلية

-البروليتاريا الخارجية

ما الذي يسبب انهيار الحضارات؟

هكذا عبّر توينبي عن تساؤله حين كان بصدد الحديث عن تلك الأسباب التي كانت وراء تدهور حضارات إنسانية بلغت في وقت ما درجة عالية من التّفرد والإبداع، ولعل التساؤل هنا لم يكن لغرض الإجابة عنه، فقد أفرد الباب الأخير من دراسته للتاريخ في جزئه الأول للإجابة عن هذا السؤال، لكنّه قصد لفت عناية القارئ إلى طبيعة الإشكال ذاته، كونه يجذب تلك العقول المرهفة الحس في أوقات الانحدار والسقوط، وهم لا يملكون فعل شيء أمام المصير المحتوم، هل يا ترى هي شيخوخة العصر الذي ينتمون إليه وقد غدا يفتقر إلى قوة الاحتمال التي تعينه وتزوّده أثناء التقدم؟، أم أنه القانون الإلهي الذي قضى بالموت على من يشيخ بعد سن البلوغ، أم يفسرونه تفسيرا بيولوجيا كشبنغلر في التعاقب الدوري للحضارات، وهكذا يستعرض توينبي سائر النظريات التي حاولت تفسير انهيار الحضارات.

وسنرى في هذا المبحث رؤية توينبي للأسباب التي تؤدي إلى انهيار الحضارة، ومن ثم إلى الانحلال من خلال الإجابة عن السؤال السابق، والتي يربطها أساسا بالإبداع الذي فقد وجوده في تلك الشخصيات التي كانت العامل الرئيس في ارتقاء الحضارة، إضافة إلى أسباب أخرى.

عوامل الانهيار:

قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية المسيطرة:

آفة المحاكاة:

إذا كان الارتقاء فعلا صادرا كما رأينا عن تلك الشخصيات العبقرية والأقليات المبدعة، فإن جمودها عن الفعل الخلاق يقعدها عن التحرك إلى الأمام، فتتحايل على حمل الجماهير على اتّباعها، و تتحرك صوب الغايات التي سطّرها هؤلاء المبدعون عن طريق المحاكاة التي هي ضرب من التدريب الاجتماعي، " ولن يتأتّى لهم بحال السّير المنتظم، إلا بالانتشار على الطريق الواسع الذي يقود إلى الدمار. وعندما يقتضي مطلب الحياة وطء طريق الدمار، لا يستغرب إذا، أن ينتهي المطلب نفسه بكارثة. وفضلا عن ذلك، فإن ثمّة ضعفا في مباشرة المحاكاة مباشرة واقعية، مع صرف النظر تماما عن الوسيلة التي قد تستغل بها ملكة المحاكاة، وذلك لأنه لما كانت المحاكاة نوعا من التدريب، فإنها بالتالي ضرب من توجيه حياة البشر وحركتهم توجيها آليا"[236].

تتدهور الحضارات إذن وتنحط تبعا لانحطاط الطبقات الحاكمة " ويستخدم توينبي كلمة إغريقية لوصف ذلك وهي hybris ويمكن ترجمتها بالكلمات: الزّهو والغرور والتّكبر والأنانيّة..إنّ hybris هي السّبب في سقوط الحضارات"[237]

و يمكننا أن ننبّه إلى مكمن الضّعف في المحاكاة أو التقليد ، وهو أنها استجابة لأمر يفد من خارج، دون رغبة الشخص أحيانا في تنفيذ الفعل لو ترك إليه أمر البتّ فيه،

[236]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،القاهرة،2011، ص04.

[237]– ولسون كولن، سقوط الحضارة،تر أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط3، 1982، ص151.

وتبدو هذه المخاطرة على الدوام وشيكة الوقوع، في حين أنه للاحتفاظ بالارتقاء المطلوب في الحضارة لا بد أن تتّسم فيه المحاكاة بالمرونة والتلقائية.

ها هنا قد تعرض للشخصيات المبدعة التي استنجدت بهذه المحاكاة الآلية، خطورة العجز الذي يفضي إلى التعسف نتيجة عجزها عن الاستمرار في إلهام الجماهير، ففي فترات الركود هذه يضطر القادة إلى استخدام إجراء صارم من أجل فرض النظام، وهنا تنشق البروليتاريا عن عصابة الزعامة التي تحولت إلى أقلية مسيطرة.

إن الانفصال تعبير عن انتفاء التناسق بين تلك الأجزاء التي كانت تشكّل وحدة نحو تقرير مصير مشترك، وفقدان الأخير أي تقرير المصير هو ما يعبّر عنه **توينبي** بقاعدة انهيار الحضارة بصفة نهائية.

الانهيار حسب **توينبي** خسارة الحضارة للطاقة المبدعة التي تضمّها بين جنباتها نفوس المبدعين أو الأقلية المبدعة، أو بالأحرى حسب تعبير كولن ويلسون" تتدهور الحضارات إذن لأن النوابغ يتخلون عنها..وأشار باريتو إلى أن الطبقات الحاكمة تنحط لأنها تسمح لأنفسها بالإغراق في الراحة فتصبح متفسخة ضعيفة"[238]

تلك الخسارة تجرّد تلك العبقريات من القدرة السحرية التي كانت طريقهم في التأثير على العاطلين عن الابتداع من الجماهير، فحيثما ينتفي الإبداع تنتفي المحاكاة، ويضرب **توينبي** لها مثلا بالزّمار الذي يفقد مهارته فهو " يعجز بلا ريب عن إغراء أرجل الجمع بالاستجابة إلى الرقص، فإن حاول –عندما تسيطر عليه سورة غضبه وذعره–أن يحيل نفسه إلى أحد زبانية القهر أو ملاحظ أرقّاء، وأن يقهر جمهورا غدا عاجزا عن قيادته باستخدام فتنته الجذابة، فإنه كلما واصل إصراره وتعنّته كلما هزم في تحقيق غايته ذاتها،

[238]– ويلسون كولن، سقوط الحضارة، تر أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، مرجع سابق، ص151.

وإذا كان التابعون قد تخاذلوا واضطرب نظام خطواتهم ..فأحرى بلمسة السوط التي تلسعهم، أن تدفعهم إلى ثورة عارمة"[239].

تنبئنا حقائق التاريخ بالحقيقة التالية التي مفادها أنه عندما تتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة و يطالها طابع التّغير في طريقة الحكم إلى استخدام العنف والقوة، تحدث انشقاقا في المجتمع، الفئة المحكومة بالقهر، البروليتاريا التي تثور ضد هذا الاستعباد وتنقسم منذ البداية إلى بروليتاريا عنيدة وذليلة تعيش تحت ظل تلك الأقلية، وأخرى خارجية وراء الحدود تقاوم الاندماج في عنف.

" و صفوة القول، يتأتى إيجاز طبيعة انهيار الحضارة في ثلاث نقط:

الأولى: قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية.

الثانية: عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها الإبداعية.

الثالثة: فقدان الوحدة الاجتماعية في المجتمع بصفة عامة نتيجة لما تقدم."[240]

وهكذا تمهّد الحضارة لانهيارها بعيدا عن الغزو الخارجي، فهي تنهار داخليا قبل أن تطأها أقدام الغزاة.

ويرى كثير من المفكرين أن الحضارة بكل مراحلها مرتبطة بهذا العنصر، نقصد الفئة التي تُصنع الحضارة على يديها فهي " المسؤولة عن ارتقائها، إما أن تستمر بإبداع الاستجابات الناجحة على التحديات المختلفة التي تواجه مجتمعاتهم وحضاراتهم، وبالتالي ترتقي الحضارة معارج التطور وسبل التقدم، وإما أن تخفق هذه الفئة المبدعة بالقيام

[239]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، مصدر سابق، ص412.

[240]– المصدر نفسه، ص413.

بالاستجابة الناجحة على التحديات التي تواجه حضرتهم، وعند هذه اللحظة تبدأ مرحلة الانهيار"[241].

يستعرض توينبي طائفة من النماذج التي يتبدّى فيها انهيار الحضارة، وسنحاول أن نحافظ على العنوان الذي يعبّر عن كل عامل من عوامل الانهيار كما أورده توينبي، مستخلصا إياه من الكتاب المقدس للدلالة على دور الدين في ارتقاء الحضارة صوب تقرير المصير، وفيما يلي يستعرض توينبي الكيفية التي تفقد بها الأقلية المبدعة مقومات الإبداع

آفات الإبداع:

أ-خمر جديدة في زقاق عتيقة:

وردت هذه العبارة في إنجيل متى ، في الإصحاح التاسع "ولا يجعلون خمرا جديدة في زقاق عتيقة، لئلا تنشق الزقاق، فالخمر تنصب والزقاق تتلف، بل يجعلون خمرا جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعا "، أي أن المطلوب من الفئة الحاكمة وهي تهيّئ المجتمع لنظام جديد أن تراعي رفاه المحكومين و مواءمة هذه التنظيمات واللوائح لتطلعات أفراد المجتمع، ولكن يحدث في فترات الانهيار التي نحن بصدد الحديث عنها أن تصاغ الأنظمة الجديدة في قوالب قديمة، فيؤدي إلى تفكك النظام نفسه بعد مقاومة التنظيم الجديد، من أمثلة ذلك الثورة الفرنسية 1789م، التي يبرّر **توينبي** بشأنها وشأن كل الثّورات روح العنف فيها بإرجاعه إلى " أنها الانتصارات المخلفة لقوى اجتماعية قوية جديدة على نظم قديمة متزمتة، تعارض بحكم طبيعتها تعبيرات الحياة هذه وتعوق سيرها فترة من الزمن، وكلما طال زمن الإعاقة كلما عظم ضغط القوة بفعل سدّ منفذ انطلاقها،

[241]--النجم زياد عبد الكريم، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2010، ص106 .

وكلما عظم الضغط كلنا اشتد عنف الانفجار الذي ينطلق في نهاية الأمر من خلال القوة المتحجرة "[242].

ومن أمثلة ذلك أيضا مشكلة التصنيع الذي يعنون له **توينبي** 'ضغط الصناعية على الرق'، و هو نظام جديد تم صبّه في قالب قديم وهو قالب العبودية والرق الإقطاعي، ولا نستطيع تمييز حال العامل في النظم الجديدة عن حال العبيد في النظام الإقطاعي، و نزعت البشرية إلى التفاؤل لما أخذت الديمقراطية والتصنيع يشعّ من المملكة المتحدة والعالم الغربي باحتمال القضاء على الرق نهائيا في القرن التاسع عشر.

لكن الطلب المتزايد على المواد الأولية وضغط الثورة الصناعية كبحت جماح هذه النظرة التفاؤلية، وأجلتها بما يزيد عن القرن من الزمان إلى عام 1863م " عام إلغاء الولايات المتحدة الرق فيها ، بيد أنه أمكن الحد من قوة هذا المسخ وتدميره في النهاية، وإن تطلب القضاء عليه ثمنا تمثل في ثورة عارمة، ما تزال نتائجها ماثلة للعيان في الوقت الحاضر، وهذا لعمري هو ثمن التقصير الذي أصاب ملكة المحاكاة، ولعله ما يزال على المجتمع الغربي أن يهنئ نفسه،فإنه رغما عن هذا الثمن أزيلت آفة الرق الاجتماعية من آخر حصونها الغربية"[243]، فإنه إذا كانت الديمقراطية كتعبير عن تقديس للطبيعة البشرية فإنها بثت في الرق قوة دافعة للتحرر من قيود الصناعية الجديدة.

وارتبطت الثورة الصناعية (خمر جديد) بالتوسع الخارجي والاستعمار وهذه نزعة بربرية قديمة (زقاق قديمة) " وديمقراطية التعليم نظام جديد و لكنها ارتبطت في بعض الدول بالنزعة القومية فاستحالت إلى عنصرية وانبعثت أنظمة دكتاتورية كالفاشية والنازية،

[242]-- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص11.

[243]- المصدر نفسه ، ص14.

حتى الأديان بما فيها من سمو روحي صيغت في الطور الثاني لنشأتها في قالب قديم من التعصب المقيت، واليهودية أوضح مثال على ذلك "[244]

ب-آفة الإبداع – عبادة ذات فانية:

حتى تستمر الحضارة في حالة من العطاء والبذل والرقي يلزم أن يظلّ الإبداع فيها يتجدّد وفق الاحتياجات التي تطرأ على المجتمع من حين إلى آخر، لكنّ المبدع قد يعجز عن مواكبة تلك المستجدات في المرحلة اللّاحقة ويبقى ينشد للجماهير التي رفعته إلى أسمى مكان قرص المنجزات التي سبق أن كان له الفضل فيها، دون أن يقدّم لهم حلولا لمشاكلهم الطارئة، ويبيّن **كولن ولسون** أهمية الإبداع ليس للأفراد فحسب بل للحضارة نفسها" لا يعتمد الأفراد فقط على الطاقة الإبداعية المطورة وإنما تعتمد الحضارات أيضا على تلك الطاقة " [245]، وينزع حسب **توينبي** الفريق الذي تميّز بمعالجة تحدّ واحد كقيامه بثورة أو حل مشكل طارئ إلى الإخفاق في معالجة التحديات، ويمكن ملاحظة هذا في البلدان التي تحررت من قيود الاستعمار حديثا، فهي لا تزال أقلية مسيطرة لم تنجح لحد الآن في التغلب على التّحديات المتلاحقة، وربما كان المبرّر الوحيد لبقائها في سدّة الحكم هو الافتتان بالماضي و التّغلب على تحدّي الاستعمار الذي في الحقيقة وعلى الغالب ليس لهم أيّ دور فيه و " لذلك يجب التخلي عن ذلك النظام إذا انتهى دوره و إلّا تحوّل الأمر إلى عبادة لذلك النّظام الفاني"[246].

يسوق **توينبي** الأمثلة الكثيرة عن هذا الإخفاق من قبل أولئك الذين أصبحوا عاجزين تماما عن الاستجابة وقت أن دعت الحاجات الملحّة لمواجهة التحديات المتجددة

---

[244]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، دط،1975، ص273.

[245]– ولسون كولن، سقوط الحضارة،تر أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، مرجع سابق، ص152.

[246]– النجم زياد عبد الكريم، توينبي ونظريته في التحدي والاستجابة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، مرجع سابق، ص111.

والمتعاقبة، مثل النّساخ والفريسيين بعد المسيح عليه السلام، فغابت عنهم الفراسة والاستقامة بعد أن كانوا في المقدّمة في مواجهة الأزمات السابقة، والآن قد تخلّوا عن تلك الصّفات في أزمة أعظم شأنا، يقصد زحف الهلينية الكبرى بعد أن أضحوا من أصحاب المواخير والمومسات، ويمكن أيضا ملاحظة هذا في الأعمال الأدبية الهلينية وفي صيغة 'الكبرياء يسبق السقوط'، لتكرّر نفس الفكرة على الدوام.

" هذا الذي يفخر بما سيعمله، لا ينجح في شيء

هذا الذي يعجب بعمله، لا ينجز شيئا يدوم.

وبعد؛ تلك هي نقمة الإبداع. وإذا كانت حبكة هذه المأساة ممّا يتصادف حدوثه عادة، وإن كان المبدع الموفّق يجد في الواقع أن مناط توفيقه بالذات في أحد فصول المأساة يشكّل عائقا جدّيا في سعيه لمواصلة الإبداع في الفصل الثاني، بحيث تصبح الفرص..توافق مصلحة الحصان السبّاق، فواضح–من ثمّ–أنّنا قد دفعنا هنا إلى الأرض بعامل ذي تأثير قويّ للغاية في انهيار الحضارات ".[247]

ويستمرّ هذا المشهد لآفة الإبداع من تلك الأقلّية في الانهيارات الاجتماعية بطريقتين:

1–تقليص عدد المبدعين المحتملين في الاستجابة للتحديات الجديدة.

2–اعتبار المبدعين الجدد معارضين من قبل أولئك الذين قاموا بدور المبدع في الجيل السابق، الذين يسمّيهم **توينبي** ' المستريحون '، وهم لحظة وقت الأزمات أهل الحل والعقد وبيدهم تتركز السلطة ويصنع القرار، وهكذا يعجزون بناء على هذا الاعتبار في مساعدة

[247]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص57.

المجتمع تخطّيه الأزمات والسير نحو الأمام، ويصف **توينبي** سلوكهم بسلبية الاستسلام لآفة الإبداع، وهي سلبية الافتتان بالماضي والعجز إزاء الحاضر.

وهذا الافتتان يمكن أن يشبّه بالخطيئة لأنه شكل من أشكال الوثنية، فالجماهير باتت تعبد وثنا كان بالأمس يحطم الأصنام، وتغافلت عن المعبود بحق، " ليس ذلك في مجال الأديان فحسب وإنما في في سائر المجالات: توارى المبادئ خلف الأشخاص وتقديس هؤلاء بدلا من اعتناق المبادئ سرّ قداستهم، بل ليس ذلك في مجال الدين أو الفكر فحسب بل إنه كذلك في مجال التكنولوجيا، يفتن الجيل القديم بما كان سرّ تفوقه المادي أو انتصاره الحربي افتتانا يؤدي به إلى الجمود عنده وعدم تطويره مما يؤدي إلى تفوق خصمه عليه "[248].

يعدّد **توينبي** وثنيّات كثيرة عبر التاريخ، من مصر القديمة في حديثه عن تجسيد المجتمع للسيادة السياسية في إنسان بشري، والعبء الساحق الذي فرضته هذه الأوثان البشرية على الحياة المصرية، ويمثل بالأهرامات التي وجهت كل المهارة الفنية ورأس المال صوب هذا المجرى الوثني، عوض تكريسها نحو مزيد من السيطرة على الطبيعة، أو في سبيل المصلحة العامة، وهو فشل عجّل بانهيار الحضارة المصرية الأولى مبكرا، وبنهاية شبابها المبادر بالنضوج والإبداع " وأقبح الأمثلة على عبادة الذات يتمثل في اليهودية إذ وضع شعب اليهود لنفسه مكانا ساميا، وكانت تستهويهم حقيقة مدارها أن الرب قد خلع عليهم وحدهم امتياز هذا السمو، وذلك عن طريق عهد أبدي يجعلهم شعب الله المختار، وقد انحرفت بهم تلك الحقيقة إلى الجمود الفكري"[249].

يمكن أن نجد مثل هذه الوثنية مجسّدة في التاريخ الغربي الحديث، في شخص ملك فرنسا **لويس** الرابع عشر وقصة بنائه قصر فرساي الذي ألقى بثقله في استنزاف الخزينة

---

[248]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص274.

[249]– علم الدين نيفين جمعة، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص132 .

ما يمكن أن يعود نفعه على أرض فرنسا برمّتها، وينسب **توينبي** إلى **خوفو** الذي أمر ببناء الهرم الماثل إلى اليوم عبارة 'الدولة أنا'، وإلى لويس الرابع عشر عبارة 'بعدي الطوفان' فصار شعار المتسلطين والمستبدين ' أنا وبعدي الطوفان '.

ج-آفة الحرب: النزعة الانتحارية والتوسع الخارجي:

سبق لنا في بداية هذا المبحث أن أشرنا إلى أنه في الوقت الذي تفقد فيه الأقلية المبدعة قدرتها على الإبداع تصبح محاكاة الجماهير المحكومة بالقهر تحت سلطانها لها آلية، لتسحب لاحقا ولاءها لها بالكلية، وفي هذه الحالة تتطلع تلك الأقلية لتصدير مشاكلها الداخلية عبر الغزو الخارجي وإقامة الإمبراطوريات، وهكذا تعتبر الإمبراطوريات مظهرا من مظاهر التدهور وليس القوة كما يتبادر إلى الأذهان، وتعبير عن سخط داخلي للجماهير الناقمة على حكامها الذين يلجؤون عبر التوسع إلى محاولة تسكين تلك السورة من الغضب.

و تجدر الإشارة إلى أن تلك الحروب لا يمكن أن تشنها تلك الدول " إلا إذا كان في حوزتها فائض من الوقت والطاقة والإنتاج يزيد ويعلو على حاجتها فيما يكفي حياتها فقط..والنظام الجماعي هو الشرط الثاني أيضا لشن الحرب. وإذا كان للإنسان أن يتحول إلى جندي فينبغي عليه أن يتكيف على الخطر مع حياته، أو احتمال فقدانها..إن الطاعة والنظام لازمان لارتكاب هذه الجريمة العامة الشريرة. كما هما لازمان في تنفيذ المشروعات العامة المنتجة على نطاق واسع "[250]

وإذا كانت الحروب أول الأمر شهوة تدميرية، فإنها تمسي في الحروب الطويلة الأمد حالة انتحارية كما سبق أن رأينا في حرب الهلينيين مع مسيسينيا، " وخطرا بطبيعتها

[250]- توينبي أرنولد، الإنسان وهموم الموت،تر عزت شعلان، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط1،2011، ص ص229، 230.

ذاتها على المجتمع في مجموعه ، كما أنه يعتبر من الناحية الأخرى فعلا انتحاريا يرتكبه الرجل في حق نفسه. إذ يشابه فعله ذراع سيف تغمد السلاح في الجسم الذي هي عضو فيه، مثله مثل قاطع الأشجار الذي ينشر الفرع الذي يجلس عليه ، فيهوي معه إلى الأرض محطّما بينما يظلّ بدن الشجرة المبتورة على حاله"[251]، وهو هاهنا يشبه المستبدّ في غمرة سكراته الحربية بالرّجل المنتحر، الذي أجهز على نفسه ومجتمعه قبل أن يجهز عليه عدوّه في الأخير.

وفي تاريخ الحضارات وهو عند **توينبي** تاريخ حروب في معظمه، يقدم **شارلمان** و**تيمورلنك** والملوك الآشوريين الأخيرين، نماذج لجنون العظمة وشهوة التدمير والجسارة العسكرية، وعدّد مجازرهم التي خلّدت أسماءهم في ديوان البربرية والفظائع التي لم تبق لهم أي ذكرى حسنة للأفعال التي كان يمكن أن تذكر بها تلك النفوس التي أخفقت في الارتفاع إلى المستوى الإنساني، هذا على المستوى النفسي، أما على المستوى السّياسي فإن الدول التي قامت على النزعة الحربية كان بانتظارها في المحطات الأخيرة من تاريخها الفناء المحتوم.

وطبيعي الوصول إلى مثل تلك النتائج في الحالين؛ حالة الاعتداء أو الوقوع تحت نير الأجنبي، وحسب مالك بن نبي فإن " سبب الانحطاط لا يُفسّر بضياع قيادة الوسط الإنساني تحت وطأة التّطاول الأجنبي على حياة مجتمع معين، إنّ العدوّ الخارجي لا بد له أن يرتكب أشد المكر في تسديد الضربة القاضية لشعب يُقدم على انتحار عميق"[252] ويمثّل لنا **توينبي** النّوع الأول من الدّول بأثينا وقت أن تحوّلت **هيلاس** إلى مدينة طاغية فجلبت على نفسها الكارثة التي لم تستطع أن تصلح فسادها قطّ بعد ذلك مُمثّلة في الحرب البلوبونيزية.

---

[251]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص114.

[252]– بن نبي مالك، القضايا الكبرى، تر عمر كامل مسقاوي، دار الفكر،دمشق،ط1، 1991، ص32.

طبيعة تحلل الحضارات

يستصدر **توينبي** الفصل السابع عشر "تحلل الحضارات" بالسؤال عما إذا كان الانحلال مشكلة قائمة بذاتها، أم أنه نتيجة طبيعية للانهيار لا مفر منها؟ فعند بحثه مشكلة الارتقاء رأينا أنها تفترق عن مشكلة بدء الحضارة، ورأينا ذلك في الحضارات المتعطلة التي نجحت في حل مشكلة النشأة لكنها أخفقت في إيجاد الحلول لمشكلة الارتقاء، وسنرى مع **توينبي** أن مشكلة التّحلل تفترق أيضا عن مشكلة الانهيار وليست نتيجة طبيعية لها.

وليس صحيحا ما ذكره بعض المهتمين بفلسفة التاريخ من أن " قاعدة الانحلال تتمثل في الانهيارات التي تعتبر بمثابة العلة الأساسية وتحدث قبل عملية الانحلال"[253] ففي تاريخ الحضارات سيطلعنا **توينبي** بالدليل القاطع أن بعض هذه الحضارات التي كابدت الانهيار لم تدخل في التحلّل التام، بل شهدت تعطّلا مماثلا كالذي عرفته الحضارات المتعطّلة التي بسطنا البحث فيها في الفصل الثاني ودخلت في فترة طويلة من التحجّر وقد ألمحنا قبل إلى الفرعون خوفو وكيف انهار المجتمع تحت العبء الجسيم الذي فرضه عليهم بناء الأهرام، لكن " نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح يرتحل بغتة . ويرتحل –عكس المنتظر– في اللحظة التي كان يستكمل خلالها – كما هو ظاهر– سير حياته، على الوجه الذي نتبينه لو اتخذنا المثال الهليني مقياسا، وهو المثال الذي تراءت لنا فيه هذه المراحل الثلاث للمرة الأولى، بيد أن المجتمع المصري أبى عند نقطة الموت أن يموت، ومضى يضاعف فترة حياته."[254].

إن فترة الألفي سنة من القرن 16ق.م–ق5م؛ وهي الفترة التي أعقبت غزو الهكسوس الذي استثار المجتمع المصري، تبلغ في مداها حياة الحضارة المصرية مجتمعة

---

[253]– علم الدين نيفين جمعة، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص133 .

[254]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص144.

من الميلاد إلى الفترات الأولى من فترة انحلاله، وهو تاريخ إعادة توكيد الحضارة المصرية نفسها بين الحضارات.

وهكذا يمضي **توينبي** في توكيد نفس الشيء في حضارة الشرق الأقصى عقب غزو برابرة المغول، والمجتمع الهليني مع برابرة الشمال.

وكأنّ الحضارة عقب انهيارها تدخل في سبات وتحجّر بمصطلح **توينبي** قبل تحللها التام وفنائها، فإن استجابت للتحديات الطارئة عليها فإن استدامتها تطول كما في الأمثلة التي أوردناها أكثر من أي وقت مضى من تاريخها الحضاري، وهذا التخلص الذي يبدو نهاية سعيدة للحضارة لا يمكن التسليم به في كل مرة، فما دامت الحضارة مستمرّة في هذه الأشواط التي تعقب الانهيار فهي آخذة في التحجر الذي ينتهي بشلل الحياة في الموت.

في المجتمع الغربي ينبّهنا **توينبي** أن أساس استمرار الدولة وهي مظهر من مظاهر انهيار الحضارة، تستغلّ حاجة المجتمع إلى النظام في ظل الفوضى السائدة في ذلك العالم لصالحها حيث تبسط سلطانها على الجماعات، فيُرحّب بسبب تلك المخاطر بالدولة المستبدة وتغفُل الجماهير في غمرة الأزمة عن فقدان حريّتها، وتدخل حالة من التحجر الروحي، الذي يقود إلى انتفاء الأوجه العليا للنشاطات البشرية.

" فهل تعرف رسالة **ماكولي** عن التاريخ أنه يبرهن على أن الغزوات البربرية كانت نعمة على طول المدى . لأنّها قضت على التحجّر إذ يقول إنّه اقتضى أوربا البقاء في الهمجية ألفي سنة لتتلافى مصير الصين . ويبدو أنه ليس ثمة أجناس بربرية تدمّر في المستقبل دولة عالمية..وأن العلم الطبيعي يزدهر بصفة عامة في ظل الحكم الاستبدادي. إذ قد يعمل الحاكم المستبد على تشجيع كل ما من شأنه زيادة أسباب قوة الجماعة الحاكمة.فإن ذلك يخدم مصلحته"[255].

[255]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص148.

إذن وحسب الرأي الأخير ليست الفوضى ما يثير قلق **ماكولي**، بل هناك ما هو أعظم خطرا منها؛ وهو صراع الإخوة الذي باستطاعة الدين حسم أسبابه و لنا الدليل في إجبار الكنيسة المسيحية الدولة العالمية الرومانية العنيدة الإذعان للمسيح رسميا.

غير أن التّحدي في طور الانحلال يختلف عنه في طور الارتقاء، إذ الاستجابة هاهنا فاشلة، فيترتب على ذلك بروز نفس التحدي مجددا، عوضا عن تحديات جديدة كما في طور ارتقاء الحضارة، وهذا الموقف الذي يقتضي وجود التكرار في نفس التحدي يتعسّر التخلص منه؛ كما لو تكررت الهزيمة إثر الهزيمة عوضا عن النصر كل اصطدام " إلى أن يقيّض له أن يتلقّى : إما نوعا من الردّ البطيء والقاصر، وإما أن يقود الاصطدام إلى دمار ذلك المجتمع الذي يبدي عجزه التام عن الاستجابة له استجابة فعالة.

فهل نستطيع القول إذن بأن بديل التحجر هو الإبادة التامة المطلقة؟"[256].

الانشقاقات الاجتماعية:

لئن كان **توينبي** فيما سبق بحث عن طريق الارتقاء في السيطرة على البيئة المادية والبشرية، فإنه يتبع نفس الخطة في البحث عن عوامل الانحلال، وبالفعل فإن تعاظم االسيطرة على البيئات يتلازم مع الانحلال الحضاري، فالنزعة الحربية تؤدي إلى السيطرة على المجتمعات وعلى قوى الطبيعة الجامدة ، وتوحي تلك النزعة بادئ أمرها بأنها ارتقاء جليل إذا وضعنا في اعتبارنا القوّة والثّراء كنتيجة أولية للتوسع.

لكنّ الوهم يزول سريعا، إذ المجتمع القائم على الحروب والتّوسع يكرّس الجانب الأعظم من المداخيل للحروب لينتهي بها إلى انقسام اجتماعي داخل جسد الحضارة يستعصي معه العلاج ، وفي فتوحات روما خلال القرن 2 ق.م وما انجرّ عنها من

[256]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ،ج2، ص 149.

حروب أهلية في القرن الموالي خير دليل حيث استنفذت تقريبا كلّ طاقتها المالية والبشرية التي توفّرت لها بسبب الفتوحات.

في هذه النقطة بالذات يحوّل **توينبي** نظر القارئ نحو قاعدة الانحلال والتي يتمثل مفتاحها في مشهد الانقسام والانشقاق الاجتماعي، وكيف تمزّق تلك الانشقاقات داخل الحضارة المنهارة المجتمع في بعدين :

–انشقاقات رأسية تتم داخل المجتمع وتتردّى في إثم الحروب الأهلية، ويعبّر عنها بفعل الانتحار، لكنّها لا تمهّد لانهيار الحضارات، ويعتبرها **توينبي** مجرّد سوء استخدام للآلة الحربية في تخريب ذاتي.

–أما الانشقاق الأفقي فيكون في المجتمعات المتمازجة جغرافيا لكنّها منعزلة اجتماعيا، كالجماعات البربرية شمال أوربا، والتي لم تترابط أبدا مع الكيان الاجتماعي الغربي للإمبراطورية الرومانية، وهذا النّوع ليس غريبا عن الحضارات ، ويتمّ خلال انهيار الحضارة، وقد يختفي على عكس الأوّل خلال مرحلتي البدء والارتقاء الحضاري.

وهذه الانشقاقات الاجتماعية يُذكّر توينبي قد أظهرها للعيان التغير الذي طرأ على الأقلية المبدعة؛ تغيّر في مظهر العنصر الحاكم، تلك الأقلية التي أمكنها ذات يوم قيادة الجماهير العاطلة عن الإبداع، وقد تركت مكانها الآن لأقلية مسيطرة مجرّدة من الإبداع مفتتنة بالماضي.

هنا يبدو المشهد أوضح في ارتباط الانشقاقات الاجتماعية بفقدان الأقلية القائدة ملكتها الإبداعية، وفقدانها لعنصر هام يتمثل في محاكاة الجماهير لها لاستخدامها العنف والقوة، وينتج عن هذا، التباغض بين الأقلية والأغلبية.

ويلزم من هذا معاينة العناصر الثلاث المترتبة عن انشقاق وتمزّق نسيج المجتمع المنهار؛ الأقلية المسيطرة–البروليتاريا الداخلية– البروليتاريا الخارجية.

مظاهر الانشقاقات الاجتماعية:

1-الأقليات المسيطرة والدولة العالمية:

تتميّز هذه الفئة المسيطرة حسب **توينبي** بطاقة إبراز طبقة حاكمة جديرة بالإعجاب، لأن هذا ما تدلّ عليه مجموعة الإمبراطوريات(الدّول العالمية)التي شيّدتها، فإن جميع هذه الأقليات المسيطرة كوّنت دولا عالمية في طريقها نحو الانحلال، " ففي مقدورنا أن نتعرف في الإمبراطورية الرومانية على دولة عالمية هلينية، وفي إمبراطورية **الانكاس** على دولة عالمية اندیانية، وفي إمبراطورية عائلتي **تسين** و **هان** على دولة عالمية صينية وفي إمبراطورية **مينوس** البحرية على دولة عالمية مينووية، و أن نتعرّف في إمبراطورية **سومر** و **أكاد** على دولة عالمية سومرية، وفي إمبراطورية **تبوخذ نصر** الجديدة على دولة عالمية بابلية..."[257]الخ.

وليست هذه الطّاقة السّياسية هي النّمط الوحيد والفريد للأقلية المسيطرة، بل يتعدّى إبداعها إلى المدارس الفلسفية والحركة العلمية، ويضرب **توينبي** المثل بالمجتمع البابلي إبان القرن الثاني قبل الميلاد الذي عرف حرب 100 عام بين **بابل** و **آشور**، فقد عاصر هذا الاضطراب كذلك تقدما علميا في الفلك، مثل اكتشاف الكواكب السيارة ونظامها الدّقيق، والنجوم الثّابتة في الدورة الكونية ، وهذا الكشف البابلي أمكنها لاحقا من تعيين تاريخ الكسوف ومطالع الكواكب، وكان له من التّأثير ما يماثل الكشوف الغربية الحديثة، وأنبتت الحضارة السندية فلسفة أتباع **ماهافير** والبوذية الأولى وبوذية **الماهايانا**.

2-البروليتاريا الداخلية:

إن أول انطباع يتبادر إلى أذهاننا أن البروليتاريات الداخلية أوسع كثيرا من نقيضتها الخارجية، ويمكن أن نتبع بدءها في المجتمع الهليني من خلال مؤرخ انهيار

[257]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص165.

الحضارة الهلينية **توكيديدس** واصفا المرحلة المبكرة من الانشقاق الذي أعقب انهيارها، والذي كان ميدانه في **كورسيرا** التي عرفت حربا طبقية وحشية، وقد تركت تلك الحرب أثرا عميقا بانتشار شرارتها إلى شتى بقاع المجتمع الهليني بين زعماء البروليتاريا والرجعيين(الأقليات المسيطرة)، ويعترف **توكيديدس** بأن تلك الحروب الطبقية جلبت الكوارث على بلاد **هيلاس**، ذلك أنه حين " تنشب الحروب الإقليمية داخل المجتمع يكون ذلك سببا في انتحاره، كما كانت الحروب الإقليمية التي نشبت بين المدن الإغريقية سببا في انتحار حضارتها"[258].

وفي مثل هذه الظروف تمثّلت أولى النتائج الاجتماعية في حدوث طوفان بشري من المهاجرين عديمي الجنسية، ولم تفلح جهود الإسكندر في القضاء على هذه الآفة من خلال إقناع حكام الأقاليم بالسماح للمعارضين الرجوع إلى بلدانهم الأصلية والعيش في سلام، " فكان أن هيّأت النّار لنفسها وقودا جديدا . لأنّ الشّيء الذي وجده المنفيون متاحا لهم لعملهم كان التّطوع جنودا مرتزقة ، وترتّب على اتّساع الطّاقة البشرية العسكرية هذا، ازدياد قوة الاندفاع في الحروب، نشأ عنها بدورها منفيون جدد، فعظم بالتالي تعداد الجنود المرتزقة "[259].

وهكذا أطلقت الحرب القوى الاقتصادية من عقالها، فقد كانت مدفوعات هؤلاء الجنود المرتزقة من سبائك الذهب والفضة، وشاع بالتالي الدمار بين الفلاحين والصناع بفعل ازدياد تداول تلك العملة مما نتج عنه غلاء فاحش، فتردّى بالتالي العنصران في براثن الفقر بعد أن كانا ينعمان باستقرار نسبي .

[258]– طحطح خاليد فؤاد، في فلسفة التاريخ، منشورات الاختلاف– الدار العربية للعلوم، الجزائر–بيروت، ط1، 2009، ص103.

[259]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص170.

ويمكن تلمّس نفس النتائج الاقتصادية حسب **توينبي** بعد حروب **هانيبال** ، التي انتزعت الفلاحين في شمال إيطاليا من أراضيهم، فلم يبق لهم سوى احتراف العسكرية رغما عنهم، وعلى هذا عرّف **توينبي** البروليتاريات بأنها عنصر اجتماعي داخل كيان المجتمع لكنّها ليست منه.

والنّزعة البروليتارية هي في جوهرها حالة شعور أكثر من كونها موضوع ملابسة خارجية، فلا الفقر ولا الأصل الوضيع من سماتها ، بل مناطها إما سخط يزكّيه هذا الشعور ، فنحن نجد البروليتاريات أوّل أمرها تتكون من رجال أحرار، بل أرستقراطيين كما يذكر **توينبي**، سلبت حقوقها الروحية، وصاحب هذا التجريد الروحي إشاعة الفقر المادي.

ونتيجة لهذه المحنة الماحقة أحيلت إلى طبقة منبوذة مستغلة، دفعت دفعا إلى روح التسامي، إذ استجابت لهذا التحدي ممثلا في هذا العنف الموسوم بالانتحارية استجابة مختلفة من طراز آخر وجد أسمى تعبير له في العقيدة المسيحية، استجابة وديعة سلمية معبرة عن رغبة في الانفصال، معادل في الأصالة للهمجية المعبر عنها بالعنف المستخدم، وهذه الاستجابة من الكنيسة لتحدي الاضطهاد مهّد لها في المستقبل انتصارات أعظم فاستجابت له " باستخدام الأسلوب الوديع المأثور عن **إليازر** والإخوة السبعة، فاجتنت ثمرة سياستها ، تحول الأقلية الهلينية المسيطرة إلى المسيحية . وتلاها بعدها ، اعتناق العصابات البربرية للبروليتاريات الخارجية لها...بيد أن الحال قد انتهى بالحكومة الإمبراطورية الرومانية في نهاية الأمر إلى الإذعان للسلطة الروحية التي أخفقت في إخضاعها"[260] ، ومن ثم تتشكل تلك الطبقة المستنيرة في سائر الحضارات المنهارة وتتخذ من الأديان العليا وسيلة للتسامي، لكنها مؤشر على اتصال حضارتين إحداهما منهارة توشك على الدخول والاندماج في الحضارة الأخرى التي بذرت في تربتها.

[260]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص176.

3-البروليتاريا الخارجية:

" تبرز البروليتاريا الخارجية إلى الوجود-مثل البروليتاريا الداخلية-بفعل انشقاق عن الأقلية المسيطرة لحضارة أصابها الانهيار . وهنا يصبح الانقسام الديني الذي نجم عن الانشقاق مما يسهل إدراكه. ذلك لأنه بينما تستمر البروليتاريا الداخلية في تمازجها الجغرافي مع الأقلية المسيطرة التي يفصلها عنها هوة أدبية؛ لا يقتصر الحال بالنسبة للبروليتاريا الخارجية على استبعادها من الناحية الأدبية عن الأقلية المسيطرة، إذ يفصلها عنها خط حدود يمكن رسمه على الخارطة "[261].

ويعتبر واقع الحدود الجغرافية علامة مؤكدة على وجود الانشقاق بالفعل ، فالحضارة في طور النمو لا تملك حدودا ثابتة ومحكمة إلا في الحدود الحضارية حين تقف عند تلك الخطوط الحمراء لحضارة من ذات فصيلتها ، وليس هذا موضوع بحثنا فيما يتعلق بالتفاعل بين الحضارات ، إنما نعني الحدود المتاخمة للجماعات البربرية والمجتمعات البدائية وهي غير معينة وثابتة طالما الحضارة في طور الارتقاء والنمو.

وحقيقة الأمر فإنه عندما تُوفّق أقلية مبدعة في رفع شعلة الحضارة فإنها تنير دربا منيرا في تلك الظلمات للمجتمعات البدائية ، والتي ستهتدي حتما بضوء الشعلة وتصطلي بدفئها ، ولا يخفى تاريخيا حسب **توينبي** التأثير الطاغي للحضارات على تلك المجتمعات وإن قوة تأثيرها المشع ليبلغ المدى البعيد عن طريق المحاكاة، وإن كانت عبر تقليد ساخر كما هو الحال للعملة البريطانية والسفن الأفغانية خلال القرن الأخير قبل المسيح في محاكاة المجتمعين للفن الهليني وتأثرهما به غاية التأثر.

وتحت هذا الافتتان تستثار نزعة المحاكاة التي تبرز من حكمة الأقلية المبدعة و تتابعها خلال فترة الارتقاء، والتي لا تكتفي بدرء خطر " انقسام البيت على نفسه ، ولكنها

[261]- توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، ص214.

تقيه هجوم جيرانه عليه ؛ إلى المدى الذي يكون فيه هؤلاء الجيران –على الأقل– مجتمعات بدائية . وتفسير ذلك : أن المجتمعات البدائية تنشد محاكاة الأقلية المبدعة في حضارة نامية ، عند اتصالها بتلك الحضارة . مثلها في ذلك مثل الأغلبية العاطلة عن الإبداع التي تنحو إلى محاكاة الأقلية المبدعة التي تعيش بين ظهرانيها "[262].

غير أن الوضع في حالة الانهيار والتحلل يختلف كثيرا في طريقة حكم الأقلية المسيطرة ، التي لا تستند إلى الإبداع والفتون بمصطلح **توينبي**، إنما تنزع إلى القوة والتسلط الشديدين، فالولاء الذي كان للأقلية المبدعة بفعل الافتتان يتحول إلى ما نسميه الآن إلى بروليتاريا خارجية.

وهكذا تنتهي المحاكاة الطوعية بالنسبة لتلك الشعوب ، لكنها لا تتوقف عن محاكاة الأساليب الحضارية التحسينية في مجتمعاتها؛ في فنون الصناعة والحرب، لتكون قادرة عن الدفاع عن نفسها ضد العنف المسلّط عليها من الحضارة المنهارة، ولئن أشرنا قبل إلى ردة فعل البروليتاريا الداخلية التي أغراها هذا العنف فحلت بها النكبة ، ولم تنجح في أسر الغزاة إلا باتباع نبي يؤثر الرقة واللين ويضعهما موضع العنف والتسلط .

غير أن الأمر مختلف في البروليتاريا الخارجية فهي تستخدم العنف المتبادل لإبراز ردّة فعلها، " فإنه بينما تقع البروليتاريا الداخلية بأسرها على وجه اليقين في نطاق متناول الأقلية المسيطرة، فإن جزءا من البروليتاريا الخارجية يحتمل على أية حال أن يكون بمنأى عن متناول الفعل الحربي للأقلية المسيطرة. و من بين ثنايا النضال القائم، تبرز الحضارة المنهارة العنف عوضا عن الإغراء بالمحاكاة ، وفي مثل هذه الظروف يتوقع إغراء أعضاء البروليتاريا الخارجية القريبين باقتفاء أثر البروليتاريا الداخلية ".[263]

---

[262]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج2، مصدر سابق، ص216.

[263]– المصدر نفسه، ص 218.

وهذا التفوق النوعي في القوة الحربية ينتهي بمحاكاة المجتمعات كما أشرنا للحضارة المنهارة في العدة الحربية لتصبح حرب خنادق، وتغدو الحرب في حالة سكون على طول خط الحدود، وهذا التوازن في تكافؤ القوى سيميل مع الوقت إلى صالح البرابرة، وهذا ما يظهر في المثال الهليني ورد الفعل الحربي للبروليتاريا الخارجية؛ **البروتيون**Brtutiants و **اللوكانيون Lucaians**، الذي اتسم بالقوة وشدة العنف، والضغط على المدن اليونانية واحتلالها الواحدة تلو الأخرى، فيما اصطلح عليه ب 'بداية الكوارث الكبرى التي حلت بهيلاس'.

وعلى هذا يصل **توينبي** إلى نتيجة تمثل قانونا اجتماعيا عاما؛ مداره أن البروليتاريات الخارجية ممثلة في الشعوب التي تظلّ وراء الحدّ يظلون أحرارا من شوائب الثقافات الدخيلة، وفي وسعهم كفالة مصائرهم، والأمر مختلف لأولئك الذين اصطبغوا بصبغة أجنبية أو ضالة، حتى يقيّض لهم إمّا الطرد و إمّا الإبادة كما طرد المغول من الصين.

المبحث الثاني

مصير الحضارة الغربية عند توينبي

رأينا مع **توينبي** حضارات أفل نجمها بعد استيفائها دورتها الكونيّة التي قدّرت لها إلى مصير محتوم يبدو أنه سنّة ماضية في الحضارات جميعها؛ فظاهر الأمر الواقع تاريخيّا أنّه لا توجد حضارة محصّنة من الانهيار، و**توينبي** قلق من هذا المصير الذي اكتنف الحضارات، ويتوجّس نفس المصير إزاء الحضارة الغربية، وقد رآها تمرّ بتحدّي حربين كونيتين أشرفت منها على الفناء، ويظهر أن استجابتها لهذا التّحدي لم ينأ بها عن أسباب هلاكها فقد عرفت بعد الحرب الكونية الأخيرة سباقا محموما نحو التسلح، وقد سبق معنا فيما مضى من المباحث أن من أسباب التّعجيل بانهيار الحضارات سلوك هذه المسالك الانتحارية، وفي هذه الورقات طرائق وأطواق نجاة رآها **توينبي** ضرورية لتفادي التّردي في مثل تلك النهايات.

الدّين كمسلك لتفادي إخفاق تقرير المصير:

لا يتفق **توينبي** مع الآراء التي ترى أن الأديان سرطانات تلتهم الأنسجة الحية للحضارات، ويرى أن مدّ المسيحية الذي تدفّق بقوة هائلة خلال المرحلة الأخيرة للمجتمع الهليني و غدا المجتمع الغربي بعد ذلك بفضله مسيحيا بامتياز، هو الذي يجب إعادة تجسيده مرة أخرى إذا أردنا للحضارة الغربية تلافي المصير الذي لحق بالحضارات الأخرى.

وكأن الدّين كما يرى مالك بن نبي ظاهرة كونية تحكم الإنسان وحضارته أزلا و أبدا، مطبوعان به، وتطورّهما موقوف عليه، فمن أقدم الوثنيات إلى آخر الديانات، و " كلّما أوغل المرء في الماضي التاريخي، في الأحقاب الزاهرة لتاريخه، أو المراحل البدائية وجد سطورا من الفكرة الدينية.ولقد أظهر علم الآثار دائما–من بين الأطلال التي كشف عنها–بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيا كانت تلك الشعائر"[264].

ويذهب **إريك فروم** أن الشخصية الاجتماعية يجب عليها النظر في الحاجة الدينية للكائن الإنساني والتي يعتبرها جزءا أصيلا من تكوينه " والحق أنه لم توجد حضارة في الماضي ولا توجد في الحاضر، ويبدو أنه لن توجد في المستقبل حضارة يمكن اعتبارها بلا دين"[265].

وتفتح مثل هذه الملاحظات فكرة العلاقة بين الأديان والحضارات.

يرى **توينبي** أن سمة الفناء والانهيار من أخصّ أوصاف الحضارة، لكن الأديان فيما نشاهد و نعاين خالدة، لا يلحقها فناء، ومن هنا توجّب توجيه العناية الإنسانية وحياتها

[264]– بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية،تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1984، ص69.

[265]– فروم إريك، الإنسان بين الجوهر والمظهر، تر سعد زهران، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1989، ص127.

نحو العمل من أجلها " بيد أن الكنيسة وقفت في هذا العالم قوّة لا تقلّ عن الإمبراطورية نفسها . وعلى هذا النحو كوّنت فكرة الكنيسة بؤرة محدودة لا تقدر بثمن، استطاعت أن تتبلور حولها شيئا فشيئا حضارة جديدة . ومصداقا لوجهة النظر هذه يصبح للأديان العالمية ما يبرر وجودها في إبقاء أنواع من المجتمع نطلق عليها اسم *الحضارات* حية. وذلك بالاحتفاظ بجرثومة ثمينة من الحياة في رحم*فترة الفراغ* الحرجة"[266].

وعلى هذا تغدو العقيدة الدينية عند **توينبي** الحجر الأساس الذي يبقى بعد انهيار الحضارة، وتصبح من جديد أحد أجزاء نظام الاستيلاد الحضاري، ولو ولّينا وجهنا شطر الحضارات التي لا تزال موجودة إلى اليوم فسنجد أن سرّ خلودها ارتبط بالدين الذي كان وراء نشأتها، فالحضارة الغربية وليدة الهلينية نشأت كما رأينا عن طريق المسيحية، وكان الإسلام وراء نشأة الحضارة العربية الإسلامية و الحضارة الإيرانية، ونفس الدور لعبته بوذية الماهايانا والعقيدة الهندوكية بالنسبة للحضارة الصينية و السندية.

ولسنا هنا في مقام الحديث عن حضارة سوى الحضارة الغربية حيث كانت العقيدة المسيحية تغتنم فرصة فترة الفراغ التي مرّت بها الإمبراطورية الرومانية، و تعطّل كثير من النظم وطرائق الحياة التي كانت تمدّ المجتمع بالحيوية فعمّ شعور الخيبة، وهاهنا يتدخل الدين " فيؤدي لهذا المجتمع الدنيوي الراكد الخدمة التي يفتقر إليها إذ ذاك افتقارا شديدا، فإن في وسع تلك العقيدة أن تشقّ مسالك جديدة لطاقات البشرية الجامحة ..،فلقد استثار الجمهرة الخامدة من الأعماق البعيدة الغور. إنه قد استفزّ كافّة انفعالات الديمقراطية العاصفة في قوم لا حول ولا طول، هم سكان إمبراطورية أفرطت في النمو، لقد فعل الخوف من الضّلال ما عجز الشّعور بالظّلم أن يفعله. إنه غيّر طبائع الناس

[266]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،القاهرة،2011، ص151.

الذين ألفوا –كالأغنام– الانتقال من طاغية إلى آخر وصيّرهم –وجعل منهم– مواطنين مخلصين وثوّارا عنيدين".[267]

هكذا كان مبدأ المسيحية أول أمرها وسائر الأديان؛ فإن نشأتها قد جاء نتيجة لانهيار حضارات وتعطّلها فيما يسمّيه **توينبي** فترة الفراغ الذي يتلوه الحمل والولادة، وكما عبّر توينبي فقد حرّرت مجتمعات أوربا من قيود الطغيان والاستبداد وصهرتهم في مجتمع واحد، وعادت إلى الحياة نفوس أخمدت شعلتها وضاقت عليها الأرض بما رحبت وزلزلت زلزالا شديدا، وتفجّرت بما في الدّين من دعوة إلى التّسامي طاقات متعطّلة و مواهب صارت تنجذب صوب نظام سطع نجمه وهو آخذ في الصعود.

" تشير جميع الدلائل إلى أن مجال الاعتبارات الأخلاقية لدى البشر قد اتسع أثناء القرون الأخيرة؛ فقد أضفت المسيحية على تراثنا الثقافي رهافة حسّ جديدة لم يكن يعرفها العالم القديم وكانت عاملا حاسما في إلغاء الرق، وأتاحت لكل رجل وامرأة كرامة لم يعترف بها من قبل قط." [268]

هكذا غدت الفكرة الدينية توجه عنايتها أوّلا نحو الأفراد فتطبعهم بطابعها الخاص، و توجههم بروحها نحو التسامي في القصد والغايات، لكننا نتساءل: هل هذا الدور الحيوي للدين ظل محافظا على ميزاته في تحرير الشعوب من سلاسل القهر والاستغلال، إذ يرى **توينبي** وجاهة في اعتراض كثير من المفكرين على أهمية الدور الذي باتت تلعبه الكنيسة في حياة الناس ، وهل هي جديرة بالمبادئ التي تبشّر بها؟

---

[267]–توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترمحمد فؤاد شبل،ج3، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،القاهرة،2011، ص 154.

[268]– بيلت جان ماري، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة،تر محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والإعلام، الكويت،دط، 1994، ص130.

لا ينكر **توينبي** التسليم بأن كثيرا من مواد الاتهام الموجهة إلى رجال الكنيسة لها قدر من الصحة والصواب، فقد انحرف رجال الكنيسة عن المبادئ التي أشرنا إليها آنفا واتخذوا من الدين مهنة وتدثّروا برداء الرياء والكبرياء كاليهود، وانتقلوا من دعوة الناس إلى عبادة الله إلى عبادة الذوات و الوثنيات، بل وصل الأمر بهم وكلاء يذودون عن الطغاة لقاء الحفاظ على مصالحهم الضيقة خلال فترتي العصر الوسيط والحديث جميعها.

" حقا إن الكنيسة لا تنتظم قديسين فقط، ولكنها تنتظم آثمين أيضا. وليس في وسع ديانة أي مجتمع في أي وقت من الأوقات – مثلها مثل المدارس الفكرية – أن تسبق كثيرا جدا المجتمع الذي تقوم بين ظهرانيه وتتحرّك في نطاقه وتستمدّ منه كيانها. وقد لا تُقنع الخصم هذه الإجابة فيعاود الهجوم، ويردّ على المطران الفيكتوري بخشونة قائلا: إن الاختيار الذي أجرته الكنيسة من العلمانيين لم يقتصر على الصّفوة، وإنما اتجه إلى الحثالة"[269].

هكذا غدت الكنيسة أداة في أيدي خصومها من السياسيين للقضاء على الرّوح الثورية التي انتشرت و باتت أوربا تستشعر رياح التغيير عن طريقها قبل الثورة الفرنسية بوقت طويل.

وما سبق هو في الحقيقة تأكيد على أنّ انحراف رجال الدين والساسة هما أصل كل بلاء ومصيبة تحيق بالأمة، وأن استقامتهم ستجعل منهم معينا لا ينضب لفائدة البشرية " وسيظهر التحقيق الدقيق أن السبب الرئيس للقمع والظلم وخيانة الأمانة والشذوذ واضطراب المجتمعات هو نتيجة للبعد عن العقيدة الدينية وقلة تعليم الناس.. وسلوك الحكومات مسالك لا تتماشى مع القوانين الإلهية والعدالة الاجتماعية"[270].

---

[269]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص172.

[270] - Abdul –Baha, le Secret de la Civilisation Divine, tra Marthe Grondin, Religare, puf, paris, 1973, p13.

وما برح العلم خلال القرون الأخيرة ينتزع من الكنيسة مجالاتها حينا بعد حين، فأعاد صياغة العلوم على قواعد جديدة تتنافى مع التعاليم الدينية التي لم يعد لها قيمة من وجهة النظر العلمية، ولم يقف الأمر بالكنيسة عند حدود المقبول، فقد كان ردّها على ما تسميه العدوان أمر يثير العجب و السخرية عند **توينبي** " كما لو كانت النظرية اليونانية التي تقرر أن الأرض مركز النظام الشمسي، دعامة من دعائم العقيدة المسيحية، أو أن تصحيح جاليليو لبطليموس خطيئة دينية **!!** "[271].

لا يخلو فصل هذا الكتاب الذي عنونه **توينبي** ب *صراع العقل والروح* من مثل هذه الطرائف ومن مختلف الأديان، وموقفها من التحديات الخطيرة التي باتت تفرضها التطورات التكنولوجية المتلاحقة، وقد كان للإسلام حظ من الدراسة فيه، إذ رأى **توينبي** أن الحركات السلفية الجهادية مثل الوهابية والسنوسية والمهدية " لم تكن مظاهر قوة ولكنها علامات ضعف، بل توحي إلى الأذهان بأن الأديان العليا تحثّ الخطى نحو حتفها . على أن توقع فقدان الديانات العليا ولاء البشر لها أمر ينذر بالشر؛ لأن الدين إحدى الملكات الضرورية للطبيعة البشرية. وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس فتات العزاء الديني على موائد لا تملك منها شيئا"[272].

ويرى **توينبي** في انتصار العلوم على الدين انتصارا ساحقا كارثة على الدين والعقل معا، إذ هما ملكتان متأصّلتان في الطبيعة البشرية لا يغني أحدهما عن الآخر، وإن مصير الحضارة الغربية ليرتبط بهما ارتباطا وثيقا.

ولقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية من الأهمية البالغة بمكان " لكن العلم الحديث لم يشارك في إيجاد حلول لها، وما كان في وسعه أن يفعله . والواقع أن أهم

---

[271]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج3، مصدر سابق، ص178.

[272]– المصدر نفسه، ص179.

الأسئلة التي ينبغي على الإنسان أن يجيب عنها ليس للعلم فيها قول . وهذا هو الدّرس الذي سعى سقراط إلى تعليمه وقتما نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التي تعلن عن الكون وتحكّمه.. وقد ربح الدين كلما تخلى عن سلطانه القديم على ميادين المعرفة، فإن معالجتها لم تكن أصلا من واجباته، ومدارها توجيه الإنسان صوب غايته الحقيقية وهي عبادة الله ودخول ملكوته تعالى "[273].

وهم التقدم المادي كمسلك للارتقاء:

سراب الخلود؛ تلك هي العبارة التي استهل بها توينبي عناوين فصول الجزء الثالث من كتابه دراسة للتاريخ، فالصدمة التي أحدثها سقوط روما عام 410م في نفوس مواطنيها الذين توهموا لأجيال عديدة خلود دولتهم العالمية، هي شبيهة بالصدمة التي حلّت بالمسلمين عند سقوط بغداد في أيدي المغول سنة 1258م، ولم تشفع أشعار **هوراس** Horace، شاعر البلاط الروماني الذي رأى خلود إمبراطوريته كخلود فصول الدورة السنوية، فخلدت أشعاره ولا تزال كما يذكر **توينبي** تردّدها شفاه الناس إلى يومنا هذا لكن لم يكتب الخلود لدولته.

وربما كان التقدم التكنولوجي في عصرنا ينتج هالة من الخلود الخادع شبيه بالانقياد الأعمى وراء نفس السراب فيما مضى من قبل الرعايا الرومانيين، ويرجع **توينبي** كل هذا إلى الاعتقاد خطأ بفكرة وحدة الحضارة.

ومغزى هذه الفكرة " ومبناها أنه لا يوجد واحد وعشرون أنموذجا حضاريا مميزا؛ ولكن حضارة واحدة فحسب هي الحضارة الغربية، وما نظرية وحدة الحضارة هذه إلا رأي خاطئ...أوحى به مظهر الحضارة الغربية الخداع، إذ استطاعت في العصور الحديثة أن تلقي شبكة نظامها الاقتصادي على جميع أنحاء العالم وتلا توحيد العالم اقتصاديا على

[273]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ،ج3، مصدر سابق، ص178.

أساس غربي، توحيده سياسيا إلى نفس المدى تقريبا وعلى نفس الأساس الغربي"[274] ، ومردّ كل هذا يرجعه **توينبي** إلى وهم التقدم كشيء يتحرك في خط مستقيم، فالمؤرخون الذين يقولون بوحدة الحضارة يرون أن التاريخ سلسلة واحدة تتفق كل نهاية حلقة ببداية دورة أخرى كأجزاء العصا المتصلة بعضها ببعض، وإن استطارة الحضارة كما يسميها **توينبي** –تعبير عن شيوع النموذج الغربي عالميا – ليس فيه دليل على تفرد وإبداع حضارة ما كلّ شيء.

يستدل **توينبي** بما كتبه فريمان عام 1973م أنه " ليس هناك أدنى شك في أن كثيرا من أهم المخترعات الأساسية للحياة المتمدينة، قد اخترع مرة و أخرى في عصر وفي بلاد بعيدة عن بعضها. و ذلك لأن أمما مختلفة كانت قد وصلت إلى مراحل خاصة من التقدم الاجتماعي التي تدعو الحاجة فيها لأول مرة إلى هذه المخترعات، ومصداقا لذلك اخترعت الطباعة على حدة في كل مكان في الصين و أوربا"[275].

وأفادنا علم الآثار والتاريخ أن اكتشاف النار والكتابة إضافة إلى علوم الحساب وتدجين النباتات والحيوان لا ترتبط كلها بأصل معين كما يخبرنا **برودويل**، بل غدت كلها ثروة ومنفعة للجماعة الإنسانية وللحضارات المتعاقبة.

لكن السمة البارزة في عالمنا المعاصر أن صناعة التقنية كانت مبدأ الأمر نتاجا غربيا بامتياز، وذيوعه بصورة صارخة أمر لا يبعث على الاطمئنان، فمنها ما هو في صالح البشرية، وبالطبع فإن الكثير منها دافع من دوافع سيطرة الغرب على العالم، " ولن يكون سهلا في عصرنا اليوم بما اتسم به من سرعة التداول وانتشار العلاقات والأنباء والمعلومات وقف سرعة انتشار المزايا التي تتيحها كل ساعة وكل يوم حضارات الأمم

[274]– توينبي أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، تر محمد فؤاد شبل،ج1، مصدر سابق، ص59.

[275]– المصدر نفسه، ص67.

والشعوب وتقدمها"[276]، وبالمقابل مساويها أيضا؛ فقد تمكّن العالم الغربي بفضل هذا النظام العالمي أن يستولي على $\frac{4}{5}$ ثروات العالم الذي لا يمثلون من تعداده إلا خمسه.

إن هذا الانتصار على البيئة المادية في عصرنا أعقبه حدوث تغيرات تحولت نفسها بمرور الزمن إلى تحديات داخلية، وإن هذه الثورة التكنولوجية أبرزت في المحيط الاجتماعي حشدا ذا سمعة سيئة من المشكلات، " ذلك العدد الهائل من العلائق التي لا توصف، والتي تبعثها أي حضارة داخل أشيائها و أفكارها من جانب، وبين هاتين المجموعتين والإنسان من جانب آخر"[277].

ولقد عدّد كثير من الباحثين مساوئ العصر الصناعي المتأخر، الذي لا يزال يعاني الإنسان من مشاكله منذ ما يزيد عن القرن من الزمان؛ مثل تشغيل الأطفال وساعات العمل وانخفاض الأجور والاستغناء بالآلة عن الإنسان، إضافة إلى المخاطر الصحية والنفسية التي تتهدد العمال وغيرها من المشاكل التي لم تشفع القوانين والشرائع في الحد منها فضلا عن القضاء عليها.

أمل الإنسان أن تكون قوته متمثلة في العلم والتكنولوجيا قادرة على احتواء مخاوفه من انتشار الرعب النووي، وأن يدرأ شبح المجاعة العالمية، وأن يؤدي إلى تحسين الرعاية الصحية والسيطرة على الفيروسات والأمراض والمستعصية، و إيقاف تلوث البيئة، غير أن الوسائل العصرية لم تنجح في ردع سير الأمور نحو الأسوأ " فما يخيّب الآمال أن نجد أن التكنولوجيا نفسها في خطأ متزايد . لقد أدّت الرعاية الصحية و الطبابة إلى زيادة مشكل السكان حدّة، واكتسبت الحرب مصدرا جديدا للرعب ناجما عن اختراع الأسلحة النووية وباتت أفانين البحث عن الترف والسعادة مسؤولة إلى حد كبير عن التلوث، وكما

---

[276]– برودويل فرناند، تاريخ وقواعد الحضارات، تر حسين شريف،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1999، ص07.

[277]– بن نبي مالك، شروط النهضة، تر عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص43.

قال **لنكتون:** كل مصدر جديد زاد الإنسان به قوته على الأرض استخدم في تقليل فرص أحفاده للاستفادة من إمكانات المستقبل، لقد كان كل تقدم أحرزه الإنسان يتحقق على حساب خراب بيئته، وهو خراب لم يتوقعه ولا يمكن إصلاحه"[278].

إن الإنسان هو محور الحضارة وأساسها، ولا نستطيع الحديث عن الحضارة في ظل امتهانه والنزول به في الدّرك الأسفل من الاهتمامات، والحقّ الذي نجمع عليه اليوم أنه لم يعد للوجود الإنساني قيمة في عصر التقنية الذي نعيشه، وبلغ الإنسان من التّفاهة والابتذال ما لم يبلغه عبر سالف الأزمان.

يتساءل غارودي " إلى أي زمن يعود خطأ التحول الذي قادنا إلى هذا القلق وإلى هذا الضلال؟ لم أشر بما يكفي لتزايد البطالة و العنف. وكما كتب مارلو: حضارتنا هي الأولى في التاريخ، التي إذا طرح السؤال الأهم: ما معنى الحياة؟ أجابت : لا أعرف، على مدى القرن، فشلت كل الإجابات"[279].

لقد فتحت الحضارات السابقة لحظات صحوة للإنسانية يختلف تماما عن المستقبل التي باتت الحضارة الغربية المعاصرة تطرحه أمام الإنسانية، والتي أهدرت القيمة الإنسانية على نحو قلّ أن نجد نظيرا له في التاريخ، حيث أصبح وجوده و أضحت حقوقه لا تصان إلا بالقدر الذي يسمح به جهده المضاعف وكفاحه من أجل العيش أو الإنتاج، وفيما عدا ذلك فهو يعامل بنفس القسوة التي يعامل بها الجماد، إنه شبيه به كمورد يستفاد منه إلى حين استنفاذ طاقته وعصارة شبابه وفورته، فإذا ما استهلك جميع ما فيه لفظ كما تلفظ النّواة.

---

[278]– سكينر ب–ف، تكنولوجيا السلوك الإنساني، تر عبد القادر يوسف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،دط، 1980، ص06.

[279]– غارودي روجيه، حفارو القبور، تر عزة صبحي، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2002، ص08.

وربما يسيء بعضنا فهم التّقدم على أنه يختص بالتقدم التقني والآلي، بل نعني به التقدم المادي والثقافي معا، ونحن على يقين أن كلّ الشّرور التي تتربّص بالإنسان من أزمات اقتصادية خانقة و مشاكل الهجرة واللجوء التي تختلف عن هجرات الشعوب الأولى الممتزجة بروح المغامرة والتحدي التي تحدثنا عنها في المباحث الأولى، ونذر الحروب المستعرة في كلّ مكان، وانعدام الاستقرار في الحياة والتهديدات البيئية الخطيرة التي كانت لا تعار أدنى اهتمام بها إلى وقت قريب وباتت اليوم تفرض نفسها بالقوة، و أنواع الفيروسات القاتلة المستجدة والحديث عن القنابل الجرثومية والأسلحة البيولوجية كلّ هذا وغيره يتّصل أيّما اتصال بالتّطور والتّحول الصّناعي السريع الذي عرفه عصرنا.

ولعلّ هذا ما جعل **شبنغلر** يكثر من الحديث عن العنصر المفقود في البناء الحضاري الذي عبر عنه **جيته** والذي لا يخفي إعجابه به في ثنايا سفره حين يقول " كل تقدم مادي لا يرافقه تسام روحي أمر ينذر بالخطر.. إن عصرا تسود فيه الآلية البحتة وينعدم فيه الابتكار الفني والفلسفي وتسيطر عليه الاتجاهات اللّادينية لهو عصر تدهور واضمحلال"[280]، فهل توجد مقولة أصدق تعبيرا عن حياتنا اليوم تضاهي هذه المقولة، ولعلّ في هذا العذر الكافي لأولئك الذين يحملون على هذا العصر ويعتبرونه فترة انحطاط للتاريخ الإنساني بأكمله.

" لقد استحال الكيف إلى كم، ، لقد استحالت الوسائل إلى غايات..لقد كان النقد وسيلة للتبادل ولكنه استحال إلى غاية، فأصبحت قيمة كل شيء تقاس بالنقد..و بعد أن كان الإنسان ثريا لأنه قوي، أصبح قويا لأنه ثري..ولقد وجدت الآلة لتكون وسيلة لسعادة الإنسان، ولكنها بدورها استحالت إلى غاية فخضع كل شيء للآلية وأصبحت الآلية طابع المدنية الحديثة، وأصبح كل شيء يقاس بقوة الأحصنة لا بالقوة الروحية"[281].

---

[280]– صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مرجع سابق، ص257.

[281]– نفس المرجع و الصفحة.

قيل لا يدرك الحكيم من المستقبل سوى ما هو على وشك الوقوع، ولو تأمّل المرء اليوم الناس في عالم السرعة الذي نعيشه لأدرك أن جميع العابرين في الحياة التي غدت قصيرة بفعل التقنية أصبحوا جميعا حكماء، سائل من شئت اليوم من هؤلاء الذين اكتووا بلظى هذا العصر، هل استرشدوا بالقليل من نوره، وكيف يتراءى لهم المستقبل ليس القريب فحسب بل البعيد؟ ستدرك حينها كيف غدا الناس جميعهم حكماء، حيث لا يخرجون عن الصواب إلا لماما، فهم في اجتماعهم وأثناء سيرهم لم يعودوا يتطلعون إلى البنيان ولا يرون في الشوارع التي كانت تستهويهم بالماضي القريب إلا جدرا تتهاوى، إن الحضارة بأكملها قد أصبحت مجرّد أكوام.

إنّ هؤلاء وإن أقرّوا بأن غسق الظلمات قد لفّ العالم من كل الجهات، لا يتصرّفون وفق ما انتهى إليه استنتاجهم، ولا يهمّهم إذا ما التقطوا شاشة تلفاز أو إشارة الأنترنت أن يفكّروا مرة أخرى بنفسية الحكيم، وهم على هدي من نفوسهم أنّ مثل تلك التّكنولوجيات باتت تشكّل وعيهم وتدخلهم مرحلة من اللّاوعي وعدم الإدراك، وإنّ مثل هذه الوسائل قد غدونا مجمعين على أنّنا عن قصد لم نعد نخصّص لها الوقت الكافي لتدارك مخاطرها أو معرفة تأثيرها الذي أصبح واضحا للعيان على ناشئتنا وفلذات أكبادنا، بل حتى في مسألة التبرير في الفضاء العام تغدو التقنية كما يصرحّ **برنارد بيوندوت** تخلق الحقيقة على نحو للوعي العفوي عن طريق " كشف ما هو مخفي بالضرورة عن أعين الرجل في الشارع، ومن ثم إعطاؤه الوسائل لفهم الحقائق التي يمر بها"[282]

وأشار بعض الباحثين أن مثل هذه التعديات لم تعد تزعج الكثيرين منا، بل في الحقيقة جرى التكيف معها بمرور الوقت بسهولة إجمالا، فحين نحصي فوائدها في الكشف عن المجرمين أو الفاسدين نبتهج لذلك، ونتغاضى عن قصد حين نواجه منها

[282] -Bernard Billandot, société économie et civilisation, EMSHA, paris nord, 2021, p563.

الاجتياح المفرط لخصوصيات المجتمع وحسّه الأخلاقي، بل استهجاننا و تمرّدنا قصير الأمد ، وتخبو حدّته مع طلوع فجر اليوم الموالي، في مشاعر يغلب عليها التّخدر والتّبلّد.

"ذلك التّبلد لحسّنا النقدي يمثّل بنظري تطورا هاما يثير بالغ القلق.. يمكننا أن نعاين عن كثب آلية المصيدة: تصاعد حدة التوترات المرتبطة بالهوية يسبب لنا مخاوف مشروعة، تحملنا على البحث عن الأمان بأيّ ثمن، لأنفسنا وأحبائنا، وعلى توخي الحذر كلما شعرنا بالتهديد. ولذلك، إننا أقل يقظة بالنسبة إلى الانتهاكات التي قد يفضي إليها هذا الموقف المتيقظ، أقل يقظة عندما تتعدى التكنولوجيا على حياتنا الخاصة، و أقل يقظة عندما تعدّل السلطات القوانين وتضفي عليها منحى أشد سلطوية واستعجالا"[283].

إن الظّلال التي انعكست من التقنية لم يسلم منها حتى الباحثون عن النور في العزلة ، فبحكم اختلاطهم لثواني و إجالة أبصارهم في دنيا الناس اليوم يكونون قد حملوا أفكارا يجدون ظلالها في رحلة بحثهم عن النور؛ النور الذي يحاول عبثا المخلصون عبر نبرات أصواتهم الباهتة –في عالم تتعالى فيه ضوضاء المدنية وصخبها– أن يبلغوه مسامع الناس وأفئدتهم، ولقد عبّر مالك بن نبي عن هذه الحالة بنشيد رمزي رائع حين يقول:

"هاهم الآن ينصبون على باب المدينة التي تستيقظ السوق وملاهيه، لكي يميلوا هؤلاء الذين جاؤوا على إثرك ويلهوهم عن ندائك.

وهاهم قد أقاموا المسارح والمنابر للمهرجين والبهلوانات لكي تغطي الضجة على نبرات صوتك.

وهاهم قد أشعلوا المصابيح الكاذبة لكي يحجبوا ضوء النهار. ولكي يطمسوا بالظلام شبحك، في السهل الذي أنت ذاهب إليه.

[283]– معلوف أمين، غرق الحضارات، تر نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2019، ص299.

وهاهم قد جمّلوا الأصنام ليلحقوا الهوان بالفكرة"[284].

وإنها المفارقة التي يحملها هذا العصر من امتلاكه للوسائل الكفيلة بإنقاذ البشرية من جميع الويلات التي تحيق به، وانطلاقه في الآن ذاته في اتجاه معاكس في انحرافات تبعث على القلق من مصير مشؤوم، فإن التقدم الذي يضمن رخاء الكوكب هو نفسه كما يوضح أمين معلوف يهدّد بإفناء كل ما بناه الجنس البشري حتى الآن، بل كل ماعهدنا تسميته ب 'الحضارة'.

" كيف انتهى بنا المطاف إلى هنا؟ إنه سؤال أطرحه على نفسي كلما واجهت اختلاجات هذا القرن المشؤومة. ما الذي حاد عن مساره؟ ماهي المنعطفات التي كان لا يجب سلوكها؟هل كان في المستطاع تجنّبها؟ واليوم، هل من الممكن بعد التحكم بالدفة؟"[285]

وهو إذ يستعير مفردات بحْرية فإن أمين معلوف يحاول من خلالها رسم تلك الصورة التي باتت تقضّ مضجعه منذ سنوات، صورة الغرق؛ غرق الحضارات. وربما كان اصطلاح غرق الحضارات فيما مضى كناية عن التدهور والاضمحلال لكنّه في وقتنا الحاضر يستعمل فيما يعنيه اللفظ حقيقة لا مجازا، حيث إن البشرية في اندفاعها المسعور نحو الاستغلال الأقصى لموارد الطبيعة قد دفعت الكون الكبير إلى حافّة الانهيار أيضا، وباتت التّحديات البيئية ومخاطر التّلوث تهدّد وجودها على ظهر هذه البسيطة، وإن التحدي ليتعاظم بصورة لم يشهد الإنسان مثيلا لها منذ أن خطا خطواته الأولى نحو السيطرة على الطبيعة. وربما هربت الحضارات القديمة والشعوب على أطواف نجاة نحو مكان آمن، لكن أكثر الأماكن أمنا في الكوكب والتي تعدّ مصدرا رئيسا لنجاة الإنسان في حال أعوزته الحاجات الضرورية لبقائه قد اقتربت من حافة الانهيار.

---

[284]– بن نبي مالك، شروط النهضة، تر عبد الصبور شاهين،دار الفكر، دمشق، دط، 1986، ص18.

[285]– معلوف أمين، غرق الحضارات، تر نهلة بيضون، مرجع سابق، ص17.

إن الأنهار الجليدية خزان المياه العذبة لا تكفّ عن الذوبان، والمحيط القطبي الشمالي الذي لم يكن يمكن عبوره منذ آلاف السنين طوال فصول السنة، قد غدا سالكا لطرائق الملاحة في أشهر الصيف، وانفصال الكتل والجبال الجليدية في القطب الجليدي الجنوبي أضحى مشهدا مألوفا كل يوم، واختفاء جزر المحيط الهادي بفعل ارتفاع منسوب المياه في المحيطات، والزلازل والفيضانات العنيفة والأعاصير المدمرة والاحتباس الحراري تعطي صورة لفردوس أرضي يحترق ويتلاشى أمام أعيننا؛ بوادر بنهايات مدمرة للحياة بمكوّناتها شبيهة في شدتها بطوفان نوح الذي عمّ الأرض كلّها، إلا أن نوحا عليه السلام أمره صاحب الأمر أن يسلك في سفينة النجاة من كل زوجين اثنين للدلالة على حاجة الإنسان الدائمة للتنوع البيئي وشرطا لوجوده واستمراره.

أما الحضارة الغربية المعاصرة فأصدق وصف قِيل فيها ما عنون به **روجيه غارودي** أحد كتبه *حفارو القبور؛ الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها*، وعلى ما يبدو فإن شواهد القبور التي ذكرناها كافية للتدليل على فظاعة التحول من الروحي إلى المادي ولنا أن نتخيل كيف ستكون نتائج تقدم العلوم دون عقال يوجّهها على الإنسان و على الكون الكبير في المستقبل المنظور والقريب.

أمام هذه الأزمة العميقة والتحديات الخطيرة التي باتت تهدّد النوع الإنساني، والتي ربما لم يكتب لتوينبي بعد 46سنة فقط بعد وفاته أن يشهدها، فما ستشهده الأجيال بعد 50 سنة من كتابة هذه السطور حدث جلل لا يستطيع أيّ عقل حصيف أن يتنبّأ به، إذا لم يعد بناء تلك الجسور التي هدمتها الحضارة الغربية المعاصرة بين العلم والدين، وقد رأينا في المطلب السّابق محاولة توينبي أن يرمي طوق نجاة متمثلا في العودة إلى الدين إلى ما هو روحي للحضارة التي توشك أن تغرق في ثمالتها حتى الموت.

المبحث الثالث

الحضارة الإسلامية في ضوء النظرية

يكاد لا يخلو كتاب من كتب توينبي التي يدرس فيها الحضارات من الحديث عن الحضارة الإسلامية، ولهذا يعدّ من قبل الباحثين عموما والعرب خاصة من المؤرخين الذين أنصفوا هذه الحضارة العظيمة، والتي جاءت واسطة العقد بين الحضارات القديمة والحضارة الغربية الحديثة، فحافظت على تراث الأولين من الضياع الذي لم يكن حتى العصر الحديث موجودا سوى بالنسخ العربية المحفوظة في المكتبات الإسلامية بالمشرق وأوربا، وسنرى مع توينبي أطوار الحضارة التي مرت بها الحضارة الإسلامية، من انبعاثها في عبقرية محمد وبداية شأنها في الأقليات المبدعة التي حملت رسالته للعالم أجمع في طور الارتقاء، إلى الحد الحضاري الذي تتفاعل فيه البروليتاريات الداخلية والخارجية، وصولا إلى طور الانهيار والتحلل في العهد العثماني.

طور النشأة:

إن آخر ما توصلنا إليه في نهاية المبحث الأول من هذا الفصل هو القانون الاجتماعي الذي استخلصه توينبي عند حديثه عن أهم خصائص البروليتاريات الخارجية، في كونها تظل بعيدة عن تأثيرات الثقافات الدخيلة، وأنها باستطاعتها التكفل بمصيرها، ولا يخرج توينبي عن نتائجه التي وصل إليها بالاستقراء التاريخي، فقد أوضح في معرض حديثه عن الأقليات المبدعة التي صنعت الحضارات؛ عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول: " ولد محمد في نطاق البروليتاريا الخارجية للإمبراطورية الرومانية، في عصر كانت العلاقات بين الإمبراطورية وبلاد العرب قائمة على أزمة، ..بلغ اقتحام التأثيرات الثقافية الواردة من الإمبراطورية لشبه الجزيرة العربية، درجة الإشباع. فكان لا مناص من أن يترتّب على ذلك انبعاث ردّ فعل شبه الجزيرة العربية على هيئة تولّد طاقة مضادّة تصدّ تلك التأثيرات الثقافية الدخيلة على بلاد العرب."[286]

أما في *تاريخ البشرية* فينسب التغييرات التي ستطرأ على شبه الجزيرة العربية إلى العبقرية المحمدية، فمنذ تدجين الجمل قبل محمد عليه السلام بألفي عام كانت لا تزال الآراء والتنظيمات تتغلغل إلى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب شمالا، " وهذا التغلغل كان أثره تراكميا. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانفجار، وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب، إذ تلقّى هذه الشحنة فأحسن استعمالها، وذلك برؤيته النيرة وتصميمه وحكمته."[287]

يرجّح الباحثون في التاريخ تسمية الحضارة التي قامت في بداياتها بشبه الجزيرة العربية ب إسلامية لأنها قامت على الإسلام أوّلا، و لأن الذين أسهموا في نتاجها المعرفي جلّهم من الأعاجم من غير العرب يقول ابن خلدون: " من الغريب الواقع أنّ

---

[286]– توينبي أرنولد ، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، مصدر سابق، ص380.

[287]– توينبي أرنولد، تاريخ البشرية، تر نيقولا زياده، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، دط،2004، ص451.

حملة العلم في الملّة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم؛ لا في العلوم الشّرعية، ولا في العلوم العقليّة، إلّا في القليل النّادر، وإن كان منهم العربيّ في نسبه، فهو أعجميّ في لغته ومربّاه و مشيخته، مع أن الملّة عربيّة، وصاحب شريعتها عربيّ !" [288]

رأينا أن السّبب الذي أشيع حول سقوط روما و تدهور حضارة العصر الوسيط هو الكهنوت الذي اختزل الوجود الإنساني في السّعي للخلاص مذ وقع آدم في الخطيئة، بينما على العكس لم تكن لتشهد جزيرة العرب حضارة لولا مجيء الإسلام، ولئن اشترط العلم في نهوض الأمم فقد كان أغلب سكّان الجزيرة أمّيّين قال تعالى" هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم "[289]، إضافة إلى معوقات كثيرة تحول دون قيام حضارة ببلادهم فجغرافية المنطقة معظمها جبال جرداء وصحراء قاحلة " ومن هنا قلّما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد، ولكنهم يتتبّعون مواقع القطر لتربع أنعامهم، و إذا تأخّر المطر اشتدّ الحال عليهم"[290] باستثناء بلاد اليمن، فهي كثيرة الوديان فسمّي هذا القطر باليمن السّعيد، إضافة إلى اختلاف نحلهم وديانـاتهم، الوثنيّة، اليهوديّة، النّصرانية، عبادة النار، وطوائف أخرى تعبد الشمس والكواكب.

ولم يكونوا على شيء من دين إبراهيم سوى قلة قليلة تعد على رؤوس الأصابع، وكانت إذا اجتمعت قريش في أعيادها اجتمعوا يقولون" تعلمن والله ما قومكم على شيء؛ لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يسمع؟يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء.وذهبوا يطوفون في البلاد يلتمسون حنيفية

[288]– ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2005، ص607.

[289]– سورة الجمعة الآية02.

[290]– شلبي أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، دط، 2012، ص22.

إبراهيم"[291]، ولم تكن هناك رابطة ولا حكومة تجمعهم إلّا تعصبّهم كلّ لقبيلته، وإذا ما نشب خلاف يقتتلون لأتفه الأسباب إلى حدّ الفناء.

كما كانت إلى جانب هذه الجاهلية خصال حميدة وأخلاق كريمة، فجاء الإسلام فوحّدهم تحت راية التّوحيد وأبطل الجاهلية وأتمّ مكارم الأخلاق وقدّم " تصوّرا مباينا للمسيحية سواء بصدد الحياة على الأرض أم بصدد المثال الأعلى للإنسان، فليس نزول آدم عقوبة على خطيئة وإنما ليكون خليفة الله في أرضه دون ملائكته (إني جاعل في الأرض خليفة)البقرة 30، ورفض الإسلام حياة الرّهبنة(لا رهبانيّة في الإسلام)حديث نبوي–ليستدلّ بها على عمارة الأرض (هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)هود61،فالمثل الأعلى للمسلم هو العالم العامل بعد أن كان الرّاهب الناسك"[292] .

أعلى الإسلام من مكانة الإنسان وكرّمه، وسخّر له ما في الكون من مخلوقات، ودعاه إلى التأمل والتّدبر في صفحة الكون و آثار الأمم السّالفة استثارة لهمّته وتحديّا لكشف أسرار الوجود، وهي دعوة إلى نهج سبيل العلم لتتمّ له الخلافة على الأرض فكان أول ما نزل من القرآن –اقرأ– " التي أدهشت النّبي الأمي و أثارت معه وعليه العالم، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التّمدّن و الرّقي"[293]

يرى **توينبي أن** انتفاء مظهرين اجتماعيين ضروريين في قيام الدول كان مما يعيق قيام الدولة الإسلامية :

" الأول– انتفاء عنصر الوحدانية في الفكرة الدينية.

---

[291]– خفاجي محمد عبد المنعم، الإسلام والحضارة الإنسانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982، ص10.

[292]– صبحي أحمد محمود و صفاء جعفر عبد السلام، في فلسفة الحضارة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2005، ص57 .

[293]– بن نبي مالك، شروط النهضة، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1986،ص51.

الثاني– انتفاء القانون و النظام وهما دعامة كل حكومة. و لقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية، وتمّ ذلك فعلا..فغدت للإسلام بفضل ذلك قوّة دافعة جبارة ، لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جاهلة إلى متحضّرة، بل تدفّق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السّوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السّهب الأوراسي "[294].

وعليه فممّا يسّر قيام حضارة بشبه الجزيرة العربية التّجانس الدّيني والسّياسي الذي يحدّ من الخلافات العقائدية أو القبلية، وقد كانت الهجرة النبوة بداية تجسّد الدّين في الدّولة في شخص النّبي صلّى الله عليه وسلّم وبداية التّقويم الإسلامي لها .

ولتوطيد سلطان الإسلام في هذه الدّولة النّاشئة قامت غزوات داخلية لقهر الأعداء الذين رأوا في دعوته تهديدا لمصالحهم ومراكزهم، وفتوحات خارجية درءا للخطر الخارجي ممثّلا في فارس والروم، اللتان كانتا تتقاسمان مناطق نفوذ في أخصب بلاد العرب؛ الحيرة بالعراق تابعة للتاج الفارسي و بلاد اليمن تحت حكم مملكة اكسيوم و الغساسنة بالشّام تدين بالولاء لروما، وكان القضاء على هذا التهديد الخارجي في عصر الخلافة الرّاشدة عاملا حاسما في انتشار الإسلام خارج حدود الجزيرة ليستكمل دوره الحضاري.

طور الارتقاء:

رأينا أن المحاكاة هي التي تتيح للأغلبية العاطلة عن الإبداع أن تقتفي أثر مبدعيها، ولا شك أن الأفراد المبدعين أو الأقلية المبدعة تقيم في نطاق البروليتاريا الداخلية، فتنتشر تلك المآثر في مجتمع يعيش حالة من الركود الحضاري من حالة الين إلى وضع جديد، يقول **غوستاف لوبون** " لم ينقض القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النّبي تخفق من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسي،

[294]– توينبي أرنولد ، مختصر دراسة للتاريخ، ج1، مصدر سابق، ص381.

وغدت إسبانية التي هي إحدى الممالك النصرانية الكبرى في أوربة خاضعة لشريعة محمد"[295] ، وتوالت الفتوح في القرون الموالية وبلغت رقعة الإسلام الحدّ الذي يلزمها الانصراف إلى تنظيم شؤونها.

و يرى **توينبي** أن مما يدعو إلى الإعجاب سرعة الفتوح ومداها، فقد انتزعت سورية والجزيرة الفراتية وفلسطين ومصر إلى سنة 641م من الإمبراطورية البيزنطية، واستخلصت العراق سنة637م، وإيران حتى مرو من الإمبراطورية الساسانية، " واستسلم الأرمن وسكان جورجيا(وكلا الفريقين كان من أتباع الساسانيين والبيزنطيين). وبين سنتي 710–712م اجتازوا البحر إلى شبه جزيرة ايبريا وقضوا على مملكة القوط الغربيين، واحتلوا أملاكها حتى الواقعة في جنوب غرب بلاد الغال. وفي الواقع فإنه لم يبق خارج سلطانهم سوى الزاوية الشمالية الغربية من إسبانية، وفي الوقت نفسه كان العرب يفتحون (711)حوض السند ومنطقة البنجاب الجنوبية بما في ذلك الملتان."[296]

وهكذا يستمر توينبي في عرض البلاد المفتوحة شمال غرب أفغانستان والاستيلاء على الطريق البري بين الهند والصين، ثم إلى بلاد ما وراء النهر، وقد أبطلت هذه الفتوح كل فتوح الإسكندر في الشرق ووضعت حدّا لها.

وكان عهد بني العبّاس الذين حوّلوا عاصمتهم إلى بغداد أزهى عصور الإسلام، حيث أفاد من مسلمة الفتح في بلاد فارس والشام الكثير، فبعد أن دخلوا في دين الله أفواجا لم يمض الكثير حتى كان هؤلاء الأكثر إثراء للحركة العلمية و نبغ كثير منهم في مختلف العلوم العربية والإسلامية " فقد برز في الحديث الحسن البصري ومحمّد بن سيرين ، وأبو عبد الله البخاري إلى أمثالهم، وكان لهم فضل كبير في رواية الحديث، ونبغ

---

[295]– لوبون غوستاف، حضارة العرب،تر عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2013، ص153.

[296]– توينبي أرنولد، تاريخ البشرية، تر نيقولا زياده، مصدر سابق، ص458.

في الفقه الإمامان أبو حنيفة واللّيث بن سعد..وظهر في الكتابة عبد الحميد الكاتب وابن المقفّع وغيرهما..."[297].

كما أنشئ بيت الحكمة، وترجمت آداب اليونانيين وثقافتهم، خاصّة في عهد المأمون الذي عهد "إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في علومهم إلى اللغة العربية؛ فنقلوا الكثير منها إلى العربية عن السّريانية، وبعضها عن اليونانية رأسا؛ فقويت في عهده حركة التّرجمة والنقل وأرسل في ذلك البعوث إلى القسطنطينية، وبذل لها الأموال الوفيرة "[298] وأصبحت هذه الترجمات أساسا في الحركة العلمية للحضارة الإسلامية، ففي الفلسفة نجد الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وغيرهم،وفي الطب علي بن عيسى و أبو بكر الرازي و سابور بن سهل وابن سينا وهو أشهرهم جميعا " ونقلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم، وظلّت مرجعا عاما للطّب ستّة قرون وبقيت أساسا للمباحث الطّبية في جميع جامعات فرنسا وإيطاليا، وكان طبعها يعاد مرارا حتى القرن الثّامن عشر ولم ينقطع تدريسها في جامعة مونبوليه إلا منذ خمسين عاما "[299] .

أمّا في علم الفلك والرّياضيات فنجد البتانيّ و محمّد بن موسى وغيرهم وهكذا في سائر العلوم يعطي **غوستاف لوبون** الأمثلة والأدلّة القاطعة على السّبق في بعض الميادين والابتكار في ميادين أخرى، كما ازدهرت الصناعة والتّجارة والعلوم والفنّ والزّخرفة والعمران، وشواهد هذا باقية إلى اليوم.

أمّا من النّاحية السياسية والاجتماعية فقد كان الفتح الإسلامي لإسبانيا مثلا طورا جديدا من التّنظيم ونهضة في مختلف الميادين لم تعهده شعوب تلك المنطقة في شبه الجزيرة الأيبيرية، والتي كانت ترزح تحت جور وطغيان طبقة النّبلاء الذين استباحوا منهم

---

[297]–شلبي أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص63.

[298]– المرجع نفسه، ص65.

[299]– لوبون غوستاف، حضارة العرب، مرجع سابق،ص 506.

كل شيء إضافة إلى فرض رسوم أثقلت كاهلهم، ورأت في الإسلام تحرّرا وعدلا ومساواة بين النّاس جميعا.

والحقّ الذي لم يختلف فيه المؤرّخون على اختلاف أجناسهم ومللهم أنّ الفتح الإسلامي في تلك البلاد كان رخاء، ولنأخذ هذه الشّهادة من رجل دين مسيحي عاش في قرطبة سنة754م(163هـ) " وهو إيزيدور الباجي وعنه نقل المستشرق الإسباني Reinhart Dozy حيث يقول:*..إن العرب كانوا يتحلّون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحدا في شؤون الدين، ولم تكن الحكومة تجبر النّصارى على الدّخول في الإسلام الذي يقدّس حرّية الإنسان في اختيار العقائد و الدّيانات، لأن الإسلام قام على قاعدة لا إكراه في الدين ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم و آثروا حكمهم على حكم الجرمان"[300].

كما لا ننسى الأثر العلمي الذي تركته هذه الحضارة حيث " اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستّمائة ألف مجلد، وكان بالأندلس سبعون مكتبة عامّة، إلى جانب الكثير من المكتبات الخاصة، اجتذبت هذه المدارس وتلك المكتبات الباحثين عن المعرفة من العالم المسيحي والإسلامي على السواء"[301].

طور الانهيار:

لقد سبق لنا الوصول إلى نتيجة في تاريخ الحضارات أن الحضارة حين تكون بصدد الانهيار بفعل غزو خارجي، فهي تنهار داخليا قبل أن تطأها أقدام الغزاة، وأن الاطمئنان إلى المنجزات التاريخية والافتتان بالماضي يدخل الحضارة في حالة من التّحجّر، ولئن كانت الحضارات في بدء أمرها ترتقي عن طريق التسامي ومحاكاة

[300]– الشامي أحمد و محمد عبد العظيم أبو النصر، الحضارة الإسلامية انتشارها وتأثيرها في أوربا، ص203.

[301]– شلبي أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص329.

المبدعين من الأشخاص، ليكونوا قدوة لهم في القيم التي ينبغي عليهم أن يبشّروا بها ، فإنها في مرحلة الانهيار والتحلل تفقد كل مظاهر الارتقاء في الجانب الروحي و القيمي الذي كانت تبشّر به، وسنسوق أمثلة فيما يلي.

لقد كان العدل هو الأساس الذي بني عليه الإسلام و به سادت حضارته، بل يخبرنا القرآن في بعض آياته أنّ الغاية من إرسال الرّسل وإنزال الكتب والشّرائع السّماوية هو إقامة العدل قال تعالى: "لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط "[302] فإذا غاب العدل وانتشر الظّلم واغتصب الملك بدأ بنيان ذلك الصّرح يتصدّع شيئا فشيئا، فالدّين الذي كان أساس الوحدة بين المسلمين في زمن الرّسول و أصحابه أصبح يفرقّهم في زمن أصحاب الأهواء والفتن، كلّ يدّعي أنّه الفرقة النّاجية و ينسب غيره إلى الضّلال والبدعة، بل ليتهم وقفوا عند حدّ الخلاف الذي يعقبه نظر وتمحيص للرّأي الآخر، إذ تحوّل إلى عداوة شديدة وبغض مقيت وتقتيل بين تلك الفرق .

والحقّ أنّ هذا الخلاف الذي تبدّى أوّل الأمر في السّنة والشّيعة والخوارج كان سياسيا، منذ خرج الأمر من الشورى إلى الملك العضوض كما أخبر النّبي صلى الله عليه وسلم بذلك " الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تعود ملكا عضوضا"[303]. " واشتدّ الظّلم زمن ملوك بني أميّة –إلا من سنتين لا غير–زمن خلافة عمر بن عبد العزيز(من 99–101هـ)وتعلّق النّاس بالأمل من الخلاص من بني أميّة بقيام بني العبّاس، فإذا الأمل يغدو سرابا بل كالمستجير من الرّمضاء بالنّار، وأيّ عدل يرجى ممّن بدأ حكمه بسفك الدماء حتى لقّب بالسّفاح؟..و لم ينج عصر من خليفة أسعده الحظّ فمات على فراشه أو دون فتنة أو تمرّد"[304]، فقد قتل جميع الخلفاء العباسيين الذين تولوا منصب الخلافة في

---

[302]– سورة الحديد، الآية 25.

[303]–رواه الترمذي، 2226.

[304]– صبحي أحمد محمود وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة ، مرجع سابق، ص87.

النزع الأخير لها، بل ومُثّل ببعضهم كما يخبرنا رواة التاريخ، كما حدث مع القاهر آخر الخلفاء العباسيين سلطانا قبل أن يفوّض الخليفة الراضي الذي خلفه شؤون تدبير مملكته لأمير واسط محمد بن رائق" ومنذ ذلك صار أمر الخلافة اسما بلا رسم"[305].

ثم توالى الانقسام في شرخ الدّولة، واستأثرت البروليتاريات الخارجية بحكم ذاتي إلى أن استأثر كلّ حاكم بولايته وتسمّى بإمارة المؤمنين؛ ففي القرن الرّابع هجري (10م) لم يبق في خلافة بني العبّاس سوى بغداد وأنحائها " فصارت فارس و الريّ وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمّد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشّام في يد محمد بن طفج، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين، و الأندلس في يد عبد الرّحمن النّاصر، وخراسان في يد نصر بن أحمد ، والأهواز و واسط والبصرة في يد البريديّين، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان في يد الدّيلم "[306] .

وإذا كانت الوحدة تعني في مجموعها ائتلافا ووفاقا فإنّ الفرقة تعني ضعفا وشقاقا، وهدرا للأرواح والأموال، وقد بسطت كتب التاريخ كيف استفاد الصّليبيون من حالة الحروب التي اندلعت بين الدول الثلاث العباسية والفاطمية والسلاجقة، وبين ملوك الطوائف قي الأندلس الذين كانوا يستعينون على إخوانهم في الدّين بالعدوّ الذي قضى على وجودهم تماما بالمنطقة آخر الأمر، فيما عرف بحروب الاسترداد أوربيا ومحنة الأندلس إسلاميا.

كما لا ننسى ضغط الحضارة الغربية وثقافتها التي ينبه **توينبي** إلى أنها أصبحت الشغل الشاغل للأمة الإسلامية، وغيّرت أفكار الناس وحياتهم الاجتماعية و القيمية، وهذه

---

[305]– بيهم محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، دط، 1925 ، ص41.

[306]–متز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،تر محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،دط، 2008، ص01.

الاستجابة الفاشلة للتحدي الغربي تمثلت إما في المحاكاة السطحية للنموذج الغربي، دون أن تغير من واقع حياة الناس شيئا أو مجتمعاتهم، وإما إلى التزمت في رفض الغرب وحضارته والانكفاء على الذات، فيما تناست في العصر الحديث الالتفات إلى ما هو أهم ممثلا في النهضة التي بدأت تقلب موازين القوى في الساحة العالمية.

لقد تحرر العلم هناك في الطّرف الآخر من العالم من قيود وأغلال العصر الوسيط، " ولكنّه في الحقيقة أصبح اليوم أسيرا بيد أصحاب النّفوذ والمادّة، بحيث إنه لم يبق هناك علم أو فلسفة غير مقيدة، وأما صوت سارتر من أجل الحرية فإنه لم يصل إلى مسمع أحد، أما الفرق بين القرون الوسطى والقرون الجديدة هو أن العلم خرج من خدمة الكنيسة ليصبح في خدمة المعمل وكان شعاره في السابق هو كشف الحقيقة أما شعاره اليوم كسب القوة والقدرة"[307]. وهذا الدرس لم يكن قد استوعبه المسلمون بعد.

ويرجع بعض الباحثين تدهور الحضارة العربية الإسلامية في تلك الأقاليم الواسعة إلى سوء الإدارة والتنظيم المالي، ولعل المتتبّع للمشهد في العالم الإسلامي في القرن العاشر ميلادي، يرى نظاما سياسيا جامدا ومخرّبا سارت عليه تلك الأقليات المسيطرة فيما بعد ابتداء من حكم البويهيين.

لقد أوقف هذا النظام التقدم المعنوي لاحقا بعد التقدم الحضاري، لأنه تحول إلى تلك الممارسات التي أثارت قبل أربعة قرون البروليتاريات الداخلية والخارجية و رأت في الإسلام مخلّصا لها من شرورها، من جباية المال خارج الأطر الشرعية " دون تقديم خدمات في مقابل المال المجموع، وفي العادة يجمع هذا المال من الفئات العاملة من زرّاع وصنّاع وتجّار، و كلما تقدّم الزّمن زاد العبء الملقى على عواتق أولئك الناس، ويصل الأمر إلى درجة يصبح العمل مضرّة لأهله، لأنه يجعلهم هدف جباة الضرائب،

[307]– شريعتي علي، تاريخ الحضارة، تر حسين نصيري، دار الأمير للثقافة والعلوم، ط2، 2007، ص478.

وهنا يهجر المزارع أرضه و يقفل الصانع مصنعه ويحوّل التاجر تجارته إلى نوع من التجارة المستورة "[308]

ولعل التاريخ الإسلامي في نظر **توينبي** و افتتان المسلمين به هو ما كان السبب الرئيسي في الانهيار الذي أصاب تلك الحضارة العظيمة، " فقد كان المسلمون ورثة تقليد حربي مجيد، كان هو البيّنة على قيمة الحضارة الإسلامية . ومن ثم كان انكشاف تضعضعها العسكري في العهد الأخير ..كان هذا أمرا مفاجئا بقدر ما كان مهينا لهم، ذلك لأن رضاء المسلمين عن إقدامهم العسكري التاريخي، قد بلغ من عمق تأصّله في نفوسهم، أن الدرس الذي تضمّنه تحوّل المدّ الحربي ضدّهم عقب إخفاقهم أن وصل الأمر إلى حد تهديدهم بطردهم من عقر ديارهم"[309]، ويمكن أن نلحظ هذا في وقتنا الحالي من خلال ما يتم تداوله حاليا من تسارع للأحداث في شبه الجزيرة القبرصية متمثلا في الصراع بين القبارصة الأتراك و القبارصة اليونانيين، ووقوف الغرب المتحيز للقسم اليوناني الأوربي، فضلا عن غياب أي تسويات في المستقبل القريب بشأن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربي، إضافة للضجة الإعلامية التي أثارها الغرب بشأن تحويل كنيسة آياصوفيا إلى مسجد سنة 2020م، مما يدلّ دلالة واضحة أن ما تحدّث عنه توينبي من تهديد يمكن أن يستمر إلى الحد الذي سنشهد معه المطالبة مستقبلا باسترداد الأراضي المسيحية خصوصا اسطمبول والأراضي الواقعة في القسم الأوربي.

هذا بالنسبة للعثمانيين أما بالنسبة للحضارة الإسلامية عامة وسيرها وأهم أسباب انهيارها فجملة الرأي فيه والذي نعتقده صوابا أن الدول فيه لم تكن قائمة على مؤسسات بل على أفراد، فباستثناء عصر الخلافة الراشدة نجد أن جميع الدول التي حكمت المسلمين لم تكن تراعي المصلحة العامة في شيء بالقدر الذي راعت فيه مصلحة البيت الحاكم و أفراده

[308]– مؤنس حسين، الحضارة، مرجع سابق، ص46.

[309]– توينبي أرنولد ، مختصر دراسة للتاريخ، ج3، مصدر سابق، ص312.

عن طريق أخذ البيعة لهم مهما كلّف الأمر الناس من عنت ومشقّة، من البيت الأموي إلى سقوط الخلافة الإسلامية في مطلع القرن العشرين وإلغائها نهائيا، وفي صفحات التاريخ آيات بينات للمتبصرين من جنايات مروعة أهدرت كل شريعة سماوية وحقوق للأمة اعتمادا على عصبيات مقيتة و أجناد مرتزقة وموالي، بل استأثر أحيانا خدم القصور وحريمه ورجال البلاط بتعيين السلاطين والخلفاء ممن يخدم مصالحهم والوقيعة بأهل البيت المخالفين، فينتهي أمر الأمة وجمهورها إلى فرد واحد لا يشرك في أمره أحدا، وربما عايش ابن خلدون بعضا من هذا فاستنتج أعمار الدولة قياسا بأعمار الأشخاص، وطالما ناقشنا هذه النقطة مع أستاذنا المرحوم البخاري حمانة ، وكان رحمه الله يؤلمه بقاء الدولة واستمرارها بدوام الفرد المحكوم عليه بالفناء، طال عمره أم قصر، تلك الدول التي تغيب فيها المؤسسات فتزول بزوال الرجال و أشباه الرجال، ولهذا قلّما نرى في أصقاع العالم الإسلامي والعربي على الخصوص نموذجا يغبط الصديق ويغيظ العدو كما يقال، أصله ثابت و فرعه في السماء، فلا تزال تربتها تحمل تلك البذور الفاسدة التي لا يأسف أحد لزوالها وإن زالت فلا خير يرجى من لاحقتها، وإن عودة الشهود والبناء الحضاري للأمة بمجموعها لحمل ثقيل على نخبها، فما يتطلّبه ردم تلك الفجوة من التّخلف هو أولا التوعية بهذا الماضي الذي يصدق فيه قول القائل التاريخ يعيد نفسه كما تعيد الشمس كرتها، كوننا لم نتعلم من التاريخ شيئا، فجيل الأمة اليوم يتمخّض عن نفس الأهواء و الأوهام الخادعة، و ثانيا وعي بالحاضر يمهّد الطريق لمستقبل واعد للأجيال التالية والله المستعان.

خاتمة

خاتمة:

من خلال بحثنا وبعد عرضنا لنظرية الحضارة في الفكر الغربي المعاصر عند أرنولد توينبي، توصلنا إلى مجموعة النتائج التالية:

-أخضع توينبي التجربة الحضارية للجماعات الإنسانية إلى معيار الكيف، والخروج عن المعايير التي يقدمها المؤرخون التي تقيس تقدم الحضارات وارتقاءها بالكم فقط ، فهو لا يرى في التوسع الخارجي والتغلب على البيئات المتنوعة والتفوق العلمي الموجه نحو العولمة بجميع أطيافها أو الحضارة العالمية انتصارا دون الأخذ بعين الاعتبار الجانب الروحي سر تفوق الحضارات ومبداها منذ فجر التاريخ.

-إن التفوق والانهيار في نظرية الحضارة عند توينبي منوط بعنصر الإبداع في العنصر الحاكم، وتسقط الحضارات أو تدخل في حالة التحجر عندما تقف العناصر الحاكمة عاجزة أمام التحديات الجديدة التي تفرضها الأزمات المتجددة ومتطلبات الراهن، ويغيب دافع محاكاتها من الجماهير التي افتتنت بها في الماضي، فيسري التباغض بين تلك الأقلية المسيطرة والبروليتاريا أو الجماهير.

- ينتهي **توينبي** إلى نتيجة مؤدّاها أن الأديان العليا ليست هي المسؤولة عن هلاك أيّة حضارة من الحضارات، من خلال عرض الآراء المعاصرة التي قوامها أن الأديان العليا هي مصابة بداء عضال يتمثل في مناهضتها الحياة الاجتماعية، واعتبار فكرة الخلاص هدفا أسمى للحياة تقويضا للبناء الحضاري، وهذا فهم مبتذل وبسيط لطبيعة الدّين وللنّفس البشرية؛ إذ الإنسان حيوان اجتماعي وليس نملة خالية من الأنانيّة، فلا وجود لمجتمع إلّا في مناحي نشاط الأفراد الذين لا يتأتّى لهم بدورهم وجود إلّا في هذا المجتمع الذي ينظّم شبكة العلاقات بينهم. بل يعتبر الدّين أقوى الرّوابط الاجتماعية التي تؤلّف بينهم، وتُقدِّمُ الحضارات المتحلّلة الدّليل على صحّة هذا القول حين تنشد رابطة مستحدثة للمجتمع عن

طريق تأليه حكّامه، وعلى هذا يتبيّن لنا أنه لا وجود لتعارض بين محاولة المرء تخليص نفسه بالالتجاء إلى الله، وسعيه للقيام بواجبه اتّجاه الآخرين، وإن غاب الدّين أو غُيِّب في النّقاشات والمساجلات الفلسفية أو كان على هامشها يُسند إليه دور ثانويّ في حياة الأمم وتاريخها، فسيتجدّد ظهوره في صورة أقوى وأشرس ليعلن حضوره الفعّال في التّفكير الإنساني وفي الإنسان لبنة و أساس البناء الحضاريِّ في كل أمّة ومجتمع.

ويكفي أن ننظر مثلا إلى الأحداث الأخيرة بعد تصريحات الرئيس الفرنسي ماكرون و إلى أوضاع الأقليات المسلمة والمسيحيّة والوثنيّة وما تثيره من تصفية الحسابات تحت غطاء الأمم المتحدة لخلق واقع جيو سياسي جديد، لنفهم أن العمق الشعوري بالدّين هو فطرة الإنسانية تأبى أن تخضع لكلِّ ألوان الطّمس و إخفاء آثارها المادية والنفسية، وشبيه بمحاولة إخفاء هرم **خوفو** من الذاكرة التاريخية المشتركة للإنسانية ، وهذا ما بيّنه **توينبي** من خلال إبراز العلاقة بين الدّين والحضارة و دور الدّين خلال مختلف الأزمنة في الخلق و الإبداع و المساهمة في رونق الحضارة وبريقها واعتباره أحيانا نقطة فاصلة بين مرحلتين لتاريخ المجتمعات وحضورها في الساحة العالمية.

–توينبي شأنه شأن الكثير من المفكّرين قلق من المصير المحدق بالحضارة الغربية ولا يرى في العقل الإنساني وحده ضمانا لاستمرار توهّجها وأمان من الأخطار التي تحيق بها، بل يرى في وضوح لا شكّ فيه أنه في ظلّ عقيدة المجاهدة على الأرض، تتحقّق الغايات الاجتماعية الطّيبة للمجتمعات الدّنيوية بتوفيق أعظم كثيرا ممّا تتحقّق في مجتمع دنيوي يرمي إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة، ولا يتطلّع إلى ما هو أسمى من ذلك وبتعبير آخر إنّ الارتقاء الرّوحاني للنّفوس البشريّة في هذه الحياة يحمل معه حقّا تقدّما اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيّأ تحقيقه باستخدام طريقة أخرى، ويرى أنّ ما يؤكّده بشأن المسيحيّة ينطبق على سائر الأديان العليا، لأنّ جوهر المسيحيّة والأديان العليا هو جوهر واحد.

– لا يمكن فهم فلسفة توينبي الكونية عن الحضارة واعتباره لدعوى مركزية الحضارة الغربية عند معاصريه مُنكرا من القول وزُورا ودحض حججهم دون فهم نظرته إلى الدين، فهو وإن بدأ حياته لا أدريا فقد استفاق من سباته هذا بعدما كادت رحى حربين قريبة من أن تفني النوع البشري، ولمّا كانت رسالة الأديان وحاملي لوائها من الأنبياء و المبشرين رسالة عالمية تجمع ولا تفرّق، وتدعو إلى الوحدة وعبادة الإله الواحد، فقد تسمو البشرية بتعاليم الدّيانات فوق الاعتبارات العرقيّة التي أثبت التّاريخ أنّها أسرعت بالحضارات نحو الفناء المحتوم بعد أن أطلقوا العنان للجانب المظلم أو عرق الشر كما يصطلح على تسميته، ودانُوا بعبادة الذات(الحاكم) أحيانا وتقديس الدولة أحيانا أخرى، فتلطّخت صحف التاريخ بتلك المذابح الدموية وألوان الاستعباد المقيتة والصّراعات الطّبقية و رزايا حدائق الحيوانات البشرية في ثلاثينيات القرن الماضي بباريس وأنحاء من أوربا والتي يجب أن تستوفي دراسة منفردة فنستخلص العبر منها جميعا.

– لعلّه من نافلة القول أنّ ما سيطر على أفكارنا واستقرّ في أفكار الرجال و يتمُّ تلقينه لناشئة الأجيال التقسيم الأوربي للعصور التاريخية إلى قديم و وسيط وحديث، لكنّ **توينبي** يرى في وضوح أن اعتماد هذا التقسيم هو منهاج تافه وسقيم ومناف للعقل، إذ هو في حقيقة الأمر محاولة مكشوفة لتوكيد مركزية الحضارة الغربية، حضارة لا يتعدى عمرها بضع مئات من السنين، و هي بهذا فتيّة مقارنة بحضارات سابقة عليها استمرت لأكثر من أربعة آلاف عام، و كان الدّين ورجاله الملهمون أحد العناصر الحاضرة في ميلاد جميع الحضارات وشرطا في نموها وارتقائها.

– دافع توينبي عن المسيحية بإبراز ما للدّين من فضل في جعل الجماعة الإنسانية أفضل في مواجهة التحديات والمشكلات التي تعترض طريقها بتقوية العلاقات بين أفراد جماعتها على الصعيد الجمعي، وعلى الصعيد الفردي فالإيمان بالله يجعل من الشخص أثناء سعيه لتحقيق منفعته يحاذر أنانيته الموروثة وطبعه الشرير و ينشد العون كما يرى

توينبي من الديانات العليا وقيمها الكفيلة بإنقاذه من استعباد التكنولوجيا و تجريدها له من إنسانيته، ولم يكتف بإبراز العناية الإلهية في التّاريخ الإنساني والإنسان الذي حكم عليه بالموت دون أن يتمكّن من بلوغ آماله وتحصيل أغراضه بل يقف منافحا عن الأديان العليا و الدّين المسيحي خاصّة ويبيّن دورها في بناء الحضارات.

– رغم كل ما قدمه **توينبي** إلا أنه هناك نقائص يمكن أن نحدّدها كالآتي:

– هل الحضارة الغربية مسيحية حقا؟ لقد بدا أن كثيرا من المفكرين الغربيين والمؤرخين يعتبرون السؤال مشروعا، فتوينبي و إن اعتبره سببا في نشأة الحضارة الغربية ونسبها إليه إلا أن الناظر في كتب التاريخ يرى نموذجين في التاريخ الغربي، نموذج البطل المسيحي الشهيد الذي يهب حياته من أجل الرب ومن أجل رفاقه، والبطل الوثني الذي يمثله الإغريقي والجرماني، والذي لا همّ له إلا أن يغزو وينهب ويدمّر، فأي من هذين النموذجين تاريخيا يمكن أن ننسب إليه الحضارة التي نشأت بالغرب؟ و أيهما طغى نموذجه في صفحات التاريخ الغربي الأوربي والأمريكي على السواء؟ ولسنا في حاجة لإثبات أن تاريخ الغرب تاريخ للاستغلال والنهب والقهر وشهوة التدمير؟ ولا توجد في التاريخ الغربي فترة من فتراته خالية من الإبادات الجماعية لشعوب بأسرها، ولو تأمّلنا الحروب الصليبية التي كانت تحت غطاء الدّين أصلا فلا نجد دافعا غير الجشع الاقتصادي، وهل كان الدافع وراء إبادة الهنود وتجارة العبيد بأمريكا وتجارة الأفيون بالصين والحربين العالميتين من وحي الديانة المسيحية؟ ربّما كما يرى **إريك فروم** وجماعة من المؤرخين الغربيين كانت عقيدة الخلاص المضمون و افتداء المسيح لهاته الحثالة القاتلة ستارا مسيحيا رخيصا لتغطية السلوك الوحشي وتخديرا للضمائر وسببا لتخفيف الشعور اللّاواعي بالذّنب، وهكذا عادت أوربا إلى وثنيّتها الأصليّة.

_ إن اعتبار التحديات عاملا جوهريا في نشوء الحضارات مصحوبة بنوع من الاستجابة الناجحة وإن صدق على بعض الحضارات فلا يمكن تعميمه على الحضارة الإسلامية

فقد كانت شبه الجزيرة العربية خالية من التحديات الطبيعية والبشرية ، وإن اعتبار توينبي كما لمسنا في مباحث الرسالة التأثيرات الثقافية للحضارة الهلينية وتدفّق التّحديات من الهلال الخصيب تحدّيا للجماعة التي ستحمل تلك الحضارة العظيمة إلى أطراف العالم المترامي فدعوى تحتاج إلى بيّنة من التاريخ، و لا نجد لتلك التأثيرات المزعومة أثرا في الرّبع الخالي، وهو حقيقة خال آنذاك من أي عامل مساعد في نشأة الحضارة كالموقع الجغرافي والغنى بالموارد الطبيعية والثروة الاقتصادية، كما لا تستطيع كتب التاريخ تزويدنا بأسماء شخصيات حملت تلك الثّقافة المزعومة أو مدارس فلسفية تنبينا عن حصولها فعلا، لم يكن شيء من هذا هناك حيث الأصل والمنبت للحضارة الإسلامية وإن كنّا لا نجحد آثارها في أطراف الجزيرة أو الأماكن الخصيبة التي كانت تتقاسمها الدّول العالمية في ذلك العهد من الزّمان، وربّما انفردت الحضارة الإسلامية في النشأة عن طريق فكرة دينية خالية من ضغط التحديات، ومباينة لطريقة نشأة الحضارة الغربية المسيحية التي وإن كان منشأها دينيا فمعلوم أنه في ظل تحدّ وضغط شديدين تمثل آنذاك في خضوع مباشر للإمبراطورية الرومانية.

– اشتراط التوسط في الحافز من قبل توينبي كما رأينا في الفصل الثاني يفتقر إلى الوضوح في الحقيقة، إذ لا يمكن في ضوئه تفسير تباين الاستجابات من جماعة إلى أخرى، وبعبارة أفصح؛ لماذا مثلا كانت الاستجابة المصرية ناجحة وهي حضارة نهرية و لماذا أخفقت شعوب أخرى أمام نفس التحدي كجماعات حوض الكونغو والمسيسيبي فما سر نجاح الأولى وإخفاق الثانية؟، مع أن توينبي يجعل التحديات سببا في توحيد الجهود من أجل التغلب عليها، فيصبح السؤال نفسه في صيغة جديدة، لماذا توحّد هدف الجماعة الأولى وأخفقت الثانية في توحيد هدفها إزاء التحدي نفسه؟!، مع أنهما يشتركان بتعبير مالك بن نبي في صفة الإنسان الطبيعي أو الفطري الذي يكون على استعداد دائم للدخول في دورة الحضارة.

– في الأخير يمكن القول أنّ اطّراح الأديان العليا من البناء الحضاري واعتماد محلّها لاهوتا مستحدثا معبّرا عنه باصطلاحات العلم الحديث هو تكرار لأخطاء الماضي، وسيثبت الزّمن قصوره وفناءه على المدى الطويل، لقد قطع الإنسان أشواطا عظيمة في اكتناه نواميس الكون وكشف القناع عن ألغازه، وأدهشته انتصاراته المتتالية للعلوم الطبيعية والفيزيائية كان أعظمها تفكيك الذرة وتحطيم تركيبها، لكن كم شوطا قطع في تساميه الرّوحي وقد أهداه عقله العظيم بذور فنائه وسلاحا يهدّد بقاءه؟ولماذا يرتدّ كل حين إلى نفسه وقد ارتسمت على وجهه أمارات الضّنك والشّقاء، ولنفترض أنّ العلم توصّل إلى كشف القناع عن آخر لغز في هذا الكون الفسيح، فهل يستطيع الإنسان و على هديه فقط أن يتوصّل إلى معرفة نفسه؟ إنّ توينبي يرى أنّ ميلا يقطعه الإنسان في سبيل سيطرته على الطّبيعة لا يعدل أهمّية قدم واحدة يقطعها في طريق تعزيز طاقته على التّعامل مع ذاته ومع رفاقه ومع الله، ذلك أنه إذا قُدّر للدّين أن يقصى عن الميدان فلا ريب ستشغله أيديولوجيات تجعل من العلوم التي أنتجها العقول المبدعة أداة فتك وتدمير وفي الفاشية والشيوعية والنازية وسائر الأيديولوجيات عبرة للدارسين ومثل بليغ في ارتباط عودة الإنسان إلى العبودية والقمع والاضطهاد كلّما عاد إلى عبادة ذاته.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

-**القرآن الكريم**، برواية ورش عن الإمام نافع، موفم للنشر، الجزائر، سنة2010.

كتب الحديث

-صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، دط، 2019.

-سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، دط، 2019.

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر:

أ- باللغة العربية:

1- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة: محمد فؤاد شبل، الجزء الأول، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011.

2- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة: محمد فؤاد شبل، الجزء الثاني، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011.

3- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة: محمد فؤاد شبل، الجزء الثالث، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011.

4- توينبي أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة: محمد فؤاد شبل، الجزء الرابع، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة،2011.

5- توينبي أرنولد، **تاريخ البشرية**، ترجمة: نيقولا زياده، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، دط،2004.

6- توينبي أرنولد، **الفكر التاريخي عند الإغريق**، ترجمة: لمعي المطيعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، 1966.

7- توينبي أرنولد، **الإنسان وهموم الموت**، تر عزت شعلان، المركز القومي للترجمة،القاهرة، ط1،2011 .

ج- باللغة الإنجليزية:

1-Arnold J. Toynbee, **A study of History**, vol 1, Oxford University Press, New York, 1956.
2- Arnold J. Toynbee, Civilization on Trial, Oxford University Press, New York ,1948.

2- المراجع:

أ- باللغة العربية:

1- إبراهيم عبد العال، **الإنسان لدى فلاسفة اليونان**، جامعة طنطا، القاهرة دط، 1999.

2- ابن خلدون، **المقدمة**، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2005.

3- أبو خليل شوقي، **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة**، دار الفكر، دمشق، ط1، 1994.

4- أوغسطينس، **مدينة الله**، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، الجزء الأول، دار الشروق ، بيروت، ط2، 2006.

5- ايكو أمبرتو، **لا نهائية القوائم**، تر ناصر مصطفى أبو الهيجاء، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، الإمارات العربية المتحدة،ط1 2013

6- ايمار اندريه، **تاريخ الحضارات العام**، ترجمة: فريد م – غامر ، فؤاد جأبو ريحان الجزء الأول، منشورات عويدات ، بيروت–باريس، ط2، 1986.

7- الخضيري زينب، **فلسفة التاريخ عند ابن خلدون**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دط 1989.

8- الشامي أحمد و محمد عبد العظيم أبو النصر، **الحضارة الإسلامية انتشارها وتأثيرها في أوربا.**

9- الشفقي محمد عبد الله، **مع أرنولد توينبي**، ترجمة: محمد عبد الله الشفقي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1964.

10- الشيخ رأفت غنيمي، **فلسفة التاريخ**، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1988.

11- النشار مصطفى، **فلسفة التاريخ**، نشأتها وتطورها، نيوبوك للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، 2017.

12- النشار مصطفى، **من التاريخ إلى فلسفة التاريخ**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة، دط، دت.

13- برودويل فرناند، **تاريخ وقواعد الحضارات**، ترجمة: حسين شريف،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1999.

14- بريتون رولان، جغرافيا الحضارات، ترجمة خليل أحمد خليل،منشورات عويدات، بيروت-لبنان، ط1، 1993.

15- بن نبي مالك، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1984.

16- بن نبي مالك، **القضايا الكبرى**، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991.

17- بن نبي مالك، **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق دط، 1986.

18- بيجوفيتش علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة محمد يوسف عدس مؤسسة العلم الحديث ، بيروت، ط1 1994.

19- بيلت جان ماري، **عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**، ترجمة: محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والإعلام، الكويت،دط، 1994.

20- بيهم محمد جميل، فلسفة التاريخ العثماني، مكتبة صادر، بيروت، دط، 1925.

21- تودوروف تزيفتان ، **تأملات في الحضارة والديمقراطية و الغيرية**، ترجمة: محمد الجرطي ، وزارة الثقافة والفنون والتراث ، الدوحة -قطر، 2014.

22- جمعة علم الدين نيفين، **فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1991.

23-جودة، جودة حسنين، قواعد الجغرافيا العامة الطبيعية والبشرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، .1986

24- حنا جورج، قصة الإنسان، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1989.

25- خفاجي محمد عبد المنعم، **الإسلام والحضارة الإنسانية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982.

26- ديورانت ول، **قصة الحضارة** ، ترجمة: زكي نجيب محمود ، الجزء الأول، دار الجيل للطبع النشر والتوزيع ، بيروت- لبنان ، دط دت .

27- ديوي جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، تر محمد لبيب النجيحي،مؤسسة الخانجي- فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، دط،1963

28- رزيق قسطنطين، **في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين ، بيروت- لبنان ، ط4 1981.

29- سكينر ب-ف، **تكنولوجيا السلوك الإنساني**، ترجمة: عبد القادر يوسف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1980.

30- سنيوبوس شارل، **تاريخ حضارات العالم**، ترجمة: محمد كردعلي، الدار العالمية للكتب والنشر،الجيزة، ط1، 2012.

31- شبنغلر اسوالد، **تدهور الحضارة الغربية** ، ترجمة: أحمد الشيباني ، الجزء الأول ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت- لبنان ، دط ، دت.

32- شبنغلر أسوالد، **تدهور الحضارة الغربية** ، ترجمة: أحمد الشيباني ، الجزء الثاني منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت.

33- شريعتي علي، **تاريخ الحضارة**، تر حسين نصيري، دار الأمير للثقافة والعلوم، ط2 2007.

34- شفيتسر ألبرت ، **فلسفة الحضارة**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي ، مطبعة مصر ، القاهرة 1963.

35- شلبي أبو زيد، **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**، مكتبة وهبة، القاهرة دط، 2012.

36- شلبي السيد أمين، **نظرات في أرنولد توينبي**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دط 2000.

37- صبحي أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط 1995.

38- صبحي أحمد محمود و صفاء جعفر عبد السلام، **في فلسفة الحضارة** ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2005.

39- طحطح خاليد فؤاد، في فلسفة التاريخ، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم، الجزائر-بيروت، ط1، 2009.

40_عبد الكريم النجم زياد، توينبي ونظريته التحدي والاستجابة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2010.

41- غارودي روجيه، **حفارو القبور**، ترجمة: عزة صبحي، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2002.

42- غارودي روجيه، حوار الحضارات، تر عادل العوا، عويدات للطباعة والنشر بيروت-لبنان، ط4، 1999.

43- فروم إريك، **الإنسان بين الجوهر والمظهر**، ترجمة: سعد زهران، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1989.

44- فضل الله مهدي ، بدايات التفلسف الإنساني ، دار الطليعة ، بيروت ، ط2 1994.

45- فولتير، **رسائل فلسفية**، ترجمة: عادل زعيتر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ،2014.

46- كاريذرس مايكل، الثقافات البشرية، تر شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1998

47- كاسيرر ارنست، **الدولة والأسطورة**، ترجمة، أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1975

48-لنتون رالف، شجرة الحضارة ، تر أحمد فخري، ج3، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، دط، 1961.

49- لوبون غوستاف، **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة، دط، 2013.

50- لوبون غوستاف، **فلسفة التاريخ**، ترجمة: عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، دط، 1954.

51- ماركس-إنجلز، البيان الشيوعي، تر العفيف الأخضر، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، ط1، 2014.

52- ماهورياشة عبد الحليم، **فلسفة التاريخ**، مركز نماء للبحوث الدراسات، بيروت، ط1 ، 2016.

53- متز آدم، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الجزء الأول، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 2008.

54- محمد عارف نصر، **الحضارة – الثقافة – المدنية** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي عمان ، ط2، 1994.

55- معلوف أمين، **غرق الحضارات**، ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2019.

56- مؤنس حسين ، **الحضارة** ، عالم المعرفة–المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، ط2، 1998.

57- ويدجري آلبان.ج، **التاريخ وكيف يفسرونه**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد،الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط2، 1996.

58- ويدجري آلبان.ج.، **التاريخ وكيف يفسرونه**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد،الجزء الثاني، الهيئة العامة للكتاب المصري، دط، 1996.

59- هوركهايمر ماكس، **بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية**، ترجمة محمد علي اليوسفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 2006.

60- هيزمان آرثر، **فكرة الاضمحلال في التاريخ**، ترجمة: طلعت الشايب، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، 2000.

61- ولسون كولن، سقوط الحضارة،تر أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط3، 1982.

ب- باللغة الفرنسية:

1- Abdul –Baha, **le Secret de la Civilisation Divine**, traduction Marthe Grondin , Religare, puf, paris, 1973.

2- Bernard Billandot, **société économie et civilisation**, EMSHA, paris nord, 2021.

ج- باللغة الإنجليزية:

1- Aldrete Gregory S **, History of the Ancient World**, THE GREAT COURSES, Virginia,2015.

2–Diop, Cheikh Anta, **Civilization or Barbarism**, LAWRENCE HILL BOOKS, Brooklyn, New York,1ed,1991.

3- Lewis Bbernard, **Istanbul and the civilization of the Ottomane Empire**, vol 9, University of Oklahoma, USA, 1963.

3- الموسوعات والمعاجم:

أ- باللغة العربية:

1- إبراهيم مدكور **المعجم الفلسفي**، معجم اللغة العربية، القاهرة، مصر، دط ، 1983.

2- أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم للنشر والتوزيع،القاهرة ط1، 2004.

3- أحمد مصطفى أحمد، الموسوعة الجغرافية، ج3، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، 2004.

4- أنيس إبراهيم وآخرون ، **المعجم الوسيط** ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط4 2004.

5- بدوي عبد الرحمن، **موسوعة الفلسفة**، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 1984 .

6- بوريلو بودون، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، تر سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986.

7- حماد حسين فهد، **موسوعة الآثار التاريخية**، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن- عمان، دط، 2003.

8- شربل موريس أسعد، **موسوعة بلدان العالم بالأرقام**، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1999.

9- صليبا جميل، **المعجم الفلسفي**، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، سنة1982.

10-كونزمان بيتر و آخرون ، **أطلس الفلسفة**، تر جورج كتورة، المكتبة الشرقية، ط2، بيروت لبنان، 2007.

11- لالاند أندري، **الموسوعة الفلسفية**، تعريب أحمد خليل، المجلد الثالث، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ط1، 1996.

12-لالاند أندري، **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001.

13-مدكور إبراهيم، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط 1983.

14- م روزنتال، ب يودين، **الموسوعة الفلسفية** ، ترجمة سمير كرم، مراجعة صادق جلال العظم، جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

15- النيهوم الصادق وآخرون، **موسوعة بهجة المعرفة**، المجلد الثاني، الشركة العامة للنشر والتوزيع و الإعلان، طرابلس، دط، 1976.

16- وهبة مراد ، **المعجم الفلسفي** ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، دط ، 2007.

ب- باللغة الفرنسية:

1-Breal Michel , **Dictionnaire Etymologique latin** ,libraire Hachette et cie, paris , 6ed, 1906.

2-Michel Legrain ,**Dictionnaire encyclopedique,** larousse,vuef, paris,2002.

4- الرسائل و الأطروحات

باللغة العربية

1- دكتوراه بعنوان: **فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي و روجيه غارودي**، تقديم مسعود بعيش، إشراف يوسف حسين، جامعة **الجزائر**، سنة2007.

2- دكتوراه بعنوان: **أزمة الحضارة العربية الإسلامية**، للطالب: محمود داغسني، إشراف الأستاذ رضا عزوز، جامعة الزيتونة، سنة 2013م.

3- دكتوراه تحت عنوان: **حوار الحضارات**، من إعداد الطالب فهد السنيدي، إشراف الأستاذ مازن مطبقاني، جامعة الملك سعود، سنة 1429هـ.

باللغة الفرنسية

1-These de doctorat, Evelyne Argaud, **l.enseignement de la civilisation** , sous la direction de Geneviere zarate, paris 3, 2001.

2- These de doctorat, Hichem Cherrad**, Histoire et civilisation**, sous la direction de Samaha Khoury, bordeaux 3, 2009.

3-These de doctorat : Feriel Herlaut, **civilisation et droit international public**, sous la direction de Eric Canal Forgues, Université Paris, 2016.

5- المجلات والدوريات:

أ- **باللغة الفرنسية:**

1- Malaurie Jean**, Annales de Geographie**, AROND COULIN , paris, no 336, 1954.

الفهارس

الفـهارس

- فهرس الأعلام

- ثبت المصطلحات

- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام الواردة في الأطروحة

آرنولد جوزيف توينبي[310] Arnold Josef Toynbee(1889-1975م)

مؤرّخ وفيلسوف بريطاني من أسرة كان التّاريخ ضمن اهتماماتها الأولى، فقد كانت والدته مؤرّخة ومن بين النساء الأوائل اللّائي حصلن على درجات جامعية بجامعة **كمبردج** يقول عنها كانت توسدني فراشي ليلا، و اعتادت أن تحكي لي تاريخ انجلترا في حلقات، إلى أن انتهينا منه خلال عام تقريبا أما أبوه فكان بحّارا وكان أن رسم للطّفل **أرنولد** خريطة للعالم أوضح فيها رأس الرّجاء الصّالح وكل محيطات العالم.

تلقى علومه في **ونشستر** وكلّية **بالبول** بجامعة **OXFORD** وكانت دراساته من النوع الكلاسيكي المتمثّلة أساسا في اليونانية واللّاتينية، وبعد أن أنهى دراسته سافر إلى اليونان مدّة عام عاد بعدها محاضرا بأكسفورد في التّاريخ القديم، ليشرع في الوقت نفسه بالكتابة في المشاكل الدّولية المعاصرة، فكان أن أنجز أوّل كتابين له ظهرا سنة1915م تحت عنوان ***القومية والحرب*** و ***أوربا الجديدة***.

عمل في قسم المخابرات السّياسية إبّان الحرب العالمية الأولى بوزارة الخارجية البريطانية، واختير ضمن الوفد البريطاني في مؤتمر السّلام بفرساي .

وخلال سنوات (1919-1925م)عيّن في جامعة لندن كأستاذ للآداب والتّاريخ البيزنطي واليوناني الحديث، وسافر لتغطية تطوّرات الحرب اليونانية التّركية سنة 1921م لحساب صحيفة **الغارديان** وأسفرت هذه التّجربة عن كتاب ***المسألة الغربية في اليونان وتركيا*** و في سنة 1922م خطّ السّطور الأولى من السّفر الخالد ***دراسة للتاريخ*** الذي استغرق تأليفه واحدا وأربعين سنة.

خالف **توينبي** في كتابه **دراسة للتّاريخ** معظم المؤرّخين الذين اعتبروا الدّول القومية أو الأمم مجال الدّراسة التاريخية، إلى نظرة رحبة غير ضيقة باعتباره المجتمعات وحدة

[310]- نقلا عن الشفيقي محمد عبد الله ، مع أرنولد توينبي، مرجع سابق، ص (من 03إلى06) بتصرف .

للدّراسة التاريخية، وانتهى إلى حصر تلك المجتمعات أو المدنيّات إلى ستّ لا تزال موجودة إلى اليوم؛ الغربية، المسيحية الأرثوذكسية ، الإسلامية، الهندوكية، ومدنيّة الشرق الأقصى، وبعد تأمله لتلك القرون من التاريخ خرج إلى العالم بنظريته الشهيرة المفسّرة لنشأة الحضارات وتطورها؛ نظرية التّحدي والاستجابة؛ تنمو المجتمعات وتتدهور نتيجة التّحديات التي تواجهها و نوع الاستجابة التي تقدم عليها إزاء ذلك التّحدي.

ل توينبي محاضرات ومناقشات عديدة مع أصحاب الاتّجاهات المتطرّفة والصّهيونية، منها سجاله الشّهير مع ياكوف هرتسوج سفير إسرائيل في كندا أثبت فيه علميّته وشجاعته و اتّباعه الحقّ دون التّفكير بالعواقب أو التّبعات .

ألّف أرنولد توينبي بنحو من خمسين كتابا نذكر أشهرها:

دراسة للتاريخ –الفكر التاريخي عند الإغريق – فلسطين جريمة ودفاع – مستقبل الحضارة الغربية– الحرب والحضارة – الحضارة في الميزان – العالم والغرب – تاريخ الحضارة الهلينية – أمريكا والثورة العالمية.

لقد بلغ من استيعاب توينبي للمواضيع الذي يتحدّث عنها أن قال عنه فيبلمان: إن **توينبي** يؤلّف كلّ مكان، سواء كان القرى الصغيرة في موطن أيّ فرد، أو الأركان النّائية للأرض في أيّ عصر، وهو يحوّل كل قصّة بلمسة منه إلى شيء مشوّق.

هيرودوت[311] Herodotus :

مؤرخ إغريقي (485–430ق.م) ، وقد ترك موطنه الأصلي وهو شاب بسبب بعض المتاعب السياسية التي أحاطت بعائلته التي استقرت بجزيرة ساموس، ثم قام بعدة رحلات؛إلى مصر والشام ثم على نهر الفرات حتى مدينة بابل، وبلاد السكيث ، ألقى محاضرات في أثينا وأولمبيا ثم ارتحل إلى إيطاليا، أما مؤلفه المشهور والمنشور فهو

[311]– حماد حسين فهد، موسوعة الآثار التاريخية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن–عمان، دط، 2003، ص656(بتصرف).

كتاب (عرض للتاريخ) الذي عالج فيه أهم موضوعات زمانه وهو النزاع بين اليونان والإمبراطورية اليونانية ، وقد أوضح الهدف من بحوثه التي لم تكن لغرض تسجيل الوقائع للأجيال اللاحقة فحسب ، بل شرح أسباب النزاع بالبحث في الماضي ومن ثم الحديث عن أسباب بقاء الإمبراطوريات و زوالها، وكان أكبر رحالة في العالم القديم قبل الإمبراطور هدريان.

أوغسطين[312]: Saint Augustin

رجل دين مسيحي ملقب بالقديس اوغسطين، ولد في تاغستا المعروفة اليوم في الجزائر ب سوق اهراس سنة 354م، نهل العلم عن أساتذته الذين توسموا فيه الذكاء والخير فأخذوا يعدونه لمستقبل مشرق بالعلم والثقافة العالية بمعهد مادورا، لكن حين شب واستوى عوده طلب الحقيقة في شهوات الجسد اقتفاء لكتاب شيشرون فأخفق، واستهواه المانويون فمال إلى خزعبلاتهم وجلس إلى موائدهم ورضي لمدة بتعاليمهم عن أصل الكون ونهاية العالم ونظريتهم في الخير والشر، وفي ميلانو تعرف إلى امبروسيوس أسقف المدينة وأعجب بمواعظه وألف فيما بعد كتابه الشهير ب(الاعترافات)، له دور عظيم في إنقاذ الرومانيين من أيدي الغوط بقيادة ألاريك سنة410م، وقام يوطد الإيمان في النفوس فألف كتابه (مدينة الله) الذي ظل ولا يزال منارا للمؤمنين بالمسيحية و أتباع الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانت على السواء، اتخذت نظرته العامة للعالم وللتاريخ طابعا إيمانيا واضح المعالم فحيث لا يوجد إيمان ليس هناك حقيقة ولا معرفة، توفي سنة 430م.

[312]– اعترافات القديس اغوسطينوس، تر الخوري يوحنا الحلو، مرجع سابق، ص(من 1إلى 6)، بتصرف.

ابن خلدون[313] Ibn Khaldoun :

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (1332-1406م) مؤرخ إسلامي، ولد في تونس وشبّ وترعرع فيها، وتخرج من الزيتونة بعد أن تعلّم بها العلوم الدينية واللغوية والعقلية والطبيعية، تولى مناصب سياسية وإدارية للدول الثلاث التي كانت تتقاسم المغرب آنذاك، كما عرف أيضا ألوانا من الاضطهاد وتقلّب في السجون، ثم طمح إلى الأندلس لعظم حضارتها فاستوزر عند خلفائها، ثم عاد إلى بجاية ومنها إلى تلمسان بعد أن سئم الحياة السياسية ونزل بقلعة ابن سلامة بالقرب من فرندة وبدأ بتأليف كتابه الضخم كتاب العبر، التي اشتهر منها جزؤه الأول المعروف ب (المقدمة) التي أتى فيها بعلم جديد (علم الاجتماع)، وأخيرا رحل إلى القاهرة التي تولّى فيها منصب قاضى قضاة المالكية واستقرّ بها حتى وفاته عام1406 م، ولا تزال أفكاره التي أودعها مقدمته وكتاباته مجالا خصبا للتأمل والدراسة، ومرد قوة تلك الآراء إلى قدرة ابن خلدون على استنباط القوانين والقواعد المتحكمة في سير المجتمعات وحركتها بعد رصد الظواهر و تحليلها.

فيكو جيامباتيستا[314] Vico Giambattista

فيلسوف و عالم اجتماعي و إيطالي(1668-1744م) كان أستاذا بجامعة نابولي، قدم نظرية الدورة التاريخية، ورغم أنه كان يعترف بوجود مبدأ إلهي تتبع منه قوانين التاريخ، فإنه مع ذلك قد بين أن المجتمع لا بد أن يتطور وفقا لقوانين داخلية معينة وطبقا لنظرية فيكو فإن كل أمة تمر بثلاث مراحل في تطورها، المرحلة الإلهية والمرحلة البطولية والمرحلة الإنسانية، وهي تشبيه لفترات حياة الإنسان الطفولة والشباب والنضج، وتمثل الدولة التي لا تنشأ إلا في الفترة البطولية سيطرة الأرستقراطية، ويحل محل الدولة في

[313]- شريط عبد الله، نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984، ص(من 5إلى 7)، بتصرف.

[314]- يودين روزنتال، الموسوعة الفلسفية، تر سمير كرم، مرجع سابق، ص ص363-364.

المرحلة الإنسانية مجتمع ديمقراطي تنتصر فيه الحرية والعدالة الطبيعية، ويتبع هذا –وهو ذروة التقدم الإنساني– انهيار، فيعود المجتمع إلى حالته الأولى، ثم يستأنف حركته الصاعدة و تبدأ دورة جديدة، وقد مد فيكو نطاق مبادئه في التطور التاريخي إلى مجالات اللغة والقانون والفن، مؤلفه الرئيسي هو مبادئ العلم الجديد(1725م).

فولتير Voltaire[315]

كاتب ومفكر فرنسي(1694–1778م) كتب في الموسوعة الفرنسية مواد فلسفية ودينية لكن الحكومة الفرنسية أوقفت صدور الموسوعة وأدانت محكمة باريس قصيدة له عن الدين الطبيعي، فصار يكتب ضد التعصب الديني وضد الدين بوجه عام، وقام بالدفاع عن ضحايا التعصب الديني في فرنسا، وهيأ لهم ملجأ في ضيعته في فرنيه، كتب عن الفلسفة والمواطنة وله "رسالة عن التسامح" ، كان يؤمن بوجود إله للكون لكن إلهه لا يشبه إله اليهود و لا إله المسيحية، فهو موجود علوي غامض لا يعنى بشؤون الناس، إذ لا توجد عناية في الكون، وقد اهتم فولتير بمشكلة وجود الشر في العالم، وعبر عن هذا الرأي في قصصه الفلسفية: صادقZadik (سنة1748) العالم كما يسير(سنة1748)، ممنون(1749)، ورفض تفاؤل لايبنيز، له آراء في الأخلاق وفي العلاقة بين الدولة والدين وأكد أنه لا يجوز سريان أي قانون تضعه الكنيسة إلا إذا صادقن عليه الحكومة صراحة، واقتصاديا أكد حرمة الملكية الفردية وقرر أنه لا يجوز المساس بها، ودعا إلى حرية التجارة والثراء، عنى فولتير بالتاريخ وأسهم فيه بكتابين أصليين هما" تاريخ شارل الثاني عشر" سنة 1731 و "عصر لويس الرابع عشر" سنة 1751، واعتقد أن التاريخ ليس مرشدا كافيا للسلوك الأخلاقي، حتى أنه عرّف التاريخ بأنه "حيل ومكائد يدبرها الأحياء للأموات"

[315]– بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج1 ، مرجع سابق، ص (من 201إلى 207)بتصرف.

فلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey[316]

مؤرخ للفلسفة وفيلسوف حضارة وتاريخ ألماني (1833–1911م) ، سعى إلى إيجاد ثورة كوبرنيكية في العلوم الإنسانية وذلك بتأسيس علم تجريبي بالظواهر الروحية، فبدأ من التجربة التاريخية وتأثر بهيغل وكانط، كان لأبحاثه التاريخية عن عصر النهضة والإصلاح الديني وعصر التنوير تأثيرات عظيمة في فهم وضع الإنسان في العالم وتنوع تجاربه واتساع معنى الحياة لتشمل كل ما يصدر عن الإنسان من نظم وقوانين وإنتاج عقلي، و أعطى للإنسان بعدا أساسيا هو التاريخ، فالإنسان الفرد تاريخي في جوهره ، لأنه يعيش في الزمان، ووجوده عملية زمنية تتحدد بالميلاد والموت وتتألف من سلسلة متصلة الحلقات من ماض وحاضر ومستقبل، ولما كان كذلك فإن علاقاته علاقات تاريخية وحياته حياة تاريخية، وعالم الإنسان إذن هو عالم التاريخ، وفلسفته تصنف ضمن فلسفة الحياة التي دارت حولها جميع مؤلفات دلتاي والتي جمعت في نشرة كاملة في 12 مجلدا طبعت في برلين بين سنة 1913وسنة 1936م.

أزفالد شبنغلر Oswald Speingler[317]

فيلسوف حضارة ألماني(1880–1936م) ، أحدث تأثيرا هائلا بكتابه تدهور ""الحضارة الغربية"" ولد في بلاكنبورغ بألمانيا، وتوفي تأثر بنظرة فلهلم ديلتاي في فلسفة التاريخ فرأى أن ما يحدث ليس سيرا مستمرا ،بل دوائر حضارية مقفلة تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت، وميز بين التاريخ والتأريخ، بل إن الواحد لا يكاد يقوم إلا على أساس إنكار الآخر، فالتاريخ صيرورة خالصة، والتأريخ تحويل شيء من هذه الصيرورة الخالصة إلى ثبات، ورأى أن الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها الروح وتنمو وتزدهر في بيئة مناسبة للنمو، وتموت الحضارة حين تحقق الروح جميع ما فيها من إمكانات على هيئة شعوب

[316]– المرجع نفسه، ص (من475إلى477)بتصرف.

[317]– بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج2، مرجع سابق، ص(من 8إلى11) بتصرف.

ولغات ومذاهب دينية و فنون ودول وعلوم، ومن ثم تعود إلى حالتها الأولى، فالحضارة كالكائن العضوي الحي لها طفولتها وشبابها ونضجها وشيخوختها.

كارل يونغ [318] Carl Jung:

عالم نفساني سويسري(1875-1961م) أسهم بقسط وافر في بيان اللاشعور وفي تكوين الطب النفسي، كان صديقا للعالم النفساني الشهير سيجموند فرويد، أشهر نظرياته أنماط الشخصية وأهم مؤلفاته الأنماط النفسية، يعتبر مؤسس علم النفس التحليلي، وكانت آراؤه ذات تأثير كبير في الفلسفة و شتى الميادين، وتأثر به توينبي في صياغة نظريته الشهيرة في ميلاد الحضارة، حيث يرى يونغ أن جميع الظواهر ذات طبيعة طاقوية وبدون التضاد لا يمكن للطاقة أن توجد، فلكي يسري البديل لا بد من وجود ضغط مسبق بين المتضادين، وفي علم النفس السلوكي فإن الصدمة التي يتعرض لها الفرد تضعه بين خيارين: فهو إما أن يستجيب لها ويحول تلك المحنة إلى منحة، وإما أن ينتكص على عقبيه بالاستجابة لها استجابة سلبية وينطوي على نفسه، وتتمثل الصدمة لدى توينبي عند الأمم والحضارات في التحديات الكبرى التي تعرض لها ويستجيب لها أفراد الجماعة المبدعة استجابة ناجحة، فتلتمس طريقها للخلاص وتمهد لها السير في طريق الحضارة حين تتغلب عليها.

[318]– بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج2، مرجع سابق، ص 642 وما يليها، بتصرف.

ثبت المصطلحات الواردة في الأطروحة

الحضارة	Civilisation	Civilization
التاريخ	Histoire	History
الدين	Religion	Religion
الثقافة	Culture	Culture
المجتمع	Social	Society
المدنية	Civilisation	Civilization
البروليتاريا	Prolétariat	Prolétariat
الفن	Art	Art
التحدي والاستجابة	Défi et réponse	Challenge and Résponse
المجتمعات البدائية	Sociétés primitives	Primitive sociétés
الدورة الحضارية	Cycle de civilisation	Civilisation cycle
الآثار	Archéologie	Archarology
الميلاد	Naissance	Birth
الفتوة	Intimidateur	Bully
الشباب	Jeuneuse	Young
الهرم والشيخوخة	Vieillissement	Aging
العلمانية	Séculier	Secular
عصر الأنوار	Age des lumière	Age of lights
الاختبار العلمي	Expérimentation	Expérimentation
التحليل المنطقي	Analyse logique	Logical analysis

الاستدلالات	Inferences	Inferencees
الأديان السماوية	Religions monotheistes	Religions
الوثنية	Idolatrie	Idolatry
سيكولوجيا	Psychologie	Psychology
الإلهام	Inspiration	Inspiration
الفطري	Inne	Innate
القبيلة	La tribu	The Tribe
العشيرة	Clan	Clan
السياسة	Politique	Politics
الأديان	Religions	Religions
التدين	Religieuse	Religious
علم النفس الاجتماعي	Psychologie Sociale	Social Psychology
المنهج الفلسفي	Philosophie Méthode	PhilosophicMethod
الخبرة	Expérience	Experience
الديمقراطية	Démocratie	Democracy
الاشتراكية	Socialisme	Socialism
الطبيعة	Nature	Nature
مستقبلية	futurisme	Futurism
العملية	Opérationalisme	Opérationalisme

لغة	Langage	Language
أخلاقي	Morale	Moral
عمل	action	Works
فكر	Pensée	Thought
الحرية	Liberté	freedom
الذات	Sujet	Subject
فرد	individu	individual
النمو	croissance	Growth
العقل	intellect	Mind
إيمان	foi	faith
اعتقاد	Croyance	Belief
الحياة	Vie	Life

فهرس المحتويات

الإهداء

الشكر

مقدمة..... أ / ز

الفصل الأول: من الماهية إلى الكرونولوجيا و المرجعية

المبحث الأول:

مدخل مفاهيمي(توطئة).....9

مفهوم الحضارة.....10

الحضارة عند توينبي.....17

مفهوم الثقافة.....19

مفهوم المدنية.....24

مفهوم الدين.....25

مفهوم البروليتاريا.....28

مفهوم التحدي والاستجابة.....29

المبحث الثاني: كرونولوجيا الحضارة في الفكر الفلسفي

فجر الحضارة في الشرق القديم.....32

الحضارة في الفكر الغربي 35

المبحث الثالث:المرجعيات الفكرية ومفهوم الحضارة في الفكر الغربي المعاصر

توينبي والقديس أوغسطين.....55

توينبي وابن خلدون.....60

توينبي و شبنغلر.....69

الفصل الثاني: نظرية الحضارة عند أرنولد توينبي

المبحث الأول: انتقادات توينبي لنظريات نشأة الحضارة

المجتمعات البدائية و الحضارات.....81

نظرية العرق.....85

نظرية البيئة.....91

المبحث الثاني: ميلاد الحضارة

نظرية التحدي والاستجابة.....96

التحدي الطبيعي 104

التحدي البشري.....109

الحوافز المتعلقة بالبيئة الطبيعية

حافز الأرض الصعبة.....111

حافز الاستيطان في أرض جديدة.....114

الحوافز المتعلقة بالبيئة البشرية

الدافع الناتج عن الضربات.....118

الدافع الناتج عن الضغوط.....120

الدافع الناتج عن العقوبات.....122

المبحث الثالث: نمو الحضارات

الحضارات المتعطلة..... 127

الحضارات المتعطلة بسبب تحد طبيعي.....128

الحضارات المتعطلة بسبب تحد بشري.....133

طبيعة نمو الحضارات وارتقاؤها

الارتقاء عن طريق التوسع الجغرافي..... 142

الارتقاء عن طريق إخضاع البيئة المادية..... 143

الارتقاء صوب تقرير المصير..... 147

الفصل الثالث: من الانهيار إلى التجديد الحضاري

المبحث الأول: انهيار الحضارة.....156

عوامل الانهيار

آفة المحاكاة.....158

آفات الإبداع

خمر جديدة في زقاق عتيقة.....161

عبادة ذات فانية.....163

آفة الحرب.....166

طبيعة تحلل الحضارات.....168

مظاهر الانشقاقات الاجتماعية..... 170

البروليتاريا الداخلية 172

البروليتاريا الخارجية.....175

المبحث الثاني: مصير الحضارة الغربية عند توينبي

الدين كمسلك لتفادي إخفاق تقرير المصير.....179

وهم التقدم المادي كمسلك للارتقاء.....184

المبحث الثالث: الحضارة الإسلامية في ضوء النظرية

طور النشأة.....194

طور الارتقاء.....197

طور الانهيار.....200

خاتمة.....206

قائمة المصادر والمراجع.....212

الفهارس.....222

فهرس الأعلام.....223

ثبت المصطلحات.....230

فهرس المحتويات.....233

ملخص الأطروحة

يهتمّ الفيلسوف الإنجليزي جوزيف أرنولد توينبي بمجالات بحث مختلفة، من بينها مجال الدّين والحضارة وهو ميدان له صلة مباشرة بمشكلة المجتمعات المعاصرة، وما يطرحه العلم من تحديات وصعوبات تواجهها الحياة الإنسانية في ظل التطورات التي عرفتها، ويعدّ المؤرخ توينبي أحد أهم الباحثين في هذا المجال، وفي هذه الرسالة نحاول التعرف على أهم النتائج التي وصل إليها بداية بالمفهوم الذي قدمه للحضارة، ثم ننظر في الأسباب التي دفعته للاعتراض على مركزية الحضارة ومساهمة الدين كمناعة اجتماعية في رقيها ومانع يحول بين البشرية وبين تدمير نفسها، ودور التحدي والاستجابة في ظهورها وزوالها.

كلمات مفتاحية: الحضارة ،الدين، المجتمع، التحدي، الاستجابة، التاريخ.

Abstract:

The English philosopher **Josef Arnold Toynbee** has been interested in various fields of Religion and civilization the field that is directly related to the problem of values in contemporary societies and the challenges and difficulties facing human life in light of developments that is has know .

The Historian Toynbee is considered one of the most important researched in this field, and in this article we try to identify the most important results that he reached at the beginning with the concept he presented to civilization, then we look at the reasons that led him to object to the centrality of civilization and the contribution of religion as a social immunity in its advancement and a barrier that prevents humanity from destroying itself, and the role of challenge and response in its emergence and demise.

Keywords: civilization, religion, the société, response, challenge, historic.

Résumé:

Le philosophe anglais **Josef Arnold Toynbee** s'intéresse à divers domaines de recherche dont le demaine du temps et de civilisation qui est un demain directement lie a la problématique des sociétés contemporaines.

La science pose des défis et des difficultés à la vie humaine et la lumière des développements qui l'historien Toynbee est l'un des chercheurs les plus importants dans ce domaine et dans cette letter nous essayons de connaitre les resultas les plus important auxquels il les parvenu en commencant par le concept qu'il à presenter à la civilization puis nous examinons dans les raisons qui l'ont conduit à s'opposer à la centralité de la civilisation et à l'apport de la religion comme immunité social dans son avancement et une barrière qui empêche l'humanité de se détruire et le rôle de défi et de réponse dans son émergence et sa disparition.

Mots-clés: civilisation, religion , la société, défi, réponse, l'histoire.